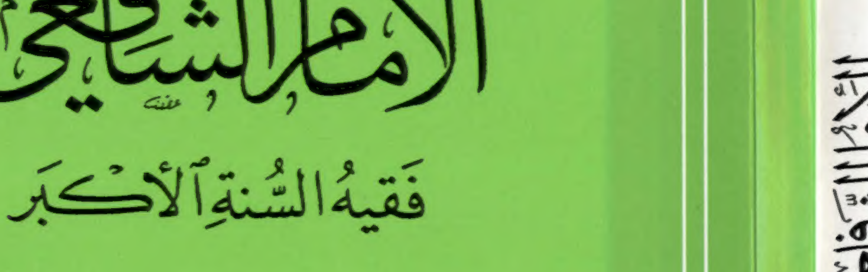
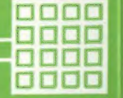
أعلام المسلمين
٢



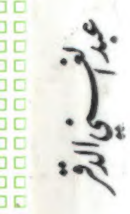
فقيه السنة الأكبر

«كان الشافعي كالشمس للدنيا، وكالعافية للبدن؛ فهل ترى لهذين من خلف، أو عنهما من عوض.»
الإمام أحمد بن حنبل

عبد الغني الدقر



دار القلم
دمشق



الإمام الشافعي



هذا الكتاب

الإمام الشافعي أحد أئمة الدنيا فضلاً وعلماً وديناً، انتفع المسلمون بعلمه واجتهاده منذ اثني عشر قرناً ولا يزالون، وعرفه أئمة الإسلام في زمانه؛ فشهدوا أنهم ما رأوا له مثيلاً، وما عرفوا ـ في عصره وما بعده ـ أعظم منّة على الإسلام منه، وشهد المحدثون خاصة بفضله عليهم؛ فلقبوه «ناصر السنة» وقالوا على لسان الإمام أحمد: «لولا الشافعي ما عرفنا فقه الحديث، وكان الفقه قفلاً على أهله حتى فتحه الله بالشافعي».

فضائله كثيرة، ومناقبه غزيرة، وحياته القصيرة من أروع ما سطّر التاريخ من سير الرجال، لذا كتب العلماء قديماً وحديثاً عن هذا الإمام الجليل عشرات الكتب، وطبع الكثير مما كتبوه، ولا يزالون يجدون في الشافعي مجالاً رحباً للكتابة والتأليف.

وهذا الكتاب في الشافعي صنفه عالم أديب مفضال، فجاء في طراز بديع، فقد عرض أولاً حياة هذا الإمام من الولادة حتى الوفاة، وسار فيها خطوة فخطوة، وجلى مراحل حياته أحسن ما يكون، ثم بحث في علمه الواسع في جوانبه المتعددة، ثم أتى على جوانب أخرى من شخصية الشافعي، كعقله ودينه وحكمه وتجاربه... وتم للمؤلف بذلك في الشافعي سيرة واضحة، رائعة، فيها النفع الكبير إن شاء الله تعالى.

محمد علي دولة


الإمام الشافعي
فقيه السنة الأكبر

الطبعة السادسة
١٤١٧هـ - ١٩٩٦م

تُطلب جميع كتبنا من :
دار القلم - دمشق : ص.ب : ٤٥٢٣ - ت : ٢٢٢٩١٧٧
الدار الشامية - بيروت - ت : ٦٥٣٦٥٥ / ٦٥٣٦٦٦
ص.ب : ٦٥٠١ / ١١٣

توزع جميع كتبنا في السعودية عن طريق
دار البشير - جدة : ٢١٤٦١ - ص.ب : ٢٨٩٥
ت : ٦٦٠٨٩٠٤ / ٦٦٥٧٦٢١

أعلام المسلمين

٢

الإمام الشافعي

فقيه السنة الأكبر

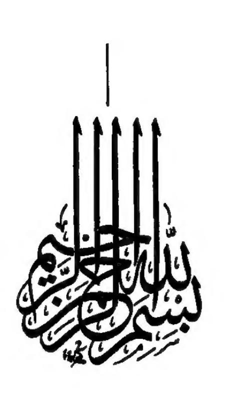
١٥٠ – ٢٠٤ هـ

« كان الشافعي كالشمس للدنيا ، وكالعافية للبدن ؛
فهل ترى لهذين من خلف ، أو عنهما من عوض . »

الإمام أحمد بن حنبل

عبد الغني الدقر

دار القلم
دمشق



هَـذا الرّجُـل

«لما نظرت الرسالة للشافعي أذهلتني، لأنني رأيت كلام رجل عاقل، فصيح ناصح، فإني لأكثر الدعاء له، وما ظننت أن الله خلق مثل هذا الرجل»

الإمام الحافظ عبدالرحمن بن مهدي

«ما أعلم أحداً أعظم منة على أهل الإسلام من الشافعي»

الإمام الحافظ أبو زرعة الرازي

«مع الشافعي نصف عقل أهل الدنيا»

بشر المريسي

«ما أحد مس بيده محبرة ولا قلماً، إلاّ وللشافعي في رقبته منة، ولولا الشافعي ما عرفنا فقه الحديث، وكان الفقه قفلاً على أهله حتى فتحه الله بالشافعي»

الإمام أحمد بن حنبل

«أصحاب الحديث عيال على الشافعي، فتح لهم الأقفال»

هلال بن العلاء الرقي

«إن تكلم أصحاب الحديث يوماً، فبلسان الشافعي»

محمد بن الحسن صاحب أبي حنيفة

قال إسحاق بن راهويه: «لقيني أحمد بن حنبل بمكة، فقال: تعـال أريك رجلاً لم تر عيناك مثله، فأراني الشافعي، قال: فتناظرنا في الحديث فلم أر أعلم منه. ثم تناظرنا في الفقه فلم أر أفقه منه، ثم تناظرنا في القرآن فلم أر أقرأ منه، ثم تناظرنا في اللغة فوجدته بيت اللغة، وما رأت عيناي مثله قط».

المقـــدّمَة

الحمد لله كما ينبغي لكرم وجهه وعز جلاله.

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمداً عبده ورسوله، صلّى الله عليه في الأولين والآخرين، أفضل وأكثر وأزكى ما صلّى على أحد من خلقه، والسلام عليك ورحمة الله وبركاته[1].

أما بعد:

فقد نزل القرآن منجّماً على رسول الله ﷺ في نحو ثلاث وعشرين سنة، وفيه خطة الإسلام كاملة: من تقرير لوجود الله، وإثبات لوحدانيته، ومن عبر وعظات وأخلاق، ومن عرض لقصص الأنبياء وسير أممهم، من آمن منهم ومن كفر.

ومن هذه الخطة في القرآن، أن شرع الله فيه من الأحكام، ما ينظم حياة الأفراد والجماعات، ويحفظ عليهم: الدين، والنفس، والعقل، والنسل، والمال، في نحو ثلث القرآن.

وكان من رسالة النبي ﷺ أن يبين ـ في سنته[2] ـ للناس ما نُزل

(١) مقتبس من كلام الشافعي في مقدمة رسالته.

(٢) تطلق السنة على: قول رسول الله ﷺ، وفعله، وإقراره.

إليهم، من مجمل لكتاب الله، أو تخصيص لعمومه، أو تعميم لخصوصه، وما أُحكم وما نُسخ. وكان أصحاب رسول الله يسمعون كلام الله ويفهمونه ـ وهم عرب ـ وبلغتهم نزل القرآن، فلا يحتاجون ـ على الأغلب ـ إلى من يفسره لهم، أو يوضح دلالاته، وكان رسول الله ﷺ بين أظهرهم، يأخذون منه ـ تارة ـ ما يقوم به بالفعل، ويثير انتباههم إلى ذلك حيناً، فيقول مثلاً: «صلوا كما رأيتموني أصلي» «خذوا عني مناسككم» وتارة يسألونه عما خفي عليهم، أو ينتفعون بسؤال بعضهم، أو يبادرهم الرسول ﷺ بالحض على أمر، أو النهي عن آخر، وأغلب ما ورد من الأحكام ـ آيات أو سنناً ـ مبني على وقائع حدثت، فيأتي فيه حكم الله أو حكم رسوله.

ويتفاوت الصحابة ـ رضوان الله عليهم ـ سابقةً وعلماً وفضلاً وقرباً: فمنهم السابقون الأولون، ومنهم العلماء المجتهدون، ومنهم الملازمون لمجلس النبي ﷺ، ومنهم المكثرون من الرواية والمقلون، ومنهم دون ذلك.

وانتقل رسول الله ﷺ، وسنته كلها في صدور الكثرة من أصحابه، ولم يكن عند أحد منهم قط جميع أقواله وأفعاله وإقراره، وإنما كان عند كل راو منهم نصيب منها قلّ أو كثر.

وتفرق الصحابة في الأمصار عند الفتح، فمنهم من نزل الشام، ومنهم من نزل العراق، ومنهم من نزل مصر، وجمهورهم اتخذوا المدينة دار إقامة لهم، وكانوا ـ بالطبع ـ مرجع الفتوى في كل بلد نزلوا به، ليس للتابعين وحدهم، بل

لعوام[1] الصحابة من الذين لم يبلغوا شأوهم، وكانوا يفتون بما نزل من القرآن، فإن لم يجدوا فبما أثر عن رسول الله ﷺ، فإن لم يجدوا اجتهدوا ـ ولم يألوا ـ فأفتوا بما هو أقرب إلى حكم الله ورسوله، مما يدخل في عموم من الكتاب والسنة.

وجاء عهد التابعين؛ فورث علماؤهم علم الكتاب والسنة وفقههما، واجتهاد علماء الصحابة رضي الله عنهم، وفتاواهم، وزادوا على ذلك آراءهم وأحكامهم، وأقضيتهم، فيما حدث في زمنهم من وقائع وقضايا. وأتى من بعدهم تابعوهم، فورثوا علم من قبلهم واجتهادهم وأدلتهم، وزادوا على ذلك من عندهم اجتهادهم في واقعاتهم وأحداثهم.

وما أظل عهد الأئمة الأربعة، حتى أصبحت شجرة الفقه والاجتهاد، ضخمة ممتدة، وارفة الظلال منوعة الثمار، ومع ذلك إن الأحداث والوقائع والقضايا أغزر عدداً وأكثر تنوعاً من النصوص، وكلما امتد الزمن، وتعقدت حياة الناس، وتنوعت أجناسهم، واختلفت بيئاتهم وعقولهم وطبائعهم، ومدى تحضرهم ـ تزداد وقائعهم وقضاياهم وتتنوع.

وكانت بداءة ذلك حين انقطع الوحي بانتقال النبي ﷺ، وفتحت الفتوح، واقتحمت الحضارة كل شيء، واضطر العلماء المجتهدون أن يبحثوا عن حكم الشرع في كل حادثة تحدث، أو قضية تَعرِض، فمنهم من يرى في نصوص الكتاب والسنة العامة والخاصة، الواضحة العلة، ما يكفي لمنح كل واقعة حكماً، من

---

(١) العوام: ما يقابل الخواص.

غير تحميل النصوص ما لا تحمل، ومنهم من يستنبط الحكم من صريح النصوص ما دام يعتقد أن ذلك ميسَّر له، وإلا أفتى أو قضى بكل ما يوقن أن فيه روح الشرع الملائم أبداً لصلاح الناس، ملتمساً دليلاً ما يمت إلى الكتاب أو السنة بأي سبب.

وهكذا اختلفت مناهج المجتهدين من عهد الصحابة رضوان الله عليهم، إلى آخر عهد الأئمة الأربعة، وانتهت هذه المناهج إلى مدرستين: مدرسة الحديث بالحجاز، ومدرسة الرأي بالعراق، وجمهور الفقهاء يلتزمون منهج إحدى هاتين المدرستين. وهناك مدرسة ثالثة لم يشر إليها مؤرخو الفقه، هي مدرسة الشافعي، وسيأتي الحديث عنها.

هذا عرض موجز سريع لبعض مراحل الاجتهاد في الفقه، فأين مكان الشافعي من هذا الخضم العظيم من النصوص، والأفهام، والأقضية، والفتاوى؟

لا ريب أن مقام الشافعي من هذا الخضم مقام المنارة المشعة في جزيرة منيعة ضخمة، فلقد آتى الله الشافعي من حدة الذكاء، وغزارة المواهب، والرغبة الصادقة والاستقامة والتقوى، ما يسرّ له أن يطَّلع في فترة قصيرة من عمره على جميع ما وصل إلى زمنه من علم؛ فلقد أخذ العلم المكي من: سفيان بن عيينة، ومُسلم بن خالد الزنجي، وسعيد بن سالم القدَّاح، وداود بن عبد الرحمن العطار، وعبد المجيد بن عبد العزيز بن أبي روّاد. وأخذ علم المدينة من: مالك بن أنس، وإبراهيم بن سعد الأنصاري،

وعبد العزيز بن محمد الدَّرَاوَرْدي، وإبراهيم بن أبي يحيى الأسلمي، ومحمد بن سعيد بن أبي فُديك، وعبد الله بن نافع الصائغ، صاحب ابن أبي ذئب. وأخذ علم اليمن من مُطرّف بن مازن، وهشام بن يوسف قاضي صنعاء، وعمر بن أبي سلمة صاحب الأوزاعي، ويحيى بن حسان صاحب الليث بن سعد. وأخذ علم العراق من: وكيع بن الجراح وأبي أسامة حماد بن أسامة الكوفيين، وإسماعيل بن عُلية وعبد الوهاب بن عبد المجيد البصريين، كما تلقى علم أهل الرأي عن أحد الصاحبين محمد بن الحسن سماعاً منه، وكتب من كتبه حمل جمل.

فأنت ترى أن الشافعي ـ رحمه الله ـ لم يلتزم في أخذه ودراسته مذهباً معيناً، وإنما تلقى فقه أكثر المذاهب التي عرفت في عصره؛ فاجتمع له بذلك فقه مكة والمدينة، والشام، ومصر، والعراق، وقلما أتيح هذا لغير الشافعي.

لقد اطلع الشافعي إذن ـ في التقدير الأقل ـ على معظم ما عرف إلى زمنه من فقه واجتهاد، غيرما حفظ من السنن والآثار، حتى قيل فيه: «ليس هناك حديث في الأحكام لم يضمِّنه الشافعي كتبه».

ثم أخذ بعقله الواعي، وبصيرته النافذة، وإخلاصه في طلب الحق، مع علم للعربية لا يُقارَن فيه ـ يدرس ويوازن بين الأدلة، ويعيد النظر فيما استنبط، حتى عرف طريقه، فوضع مخططه في الاجتهاد في كتاب الرسالة، وسار على منهج واضح مستقل، ينشىء مذهبه المدعوم بأقوم حجة من منطق الشريعة وآثارها.

وهذا ما اختص به الشافعي من دون غيره من المجتهدين، فإن غاية ما عرف عن غيره، فتاوى ومذكرات وأقوال، جمعها من بعده، فكانت نواة لمذهب، وإن كان محدثاً فله كتاب في الحديث مع بعض التعليقات والآراء.

أما الشافعي فكان ـ كما نقول في هذا العصر ـ منهجياً، يضع أولاً أصوله، ثم يبني عليها مذهبه، يؤلفه بنفسه، ويؤيده بأدلته، ولا يخرج عما رسم.

ومذهب الشافعي هو المدرسة الثالثة التي أشرنا إليها من قبل، وهي بين مدرسة الرأي ومدرسة الحديث، وهي إلى مدرسة الحديث أقرب. عُني أولاً بالقرآن الكريم، وفهمه بمهارته في العربية، وما صح من المأثور في تأويله، وفتح في الحديث فتحاً لم يُعهد من أحد قبله، في فقهه، والتشقيق عن معانيه، وإبراز العلّة فيه.

لست في معرِض التحدث عن خصائص المذهب الشافعي، فهي في حاجة إلى دراسة مستفيضة دقيقة، وإنما هو عرض سريع للفقه إلى زمن الشافعي، دعانا إليه تأريخ حياة الشافعي، وما حياته إلا مرحلة مهمة في تاريخ الاجتهاد والفقه.

* * *

لقد ألف في حياة الشافعي كثيرون بين المسهب والموجز، ومن أشهرهم: داود بن علي الأصبهاني إمام أهل الظاهر، له مصنفات في ذلك، ثم زكريا الساجي وعبد الرحمن بن أبي حاتم، ثم الآبري في كتاب حافل، ثم الحافظ الحاكم مصنفاً جامعاً، ثم

الحافظ أبو بكر البيهقي المعروف بفُندق[1]، ثم ابن شاكر القطان، ثم إسماعيل بن محمد السرخسي القرّاب مجموعاً حافلاً، ثم عبد القاهر بن طاهر البغدادي، صنف كتابين: أحدهما كبير حافل يختص بالمناقب، والآخر بالرد على الجرجاني الحنفي.

ثم أتى بعد هؤلاء كثيرون، منهم: النووي، وابن حجر العسقلاني؛ ويقول ابن خلكان: وأخبرني أحد المشايخ الأفاضل: أنه عمل في مناقب الشافعي ثلاثة عشر تصنيفاً[2].

وهناك من ألف في الدفاع عن الشافعي والرد على خصومه كالبغدادي، ومن ألف في وجوب تقليد مذهبه دون غيره لمن عجز عن الاجتهاد كالجويني، ومن ألف في دراسة الشافعي: منهجاً، واجتهاداً، وفقهاً كالعلامة المعاصر أبي زهرة، وقبله الباحث الفيلسوف مصطفى عبد الرزاق، وغير هؤلاء كثيرون، وهكذا نرى أنه لم يصنف في أحد الأئمة الأعلام ما صنف في الشافعي. ومع ذلك فنحن على يقين أن الشافعي المجتهد، المبدع لفن الأصول؛ ما يزال في حاجة إلى مباحث جدية ناضجة، تبرز أصوله، وتستوعب ما أحكمه واختص به، من فقه واجتهاد واستدلال، وهذه غاية لا يدركها إلا صابر، طويل الأناة، ذو ملكة علمية وفقهية نادرة.

أما حياته الشخصية والعلمية، فقد ألف فيها ـ كما مر آنفاً ـ

---

(١) من طبقات السبكي (١: ٣٤٣).

(٢) وفيات الأعيان (١: ٥٦٧).

كثيرون، وما أظنهم غادروا من حياتـه كبيرة ولا صغيـرة إلا أحصوها، ولكنهم فيما يبدو قد يجمعون أحياناً أخباراً متناقضة متعارضة، وقد يكون عذرهم أنهم جماعون، يلتقطون الأخبار مهما تكن ويحاولون تصنيفها، ولو أن أخبار الشـافعي كانت موزّعة بدقة على حياته لطرح بعض الأخبار التي ليس لها مكان في تسلسل حياته.

أما نحن في كتابنا هذا عن حياة الشافعي فنعترف أنا عالة على ما بأيدينا من كتب الأقدمين، وخصوصاً منها كتاب «آداب الشافعي ومناقبه» لعبد الرحمن بن أبي حاتم الرازي، الذي هو من أوثق الكتب المعنية بأخبار الشافعي، فالمؤلف ـ على ثقته ـ ليس بينه وبين تلاميذ الشافعي الذي يروي عنهم إلا شخص أو شخصان.

وليس لنا من الجهد إلا تنسيقها وترتيبها وتسلسلها، والتحري ما أمكن عن صحيحها وصوابها، وعمدنا إلى أن نكتب حياة الشافعي في تسلسل، مرحلة إثر مرحلة، منذ ولد إلى أن وافاه الأجل، وأتينا قبل ذلك على ذكر أجداده وما عرف عنهم، ليكون بين يدي القارىء قصة حياة هذا الرجل العظيم كاملة متتابعة في إيجاز، ثم عرضنا ـ بعد سرد مراحل سيرته ـ ما نقل من ناحيته العلمية في فروعها كلها، وشهادة كبار العلماء فيه من مختلف المذاهب والنحل، وبعض صفاته الخلقية، وليس معنى هذا أن تسلسل حياة الشافعي المادية خلا من الحديث عن حياته العلمية، فما للشافعي من حياته المادية إلا القليل، ومعظم حياته في نشاطه العلمي والتعليمي؛ لذلك دمجنا حياته المادية والعلمية في هذا التسلسل، لنعلم مراحل التطور فيهما.

هذا وقد نقلنا عن أعلام كثيرين، فحرصنا أن نعطي عنهم ترجمة صغيرة في التعليق، ليعرف القارىء عمن نتحدث.

وبعد:

فما نستطيع أن ندعي أننا جلينا هذا الحبر الجليل في هذه السيرة المختصرة له، وما يزال بيننا وبين ذلك بحث جاد دائب لدهر طويل، لنكون على مقربة من معرفته حقاً، ثم تعريفه للناس، وما محاولتنا هذه إلّا محاولة من يريد أن يعلم حقيقة الشمس من شعاعها وما يحسّ من حرارتها. ولعل في هـذا المقدار ما يكفي لمن خلت أذهانهم من معرفة شيء عن هذا الإمام العظيم محمد بن إدريس الشافعي.

دمشق الشام
٥/٢/١٣٩٢ هـ
٢٠/٣/١٩٧٢ م
عبد الغني الدقر

* * *

عصر الشّافِعي

عصر الشّافِعي

أنضر عصور الإسلام حضارة وفكراً وثقافة وعلماً، القرن الأول من الحكم العباسي، من سنة اثنتين وثلاثين ومائة إلى سنة اثنتين وثلاثين ومائتين، وهو العصر الذي عاش فيه الإمام الشافعي بأربع وخمسين سنة.

فقد تجلّت في هذه الفترة قوة الحكم واستقراره، فملك الخليفة عِنان الدولة، وبسط جناح نفوذه على رقعتها الكبيرة، وساس فيها بحزم وعزم أجناساً من الناس، تختلف عنصراً وبيئة، وثقافة وتحضراً. هذا الوجه السياسي القادر، أجتثّ أطماع الطامحين في منابر الحكم، إلاّ فئة قليلة لها أنصارها، ترى أن لها الحق في الخلافة، لقرابتها من رسول الله ﷺ، كلما نجم منها ناجم استؤصلت شأفته، وأبيدت خضراؤه، حتى استقام الأمر، وشاع الأمن، واطمأنت الرعية، ومُنح الناس حرية القول والعمل والاعتقاد، إلاّ المس بحق العباسيين بالخلافة، والجهر أحياناً بالردة، وبعض هَنَات من حمل علماء الدين على عقيدة لا يريدون اعتقادها.

وانطلقت الألسنة وانبجست الأفكار من عقولها، ونشطت

الآراء والمذاهب والنحل من عقالها، ونقلت من اليونانية والفارسية إلى العربية فلسفات وعلوم ونظم وثقافات، وحفلت مجالس الخلفاء والأمراء والقواد، بالعلماء والفقهاء والفلاسفة والشعراء والرواة والقصاص، وأتسى أشراف الناس وأغنياؤهم في ذلك.

وحمل كل جنس من عرب، وفرس، وروم، وهنود، وغيرهم في هذه الدولة المترامية الأطراف؛ حمل معه من أمته وبيئته كثيراً من وراثاته، وعقائده وأفكاره، وطرق عيشه، وأساليب حياته، وآدابه، ومآثره، وطبائعه، حتى كانت عاصمة الدولة بغداد، وكثير من المدن الإسلامية، تموج بتيارات مختلفة من المشاعر والأفكار والمعتقدات، وتضطرب فيها متناقضات من الطبائع والعادات. ثم تداخلت كلها وتفاعلت، ونتجت منها حضارة متكاملة، بل حضارة فائرة، اهتزّت فيها كل الألوان وربت، من خطيرها إلى حقيرها، ومن صالحها إلى فاسدها، ومن روائع أفكارها إلى عبثها ومجونها، ومن أعلى فضائلها إلى رذائلها.

وليس الحكم وحده هو الذي أخضع هذه الأمم المختلفة لسلطانه، ولكنه قبل كل شيء الإسلام، الجامعة الكبرى لهذا الخليط، فالدولة باسمه تحكم، والقضاة بأحكامه تقضي، والسواد الأعظم به يجتمع، ولأجله يقاتل ويدافع، وبأوامره يأتمر وبزواجره ينزجر.

وما نحن بسبيل تفصيل هذا المجمل من وجوهه كلها، فهذا العصر معروف، كتب في تاريخه السياسي والفكري والعلمي، بل تاريخ لهوه ومجونه ـ مئات الكتب، إن لم نقل آلافها، ولكن سنتحدث بعض الشيء عن الناحية الدينية الإسلامية في هذا العصر؛ لأنها الأصل في تكوين التاريخ الإسلامي الديني والعلمي واللغوي، ولصلتها المباشرة بالإمام الشافعي.

كان الإسلام في حياة النبي ﷺ غضاً طرياً، ينزل به وحي الله على رسوله ﷺ، فيدخل القلوب، وتطيعه العقول والجوارح، فكان له بذلك ـ على الأرض ـ معجزات، عجزت كل سبل الإصلاح أن تأتي بمثلها، إنسانيةً، ونقاء ضمير، وسمو روح، وصفاء عقل، وقدرة على العمل، وشجاعة وعدلاً، واستمر هذا الحال، أو قريب منه، خلافة أبي بكر وعمر وصدراً من خلافة عثمان، ثم طفق الحال يتبدل في نفوس بعض الناس، حين كثرت الفتوحات وأتت الغنائم، فاغتنى الناس، وشغل بعضهم بالدنيا عن الدين، وأدلت السياسة بدلوها، فتحزب المشتغلون بها لبعض كبار الصحابة دون بعض، وتمادت هذه الحال إلى أن أشاطت بدم عثمان يوم الدار، ومن هنا ذرّ قرن الفتن، ثم تتابعت، وظهرت معها الفرق، وأسماء أقدمها تدل على المنزع السياسي، فالشيعة المشايعون لعلي، والخوارج الذين خرجوا على علي ومعاوية، وإذا كانت المجالدة بالسيوف شديدة في ميادين القتال، فإن المجادلة كانت أشد

في المساجد والأندية والمجتمعات.

وتمخض هذا الجدل عن عقائد اعتنقها هؤلاء وهؤلاء، وما أسلم امرؤ نفسه للجدل في الدين، إلا وقد سمح لعقله أن يتحرر من قيود النصوص، وأن يبتدع في الدين ما ليس منه؛ وإن حاول أن يجد لمقالته دليلاً ما من كتاب أو سنة، وهكذا نشأت من بين الشيعة والخوارج فرقة المعتزلة، التي خاضت مع الفرق جدلاً، أورثها أيضاً مبادىء وعقائد جعلتها أساس نحلتها.

هذه الفرق الثلاث هي التي انسلّت من جماعة المؤمنين، واتخذت لنفسها كياناً خاصاً، واستمرت حتى عصرنا الذي نتحدث عنه. أما حالها: فإن الشيعة ما فتىء سيف الحكم زمن بني أمية وزمن العباسيين الأولين، يعَض من لحومها، ويريد استئصالها؛ ولكنها ثبتت على ذلك، وتوزعت في الأرض، وانقسمت على نفسها شيعاً بين مغال ومعتدل.

وأما الخوارج الأشداء في دينهم وفي نحلتهم وفي حروبهم، فقد اجتاحتهم حروب طاحنة من زمن علي رضي الله عنه إلى آخر عهد بني أمية، حتى لم يبق منهم زمن العباسيين الأولين كبير خطر تخشاه الدولة. وأما المعتزلة فليست فرقة تهتم عملياً بالسياسة، ولا هي مما يخاف خطرها على الحكم، ومجالها عقلي محض، أرادت أن تخضع الدين للعقل وتأول النص القطعي ليتسق مع مبادئها. نشأت

هذه الفرقة في أوائل الحكم الأموي، وتطورت على الزمن، واستغلّت منطق يونان وفلسفتها لتعزيز آرائها. اتفقت على مبادىء خمسة، واختلفت فيما عداها، وانقسمت فرقاً، حتى ليكاد يكون لكل شيخ فيهم مذهبه ورأيه، وكانت صلتها مع الخلفاء العباسيين في العصر الذي نتحدث عنه، صلة متينة جيدة، إذ كان من علمائها وزراء وكتّاب وقضاة، وكانوا مقدمين حتى في المجالس الخاصة للخلفاء، وخصوصاً زمن المأمون والمعتصم والواثق، بل كان رأيهم زمن هؤلاء الخلفاء هو النافذ، ولا ننسى محنة خلق القرآن. وتأثير المعتزلة على نمو الحالة العقلية أمر لا جدال فيه؛ حتى في الفقه: استنباطاً، واجتهاداً، وقياساً.

أما الكثرة من جموع المؤمنين، فقد كانت تابعة لأئمة الدين، الذين اجتهدوا أن يكونوا في دينهم وعلمهم على هدي النبي ﷺ وأصحابه، وكلما كانوا أقرب إلى ذلك؛ كانوا أدنى إلى قلوب المؤمنين الصادقين، وعلى قدر بعدهم عن ذلك تجفو عنهم قلوبهم، هكذا كان حال هذه الكثرة زمن الصحابة والتابعين، وكذلك كان لها حالها في العصر العباسي الأول، وإذا كان من خلاف بين أئمة الدين ممن سلكوا سبيل السنة، فهو خلاف المجتهد مع المجتهد في طريقة الفهم والاستنباط، ووفرة الأدلة أو قلتها، ومقتضيات البيئة والمصلحة واختلاف الأعراف، وبعيد أن تثبت لمجتهد حجة عن رسول الله ﷺ، وليس لها صارف صحيح؛ ثم يرى

خلافها، إلاّ أن يكون جاهلَها. وقد تحدثنا في المقدمة بإيجاز عن بعض مراحل الاجتهاد إلى زمن الأئمة الأربعة، الذين أدركوا العصر العباسي الأول، فلا نعيده هنا.

والخلاصة: كما كان لكل الشؤون الفكرية والعلمية والحضارية نموها وتطورها ولمعانها، كذلك كان الحال بالنسبة للشؤون الفقهية الاجتهادية، وإذا علمنا أن الاشتراع الفقهي هو القانون المنظم لحياة الناس، وعلاقة بعضهم مع بعض؛ أدركنا عظم الحاجة إليه، وأدركنا عظم مسؤولية القائمين عليه، وبحق كانوا جميعهم أهلاً لأعلى درجات التقدير، وأجدر الناس بالرفعة في الدنيا والمثوبة عنه الله.

وما ينبغي أن نغفل ـ في التحدث عن الدين في هذا العصر ـ الزهاد، وهم فئة انصرفوا عن الدنيا وزخارفها، وشغلوا أنفسهم بطاعة الله ومراقبته، وتقللوا ما أمكنهم ذلك من متاع الحياة الدنيا، وتحروّا حلالها، وشغلتهم أهوال القيامة ورهبة الآخرة، وكأن وجودهم ردّة فعل لخوض الكثير من الناس في غمرات الدنيا، ولكنهم كانوا منارة هدى في الدين والورع وخشية الله. من هؤلاء: الفضل بن عياض، ومعروف الكَرْخي، وبشر الحافي، والحارث المحاسبي، وغيرهم، وهم سلف لمن سُموا بالصوفية، ونهجهم سلكوا، ولكنهم حولوا أعمالهم إلى فلسفة روحية ومصطلحات ألفت فيها الكتب الكثيرة، والغالب أن تسميتم بالصوفية ابتدأت في

هذا العصر، ولكنها لم تشهر ويعرف بها فئة الزهاد إلا بعد هذا العصر بزمن يسير.

هذا عرض سريع للحالة الدينية الإسلامية في عصر الشافعي، وما يتسع مجالنا أن نبحث في الشؤون الدينية غير الإسلامية، كالنصرانية واليهودية والزرادشتية، مع أنها تداخلت في كثير من نزعاتنا الدينية، وأثرت حيناً بصورة إيجابية مباشرة، وأحياناً بشكل سلبي غير مباشر.

* * *

نَسَبُ الشّافِعي وَمَوْلدُهُ

- اسم الشافعي ونسبه.
- أبوه وأجـداده.
- زعم ورده.
- الثناء على قريش.
- أم الشافعي.
- مولده وموطنه الأول.

نَسَبُ الشّافِعي وَمَوْلِدُه

اسم الشافعي ونسبه

هـو أبو عبـد الله، محمد بن إدريس، بن العبـاس، بن عثمان، بن شافع، بن السائب، بن عبيد بن عبد يزيد، بن هاشم، بن المطلب، بن عبد مناف، جد جد النبي[١].

وبعبد مناف التقى الشافعي بالنسب مع ابن عمه النبي العربي محمد بن عبد الله ﷺ.

أبوه وأجداده

ما نعلم عن والد الشافعي شيئاً؛ إلاّ أنه كان رجلاً من تَبالة[٢]، وكان بالمدينة، فظهر فيها بعض ما يكـره، فخرج

(١) جمهرة أنساب العرب لابن حزم (٧٣).

(٢) تبالة: بلدة مشهورة من أرض تهامة في طريق اليمن، وفيها قيل: «أهون من تبالة على الحجاج» وذلك أنها كانت أول عمل وليه الحجاج بن يوسف، فلما سار إليها قال للدليل: أين تبالة؟ فقال: ما يسترها عنك إلاّ هذه الأكمة، فقال: لا أراني أميراً على موضع تستره عني هذه الأكمة، وكر راجعاً، فقيل هذا المثل.

إلى عسقلان[١]، فأقام بها، ثم مات فيها[٢]، وأنه كان قليل ذات اليد.

أما جده «العباس بن عثمان» فما نعلم عنه إلّا أنه ممن روى الحديث ورُوي عنه، فقد ذكره الخزرجي[٣] في خلاصته، وذكر أنه روى عن عمر بن محمد[٤] بن علي بن أبي طالب.

وأما أبو جده «عثمان بن شافع» فعاش إلى خلافة أبي العباس السفَّاح، وله ذكر في قصة بني المطلب، لما أراد السفَّاح إخراجهم من الخمس[٥]، وإفراده لبني هاشم، فقام

---

(١) «عسقلان»: مدينة من أعمال فلسطين، على ساحل البحر، بين غزة وبيت جبرين.

(٢) توالي التأسيس (٤٩ و ٥٠).

(٣) الخزرجي: هو أحمد بن عبد الله الخزرجي الأنصاري، عرف بكتابه: خلاصة تذهيب الكمال، توفي سنة ٩٢٣.

(٤) هو محمد بن الحنفية.

(٥) أصل ذلك قوله تعالى في سورة الأنفال الآية «٤١»: ﴿واعلموا أنما غنمتم من شيء فأن لله خمسه وللرسول، ولذي القربى، واليتامى، والمساكين، وابن السبيل، إن كنتم آمنتم بالله﴾. الآية، فالغنيمة: كل ما أخذ من العدو حرباً، وهي تقسم خمسة أقسام، فالأربعة للمشتركين في القتال، والخمس الباقي يقسم على خمسة أيضاً، فسهم واحد لله ورسوله ويصرف في مصالح المؤمنين، وأربعة الأخماس على أربعة الأصناف المذكورة في الآية. وسيأتي أن المراد من ذوي القربى بنو هاشم وبنو المطلب.

عثمان في ذلك حتى رده إلى ما كان عليه في زمن النبي ﷺ[1].

وأما جد جدّه «شافع بن السائب» الذي إليه ينسب، فهو صحابي صغير، اتفق النَقَله: على أنه لقي النبي ﷺ وهو مترعرع[2]، وله ذكر في حديث أخرجه الحاكم ـ في مناقبه ـ عن أنس، قال: كان النبي ﷺ ذات يوم في فسطاط، إذ جاءه السائب بن عبيد، ومعه ابنه ـ يعني شافع بن السائب ـ فنظر النبي ﷺ إليه، فقال: «من سعادة المرء أن يشبه أباه[3]» ولشافع أخ اسمه عبد الله، كان والي مكة كما أخرج الحاكم[4].

وأما «السائب بن عبيد» والد شافع، فقد كان مشركاً، وكان صاحب راية بني هاشم يوم بدر، فأسر، وفدى نفسه، ثم أسلم، فقيل له: لمَ لم تسلم قبل أن تفدي نفسك؟ فقال: ما كنت أحرم المؤمنين مطمعاً لهم فيَّ[5]، وقال النبي ﷺ في

---

(١) توالي التأسيس (٤٥).

(٢) انظر الإصابة (٢ : ١٣٤) ووفيات الأعيان (١ : ٥٦٥) وتاريخ بغداد: محمد بن إدريس.

(٣) الإصابة (٢ : ١١).

(٤) توالي التأسيس (٤٥).

(٥) الوافي بالوفيات (٢ : ١٧١) ووفيات الأعيان (١ : ٥٦٥).

حقه ـ حيث أتي به وبعمه العباس أسيرين ـ : «هذا أخي وأنا أخوه[1]» .

ويقال: إن السائب هذا كان يشبه النبي ﷺ في صورته[2]، واشتكى مرّة، فقال عمر: اذهبوا بنا نعود السائب بن عبيد، فإنه من مُصاصة قريش[3] .

وأما «عبيد بن عبد يزيد» فقد ذكره صاحب الإصابة في الصحابة، وقال: قال الزبير بن بكار: أمه الشفاء بنت الأرقم بن نضلة[4].

وأما والده «عبد يزيد بن هاشم بن المطلب» فقد وقع ذكره فيما أخرجه عبد الرزاق وأبو داود من طريقه عن ابن جريج، أخبرني بعض بني أبي رافع مولى النبيّ ﷺ، عن عكرمة، عن ابن عباس، قال: طلّق عبد يزيد أبو ركانة[5]، ونكح امرأة من مزينة، فجاءت النبي ﷺ، فقالت: ما يغني عني إلاّ كما تغني هذه الشعرة ـ لشعرة أخذتها من رأسها ـ ففرِّقْ بيني وبينه، فدعا بركانة وإخوته، فذكر القصة، وفيها: فقال النبي ﷺ لعبد يزيد: «طلقْها» أي المزينة ففعل، ثم قال: «راجع

(١) توالي التأسيس (٤٥) والإصابة (٢: ١١).
(٢) جمهرة أنساب العرب (٧٣).
(٣) الإصابة (٢: ١١) والمصاص: خالص كل شيء.
(٤) الإصابة (٢: ٤٣٨).
(٥) أولاد أبي ركانة: ركانة، وعجير، وعمير، وعبيد .

امرأتك أم ركانة» قال: إني طلقتها ثلاثاً يا رسول الله، قال: «قد علمت، راجعْها[١]».

فأنت ترى أن في نسب الشافعي أربعةَ جدود في نسق من الصحابة: عبد يزيد، وولده عبيد، وولده السائب بن عبيد، وولده شافع بن السائب[٢]، وقد مرّ التنويه بكل واحد منهم.

وأما «هاشم بن المطلب» فهو ابن أخي هاشم بن عبد مناف والد عبد المطلب جد النبي ﷺ، ولشدة علاقة المطلب بأخيه هاشم ومحبته له سمًى ابنه باسمه.

وأمّا «المطلب بن عبد مناف» فهو عم عبد المطلب جد النبي ﷺ وهو الذي رباه، فأضيف إليه بعد ما هلك أبوه. وذلك أن هاشم[٣] بن عبد مناف كان قد تزوج في المدينة من الخزرج، فولد له «شيبة الحمد»[٤] فكان مع أمه، وخرج هاشم إلى الشام تاجراً فمات بغزة[٥]، فقدم المطلب بعد

(١) قال أبو داود: وحديث نافع بن عجير، وعبد الله بن علي بن يزيد ابن ركانة، عن أبيه، عن جده: أن (أبا) ركانة طلق امرأته البتة، فجعلها النبي ﷺ واحدة ـ أصح، لأنهم ولد الرجل، وأهله أعلم به. يقول ابن حجر: لكن إن كان خبر ابن جريج محفوظاً فلا مانع أن تتعدد القصة، ولاسيما مع اختلاف السياقين.

(٢) الإصابة (٢: ٤٢٤).

(٣) وهو أخو المطلب.

(٤) وهو عبد المطلب.

(٥) ولهذا قيل لها: غزة هاشم.

ذلك المدينة، فوجد «شيبة الحمد» قد ترعرع، فحمله معه إلى مكة، ودخل مردفه، فقال بعض الناس: هذا عبد المطلب، فغلبت عليه، ويقال: إنما قيل له عبد المطلب لأن المطلب رباه، وكانوا في الجاهلية كل من ربى يتيماً دُعي عبده[1].

واستمر عبد المطلب مع عمه إلى أن مات المطلب[2]، وكان المطلب وهاشم ابنا عبد مناف شقيقين متصادقين، واستمرت الصداقة بين أولادهما، بل لم يتفارقوا في جاهلية ولا إسلام.

قال ابن إسحاق[3]: كان بنو المطلب مسلمُهم وكافرُهم مع النبي ﷺ، ومع بني هاشم، بخلاف سائر بطون قريش، ولهذا لما قسم النبي ﷺ خُمس ذوي القربى بين بني هاشم وبني المطلب، جاءه عثمان بن عفان بن أبي العاص بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف[4]، وجبير بن مطعم بن

---

(١) (٢) توالي التأسيس (٤٤).

(٣) ابن إسحاق: هو محمد بن إسحاق بن يسار المطلبي بالولاء. من أقدم مؤرخي العرب له السيرة النبوية التي لخصها ابن هشام، وهو من أهل المدينة، ثم سكن بغداد ومات فيها سنة ١٥١ هـ.

(٤) و ثالث الخلفاء الراشدين، ذو النورين، أحد العشرة المبشرين، من السابقين الأولين الذين آزروا الإسلام في مطلع عهده، أسلم بعد البعثة بقليل، من أعظم أعماله في الإسلام تجهيزه نصف جيش العسرة بماله، وصارت إليه الخلافة سنة ٢٣ هـ، ولبث فيها اثنتي =

عدي بن نوفل بن عبد مناف[1]، فقالا: يا رسول الله، أعطيت إخواننا من بني المطلب ومنعتنا، وقرابتنا واحدة! ـ يشير إلى أن هاشماً والمطلب وعبد شمس ونوفلاً إخوة ـ فأما بنو هاشم فلا ننكر فضلهم لمكانك! فقال: «إنما بنو هاشم وبنو المطلب شيء واحد» وفي لفظ «لم يفارقونا في جاهلية ولا إسلام» يشير إلى دخولهم مع بني هاشم الشعب لما حصرتهم قريش ليسلموا النبي ﷺ. وهذا الحديث مخرج في الصحيحين[2].

زعم ورده:

ما سردناه من نسب الشافعي، وأنه عربي صليبة، بل من مصاصة قريش، هو ما اتفق عليه الرواة والمؤرخون وعلماء الأنساب والمحدِّثون.

وهناك فئة متعصبة من المالكية والحنفية، زعمت أن الشافعي لم يكن قرشياً بالنسب، بل كان قرشياً بالولاء، لأن

= عشرة سنة. ونقم عليه بعض الناس اختصاصه أقاربه بالولايات والأعمال، فجاءته الوفود فحصروه في داره أربعين يوماً، وتسور عليه بعضهم الجدار فقتلوه صبيحة عيد الأضحى سنة ٣٥ هـ رحمه الله ورضي عنه.

(١) جبير بن مطعم: صحابي كان من علماء قريش وسادتهم، وفي الإصابة: كان أنسب قرشي لقُريشٍ والعرب قاطبة. توفي بالمدينة سنة ٥٩ هـ.

(٢) توالي التأسيس (٤٥).

شافعاً جدُّه كان مولى لأبي لهب[1]، ولم يُلحقه عمر[2] بموالي قريش، ثم ألحقه عثمان من بعد عمر بهم. وهذا الزعم باطل، وقد ردّ الفخر الرازي[3] قول المتعصبين من المالكية والحنفية من ثلاثة وجوه:.

أولها: أن المخالفين له من المالكية والحنفية وغيرهم في عصره كانوا يجادلونه، ومنهم من كان يحسده وينال منه، فلو كان غير قرشي لطعنوا في نسبه، ولو طعنوا لاشتهر ذلك عنهم. ولم ينقل عن مجادليه شيء من ذلك.

---

(١) أبو لهب: هو عبد العزى، عم رسول الله ﷺ، من أشد الناس عداوة للمسلمين، كان غنياً وهو أحد الأشراف الشجعان في الجاهلية، كان أحمر الوجه، فلقب في الجاهلية بأبي لهب، مات بعد وقعة بدر بأيام ولم يشهدها سنة ٢ هـ.

(٢) هو عمر بن الخطاب القرشي العدوي، ثاني الخلفاء الراشدين، الصحابي الجليل، صاحب الفتوحات، يضرب بعدله المثل، ولم يزل الإسلام في اختفاء حتى أسلم عمر، وبويع بالخلافة سنة ١٣ هـ يوم وفاة أبي بكر بعهد منه، وفتحت في عهده الشام والعراق والقدس والمدائن ومصر والجزيرة، حتى قيل: انتصب في مدته اثنا عشر ألف منبر في الإسلام، قتله أبو لؤلؤة غيلة سنة ٢٣ هـ.

(٣) الفخر الرازي: هو محمد بن عمر بن الحسن التيمي البكري، الإمام المفسر، أوحد زمانه في المعقول والمنقول وعلوم الأوائل، وهو قرشي النسب، مولده في الري، وكان يحسن الفارسية، وكان واعظاً بارعاً باللغتين، له مؤلفات كثيرة شهيرة، توفي سنة ٦٠٦ هـ.

ثانيها: أن الشافعي ادّعى ذلك النسب في حضرة الرشيد[1] عند اتهامه مع العلوية الذين خرجوا على الرشيد، فلو كان من الموالي ما ادّعى أنه ابن عم الخليفة، وقد جيء به مكبّلاً خائفاً يترقب، ولو لم يكن النسب مما يظهر كالشمس ما ادعاه عاقل كالشافعي في مثل هذا المقام.

ثالثها: أن أكابر العلماء شهدوا له بهذا النسب. قال محمد بن إسماعيل البخاري[2] في التاريخ الكبير عند ذكر الشافعي: محمد بن إدريس الشافعي القرشي. وقال مسلم بن الحجاج[3]: وعبد الله بن السائب والي مكة، وهو أخو الشافع بن السائب جد محمد بن إدريس.

---

(١) الرشيد: هو هارون بن محمد المهدي: خامس خلفاء الدولة العباسية وأشهرهم، كان عالماً بالأدب، وأخبار العرب والحديث والفقه، توفي سنة ١٩٣ هـ.

(٢) البخاري: هو أبو عبد الله محمد بن إسماعيل بن إبراهيم، حبر الأمة ولد في بخارى، ونشأ يتيماً، وقام برحلة طويلة سنة ٢١٠ هـ، وسمع من نحو ألف شيخ، صاحب «الجامع الصحيح» المعروف بصحيح البخاري، وهو أول من وضع كتاباً على هذا النحو، توفي سنة ٢٥٦ هـ.

(٣) مسلم: هو أبو الحسين مسلم بن الحجاج بن مسلم القشيري النيسابوري، من أئمة المحدثين ولد بنيسابور، أشهر كتبه «صحيح مسلم» وهو أحد الصحيحين المعول عليهما، توفي سنة ٢٦١ هـ.

الثناء على قريش:

من أشهر قبائل مضر: كنانة، ومن كنانة: قريش، وقريش من ولد النَّضر بن كنانة، فكل من كان من ولد النضر فهو قرشي، وقد تكون إنما سميت قريشاً لاشتغالها بالتجارة من قولهم: «فلان يتقرّش المال: أي يجمعه» كما جاء في لسان العرب.

ولمكانة قريش بين العرب، ولسيادتها على عرب الحجاز خاصة، ولأنهم أهل حرم الله وولاة بيته، لم يكن يتعرض لهم أحد بسوء في رحلاتهم للتجارة، والناس غيرهم يُتَخطفون ويغار عليهم. قال الله تعالى: ﴿وقالوا: إن نتبع الهدى معك نتخطف من أرضنا، أو لم نُمكِّن لهم حَرَماً آمناً يُجبَى إليه ثمراتُ كل شيء، رزقاً من لدنا، ولكن أكثرهم لا يعلمون﴾[١] وذكر الله ما امتن عليهم به من رزق وأمن في سورة كريمة هي سورة قريش. وهي قوله تعالى: ﴿لإيلاف قريش إيلافهم رحلة الشتاء والصيف. فليعبدوا ربَّ هذا البيت. الذي أطعمهم من جوع، وآمنهم من خوف﴾[٢].

ولقد عُرف القرشيون بين العرب بالعقل والحكمة والحلم، وأخذهم أنفسهم بالشدة على أفضل أخلاق العرب، وهذا ما جعلهم سادة والناس لهم تبعاً، أخرج البخاري في مناقب

---

(١) الآية ٥٧ من سورة القصص.

(٢) سورة قريش.

قريش عن أبي هريرة(١)، قال: قال رسول الله ﷺ: «الناس تبع لقريش في هذا الشأن. مسلمهم تبع لمسلمهم، وكافرهم تبع لكافرهم... الحديث». وأخرج مسلم في المغازي من صحيحه عن جابر بن عبد الله(٢) رضي الله عنهما، قال: قال رسول الله ﷺ: «الناس تبع لقريش في الخير والشر». وفي مسند أحمد(٣) من حديث جبير بن مطعم أن رسول الله ﷺ قال: «إن للقرشي قوة الرجلين من غير قريش» قيل للزهري: ما عنى بذلك؟ قال: نبل الرأي.

ولهذا قَصَر النبي ﷺ الإمامة على قريش فقال: «الأئمة من قريش»(٤) فالعرب لا تدين إلا لهذا الحي من قريش.

---

(١) أبو هريرة: هو عبد الرحمن بن صخر الدوسي، أكثر الصحابة حفظاً للحديث ورواية له، أسلم سنة ٧ هـ، ولزم النبي ﷺ، استعمله عمر على البحرين، وولي إمرة المدينة مدة، وكان أكثر مقامه فيها وتوفي فيها سنة ٥٩ هـ.

(٢) جابر: هو جابر بن عبد الله بن عمرو الخزرجي الأنصاري السلمي، صحابي من المكثرين في الرواية عن النبي ﷺ، له ولأبيه صحبة غزا تسع عشرة غزوة، وكانت له في أواخر أيامه حلقة في المسجد النبوي، توفي سنة ٧٨ هـ.

(٣) ستأتي ترجمته في صلب الكتاب في تلاميذ الشافعي في العراق.

(٤) نسب النووي في مقدمة كتابه «المجموع» هذا الحديث إلى الصحيحين، ولا يوجد فيهما هذا اللفظ، والذي في الصحيحين: «لا يزال هذا الأمر في قريش» ورواه بهذا اللفظ البخاري في تاريخه، والنسائي والإمام أحمد في مسنده من حديث أنس.

وروي عن رسول الله ﷺ أنه قال: «لا تؤموا قريشاً، وائتموا بها، ولا تَقَدَّموا على قريش وقدِّموها، ولا تعلِّموا قريشاً، وتعلموا منها؛ فإن إمامة الأمين من قريش تعدل إمامة الأمين من غيرهم، وإن علم عالم قريش ليسع طباق الأرض».

وهذا الحديث قاله علي[1] كرّم الله وجهه يوم حروراء لعبد الله بن عباس[2] لما أرسله إلى الخوارج، وقال: قل لهم: علامَ تتهمونني، وأشهد لسمعت رسول الله ﷺ يقول ذلك[3].

---

(١) هو علي بن أبي طالب الهاشمي، ابن عم رسول الله ﷺ وصهره، ورابع الخلفاء الراشدين، وأحد العشرة المبشرين، وأحد الشجعان الأبطال، ومن أكابر الخطباء والعلماء، وأول الناس إسلاماً، ربي في حجر النبي ﷺ، ولم يفارقه، وكثرت الفتن في خلافته ـ وقعة الجمل، وصفين، والخوارج ـ إلى أن قتله الخارجي عبد الرحمن بن ملجم سنة ٤٠ هـ.

(٢) عبد الله بن عباس بن عبد المطلب القرشي الهاشمي، حبر الأمة، الصحابي الجليل، لازم رسول الله وروى عنه، وشهد مع علي الجمل وصفين، وكف بصره في آخر عمره، وسكن الطائف وتوفي بها سنة ٦٨ هـ.

(٣) الطبقات الكبرى للسبكي (١: ١٩٨) هذا ويقول الإمام الجليل أبو نعيم عبد الملك بن محمد الفقيه، في قول النبي ﷺ: «عالم قريش يملأ الأرض علماً»: علامة بينة أن المراد بذلك رجل من علماء هذه الأمة من قريش، قد ظهر وانتشر في البلاد، وكتب كتبه، =

أم الشافعي:

أكثر من أرّخ للشافعي أو ترجم له اتفقوا على أن أمّه أزدية، وهو المعزوُّ إلى الشافعي نفسه، وقيل: أمه أسدية، والأزد والأسد شيء واحد.

واحتجوا: بأنه لما قدم مصر سأله بعضهم أن ينزل عنده، فأبى وقال: أريد أن أنزل على أخوالي الأسديين، فنزل عندهم. وهناك من يدَّعي أن أم الشافعي من ذرية علي بن أبي طالب رضي الله عنه، ويورد من نسبه من جهة أمه أنه: محمد بن فاطمة بنت عبد الله بن الحسن بن الحسين بن علي بن أبي طالب. وهذا ما ذكره الحاكم[1] عن يونس بن

= ودرسها المشايخ والشبان الأحداث في مجالسهم، وصيروها إماماً لهم، واستظهروا أقاويله، وأجروها في مجالس الأمراء والحكام، وحكموا بها في الدماء والفروج.

قال: وهذه صفة لا نعلمها أحاطت بأحد إلا الشافعي؛ إذ كان كل واحد من قريش من علماء الصحابة والتابعين - وإن ظهر علمه وانتشر - فإنه لم يبلغ مبلغاً يقع تأويل هذه الرواية عليه، إذ ليس للواحد منهم غير نتف وقطع من المسائل، بخلاف الشافعي القرشي، فإنه صنف الكتب، وشرح الأصول والفروع، ووعت القلوب كلامه، وازداد على مرور الأيام حسناً وبياناً، وبلغ الحد الذي حاز للمتأول أن يتناول في هذه الرواية أنه هو المراد منها.

(١) الحاكم: هو محمد بن عبد الله بن حمدويه الضبي النيسابوري الشهير بالحاكم، من أكابر حفاظ الحديث، مولده ووفاته في نيسابور، جال =

عبد الأعلى[1] قال: إن أمّ الشافعي فاطمة. وساق نسبها كما تقدم[2]. .

وكان يونس يقول: لا أعلم هاشمياً ولدته هاشمية إلاّ علي بن أبي طالب والشافعي رضي الله عنهما[3]. وتشبث التاج بن السبكي[4] بهذا الرأي، وأقام عليه الحجج وردَّ على من ضعفه.

والذي هو أدنى إلى الصواب أن أمّه أزدية ـ لا هاشمية ـ وهو ما حققه النووي[5] مع من حققه أو قال به.

= في بلاد خراسان وما وراء النهر. وأخذ عن نحو ألفي شيخ، صنف كتباً كثيرة جداً، شهر منها كتابه «المستدرك على الصحيحين» توفي سنة ٤٠٥ هـ.

(١) يونس بن عبد الأعلى الصدفي من كبار الفقهاء، انتهت إليه رياسة العلم بمصر، كان عالماً بالأخبار والحديث، وافر العقل، صحب الشافعي وأخذ عنه، توفي بمصر سنة ٢٦٤ هـ.

(٢) الطبقات الكبرى للسبكي (١: ١٩٣).

(٣) الطبقات الكبرى (١: ١٩٣).

(٤) التاج السبكي: هو عبد الوهاب بن علي بن عبد الكافي السبكي، قاضي القضاة، الفقيه المؤرخ الباحث، ولد في القاهرة، وانتقل إلى دمشق مع والده، فسكنها وتوفي بها، نسبته إلى سبك (من أعمال المنوفية بمصر) من مؤلفاته (طبقات الشافعية الكبرى) توفي سنة ٧٧١ هـ.

(٥) المجموع (١: ١٤) والنووي: هو يحيى بن شرف بن مري الحزامي =

وضعف البيهقي القول بأن أمّه من ولد علي بن أبي طالب، وجعل الحمل فيه على أحمد بن الحسين بن أبي مروان، من جهة مخالفة سائر الروايات له، وأحمد بن الحسين هذا ـ مع ذلك ـ ضعيف كما أقرّ ذلك السبكي نفسه، وهناك أحاديث ـ وخصوصاً في الترمذي ـ في فضل الأزد، بعضها صحيح وبعضها دون ذلك.

وكانت أمّه رحمها الله ـ باتفاق النقلة ـ من العابدات القانتات، ومن أزكى الخلق فطرة[1]. ومن طريف ما يحكى عنها من الحذق والذكاء: أنها شهدت عند قاضي مكة هي وأخرى[2] مع رجل، فأراد أن يفرِّق بين المرأتين، فقالت له أم الشافعي: ليس لك ذلك لأن الله سبحانه وتعالى يقول: ﴿ أنْ تضِلَّ إحداهُما فتذكِّرَ إحداهما الأخرى ﴾[3] فرجع القاضي لها في ذلك[4].

يقول ابن حجر: وهذا فرع غريب، واستنباط قوي[5].

= الحوراني. علامة بالفقه والحديث، مولده ووفاته في نوى، وإليها نسبته، له كثير من المؤلفات، توفي سنة ٦٧٦ هـ.

(١) الطبقات الكبرى (٢: ١٧٩).

(٢) هي أم بشر المريسي كما في الطبقات (٢: ١٧٩).

(٣) من الآية «٢٨٢» من سورة البقرة.

(٤)و (٥)توالي التأسيس (٤٦).

مولده:

في نهار الجمعة آخر يوم من شهر رجب، من سنة مائة وخمسين ولد الإمام الشافعي[1]، وهي السنة التي توفي فيها الإمام أبو حنيفة[2]؛ لم يختلف في هذا اثنان، إلاّ أن بعضهم بالغ فأولد الشافعي في اليوم الذي توفي فيه أبو حنيفة؛ حرصاً منه على أن يكونا:

نجوم سماءٍ كلما غارَ كوكبٌ
بدا كوكبٌ تأوي إليه كواكبه

واختلف الناس في البلد الذي أشرق بولادته، يقول ابن العماد[3]: «ولد بغزة، أو بعسقلان، أو اليمن، أو منى، أقوال»[4] فإذا استبعدنا من هذه المواضع مِنى لشذوذها، واليمن لضعفها ـ إلا إن أريد باليمن قبائلها في غزة ـ فليس

---

(١) تاج العروس: مادة شفع.

(٢) أبو حنيفة: هو النعمان بن ثابت، التيمي بالولاء، الكوفي، أحد الأئمة الأربعة، إمام الحنفية، الفقيه المجتهد، أراده المنصور على القضاء، فأبى، فحلف عليه ليفعلن، فحلف أبو حنيفة أنه لا يفعل، فحبسه إلى أن مات، وعن الإمام الشافعي: «الناس عيال في الفقه على أبي حنيفة» توفي سنة ١٥٠ هـ.

(٣) ابن العماد: هو عبد الحي بن محمد بن العماد العكري الحنبلي، مؤرخ فقيه بالأدب، ولد في صالحية دمشق، له كتاب «شذرات الذهب» توفي بمكة حاجاً سنة ١٠٨٩ هـ.

(٤) شذرات الذهب (٢ : ٩).

من العسير التوفيق بين قولي: غزة وعسقلان، وهما المنقولان عن الإمام نفسه بطرق صحيحة، وواضح أن غزة وعسقلان إقليم واحد، وهما متقابلان: عسقلان هي المدينة، وغزة هي القرية، فحيث قال الشافعي: غزة، أراد القرية، وحيث قال: عسقلان، أراد المدينة[1]، والأقرب أنه ولد بغزة كما هو قول الأكثرين، ثم حمل إلى عسقلان وهو صغير، كما روى الحاكم بطريقه عن محمد بن عبد الله بن عبد الحكم[2]، يقول: سمعت الشافعي يقول: «ولدت بغزة، وحملتني أمي إلى عسقلان»[3] وقال ابن باطيش: «الذي دلَّ عليه مجمع الروايات: أنه ولد بغزة، ثم حمل منها إلى عسقلان، ثم إلى مكة فنشأ بها»[4] وإن صحت الرواية عن الشافعي أنه قال: «ولدت باليمن»[5]، فمؤوّل على أنه أراد باليمن قبائلها، وهم أهل أمه، لأنها أزدية كما سلف.

(١) توالي التأسيس (٤٩).
(٢) ستأتي ترجمته في صلب الكتاب في تلاميذ الشافعي.
(٣) توالي التأسيس (٤٩).
(٤) (٥) توالي التأسيس (٤٩).

نشأة الشّافعيّ بمكّة

- نشأته .
- منزله .
- المرحلة الأولى من تعلمه .
- المرحلة الثانية من تعلمه .
- حذقه بالرمي .
- فراسته وشجاعته .

نشأة الشّافعيّ بمكّة

نشأته:

ولد الشافعي ـ كما تقدم ـ بغزة، أو بعسقلان، ولكنه نشأ من طفولته بمكة، روى ذلك محمد بن عبد الله بن عبد الحكم عن الشافعي، قال: «وُلدت بغزة سنة خمسين ومائة، وحُملت إلى مكة وأنا ابن سنتين»[١] هذا هو المشهور والأكثر عند الرواة.

أما ما أخرجه ابن أبي حاتم الرازي[٢]، عن الشافعي يقول: «ولدت باليمن، فخافت أمي عليَّ الضَّيعة، وقالت: الحق بأهلك، فتكون مثلهم، فإني أخاف أن تُغلب على نسبك، فجهزتني إلى مكة، فقدمتها وأنا يومئذٍ ابن عشر أو

---

(١) شذرات الذهب (٢: ٩).

(٢) ابن أبي حاتم: هو عبد الرحمن بن محمد بن إدريس الرازي الحافظ، العلم الثقة، صاحب كتاب «آداب الشافعي ومناقبه» توفي بالري وقد قارب التسعين، سنة ٣٢٧ هـ.

شبيهاً بذلك... الخ»[1] فقد قال الحافظ الذهبي[2] فيه: هذا القول غلط؛ إلا أن يريد باليمن القبيلة[3].

ويقول ابن حجر[4]: فالذي يجمع الأقوال: أنه ولد بغزة عسقلان، ولما بلغ سنتين حولته أمه إلى الحجاز، ودخلت به إلى قومها ـ وهم من أهل اليمن لأنها أزدية ـ فنزلت عندهم، فلما بلغ عشراً، خافت على نسبه الشريف أن ينسى ويضيع، فحولته إلى مكة[5].

منزله:

حدَّث الشافعي: أن منزله بمكة قرب شِعْب الخَيْف[6].

---

(١) آداب الشافعي ومناقبه (٢١).

(٢) الذهبي: هو محمد بن أحمد بن عثمان، الحافظ المؤرخ، العلامة المحقق، تركماني الأصل، مولده ووفاته في دمشق، مصنفاته تقارب المائة، توفي سنة ٧٤٨ هـ.

(٣) توالي التأسيس (٤٩) ويقول ابن حجر: وسبقه إلى ذلك البيهقي في المدخل.

(٤) ابن حجر: هو أحمد بن علي بن محمد الكناني العسقلاني، شهاب الدين، ابن حجر، من أئمة العلم والتاريخ، أصله من عسقلان بفلسطين، ومولده ووفاته بالقاهرة، ولع بالأدب والشعر، ثم أقبل على الحديث حتى أصبح حافظ الإسلام في عصره، وله تصانيف كثيرة جليلة، توفي سنة ٨٥٢ هـ.

(٥) توالي التأسيس (٤٩).

(٦) آداب الشافعي ومناقبه (٢٤).

وجاء في الانتقاء[1]: أنه كان يسكن مكة، وينزل منها بالبنية، والظاهر أن البنية محلة بمكة، وإن كان ياقوت[2] في معجم البلدان يقول: البنية من أسماء مكة، وقد يكون هذا هو الأصل، ثم غلب على محلة منها.

المرحلة الأولى من تعلمه:

لم يعِ الشافعي وجوده وبيئته إلا بالوطن القديم لأجداده ـ مكة ـ مهوى أفئدة المسلمين في أنحاء الأرض، ومهبِط الوحي، ومنبِت الإسلام.

وأعظم ما في مكة المسجد الحرام، الذي يكاد يكون عند كل سارية فيه محدث، أو فقيه، أو باحث، أو مناظر، ومن حولهم المتعلمون والمستمعون والسائلون.

وفي وسطه الكعبة المشرفة التي لا يفتر الطواف حولها في ليل أو نهار أبد الدهر.

على هذا كله فتح الشافعي بصره وبصيرته، وبدأ يتفاعل مع هذه البيئة، ليأخذ مكانه الطبيعي بين العلماء وأشراف

---

(١) الانتقاء (ص ٦٨).

(٢) ياقوت: هو ياقوت بن عبد الله الرومي الحموي، مؤرخ ثقة، من أئمة الجغرافيين ومن العلماء باللغة والأدب، أصله من الروم، أسر من بلاده صغيراً، وابتاعه ببغداد تاجر اسمه عسكر بن إبراهيم الحموي، فرباه وعلمه، وشغله بالأسفار في متاجره، ثم أعتقه سنة ٥٩٦ هـ، توفي في حلب سنة ٦٢٦ هـ.

الناس، وماله لا يفعل؟ وهو القرشي الأصل، الشريف النسب، ابن عم رسول الله ﷺ، وهل لمثله غير طريق العلم؟.

أرادت أمّه العاقلة أن تأخذ به إلى معلم، يعلمه القراءة والكتابة على عادة الناس في البداءة بالتعلم، ولكن لم يكن مع أمّه ما تؤديه للمعلم أجراً عن تعليم ابنها. يقول الشافعي في ذلك: «كنت يتيماً في حجر أمي، ولم يكن معها ما تعطي المعلم، وكان المعلم قد رضي مني أن أخلفه إذا قام... الخ»[1].

وهكذا رضي المعلم أن تكون أجرته رمزية، ويظهر أنه رأى من نجابة الشافعي وسرعة حفظه ما دعاه إلى المسامحة بأجره، بل ربما رأى أنه لا يبذل في سبيل تعليمه جهداً يستحق الأجر عليه، يقول الشافعي: «كنت أنا في الكتاب أسمع المعلم يلقن الصبي الآية فأحفظها أنا، ولقد كنت ـ ويكتبون أئمتهم ـ[2] فإلى أن يفرغ المعلم من الإملاء عليهم قد حفظت جميع ما أملى، فقال لي ذات يوم: لا يحل أن آخذ منك شيئاً»[3].

---

(١) صفة الصفوة (٢: ١٤١).

(٢) الأئمة: جمع إمام: وهو ما يتعلمه الغلام كل يوم في المكتب، تاج العروس.

(٣) معجم الأدباء (١٧: ٢٨٤).

واستمر على ذلك؛ حتى جمع القرآن وهو ابن سبع سنين[١]. وهذه هي المرحلة الأولى في تعلمه: مرحلة انتقاله من الأمية، وحفظه القرآن.

المرحلة الثانية من تعلمه:

ودخل المسجد بعد ذلك، يختلف إلى العلماء ويسمع منهم، بشغف شديد، وذهن حاد، وهو ما يزال في ضيق من العيش، وقلة ذات اليد، حتى إنه لم يجد ثمن ورق يدوِّن عليه بعض ما يسمع من العلم، فعمَد إلى التقاط العظام، وأكتاف الجمال وغير ذلك، وقد تحدَّث ـ رحمه الله ـ عن هذه الفترة من حياته، فقال: «ثم لما خرجت من الكتاب كنت أتلقَّط الخزف والدفوف[٢] وكرب النخل[٣] وأكتاف الجمال[٤]، أكتب فيها الحديث، وأجيء إلى الدواوين، فأستوهب منها الظهور فأكتب فيها، حتى كانت لأمي حِباب[٥]، فملأتها أكتافاً وخزفاً وكرباً مملوءة حديثاً»[٦]. وقال: «طلبت هذا الأمر عن خفة ذات يد، كنت أجالس

(١) شذرات الذهب (٢ : ٩).
(٢) الدفوف: الجلود التي يعمل منها الطبل.
(٣) كرب النخل: أصول السعف الغلاظ العراض، الواحدة كربة.
(٤) أكتاف الجمال: جمع كتف: عظم عريض خلف المنكب.
(٥) الحباب: جمع حب وهي الجرة، أو الضخمة منها.
(٦) معجم الأدباء (١٧ : ٢٨٤).

الناس وأتحفظ، ثم اشتهيت أن أدوِّن، وكان لنا منزل بقرب شعب الخَيْف، وكنت آخذ العظام والأكتاف، فأكتب فيها؛ حتى امتلأ في دارنا ـ من ذلك ـ حُبّان»[1].

ولشدة فاقته نصح له نسيبٌ له أن يتكسب ويدع العلم لا يعجل إليه، يقول الشافعي: «قدمت مكة وأنا ابن عشر أو شبهها، فصرت إلى نسيب لي، قال: فرآني أطلب العلم، فقال لي: لا تعجل بهذا، واقبل على ما ينفعك ـ يعني التكسب ـ قال: فجعلت لذتي في العلم وطلبه، حتى رزق الله ما رزق»[2].

هذه هي المرحلة الثانية من تعلمه في مكة، طفق فيها يسمع العلم ـ في المسجد الحرام ـ من أفواه العلماء، ويتحفظه، ويكتب منه ما يملأ جراراً من العظام وكرب النخل، وظهور أوراق الدواوين قبل أن يبلغ الحلم، وفي هذه المرحلة حفظ الموطأ للإمام مالك قبل أن يذهب إليه، فقد روى المزني[3] عن الشافعي قوله: «حفظت القرآن وأنا ابن سبع، وحفظت الموطأ وأنا ابن عشر»[4].

وفي هذه الفترة المبكرة استهواه أن يلقف العربية،

---

(١) آداب الشافعي ومناقبه (٢٥).

(٢) توالي التأسيس (٥٠).

(٣) ستأتي ترجمته في صلب الكتاب.

(٤) توالي التأسيس (٥٠).

ويسمعها من أفواه الأعراب؛ ففي العربية وبيانها زينة الفتى ونمو عقله، ورهافة حسه، وقدرته على الحوار، وأعظم من ذلك كله اكتساب الملكة التي يستطيع بها أن يفقه كلام الله تعالى وكلام رسوله. قال الشافعي: «خرجت أطلب النحو والأدب، فلقيني مسلم بن خالد الزنجي[1]، فقال: يا فتى من أين أنت؟ قلت: من أهل مكة، قال: أين منزلك؟ قلت: بشعب الخيف، قال: من أي قبيلة أنت؟ قلت: من عبد مناف، قال: بخٍ بخٍ!! لقد شرّفك الله في الدنيا والآخرة، ألا جعلت فهمك في هذا الفقه فكان أحسن بك»[2].

وهناك روايات كثيرة تذكر سبب انصرافه عن الشعر والأدب إلى الفقه، منها ما رواه الحسين الكرابيسي[3]، قال: سمعت الشافعي يقول: «كنت امرءاً أكتب الشعر، وآتي البوادي فأسمع منهم، وقدمت مكة، وخرجت وأنا أتمثل بشعر للبيد، وأضرب وحشي[4] قدمي بالسوط، فضربني رجل من ورائي

---

(١) مسلم بن خالد الزنجي: شيخ الحرم المكي أبو خالد المخزومي مولاهم، كان فقيهاً، عابداً، قال يحيى بن معين: ليس به بأس، وقال إبراهيم الحربي: كان فقيه مكة، مات سنة ١٨٠ هـ.

(٢) المجموع (١: ١٥).

(٣) ستأتي ترجمته في صلب الكتاب.

(٤) الوحشي والإنسي، شقا كل شيء؛ فالوحشي: الجانب الأيمن، والإنسي: الجانب الأيسر، وقيل بالعكس، وأراد الشافعي: أنه كان منتشياً بإنشاده الشعر.

من الحجبة فقال: رجل من قريش، ثم ابن المطلب، رضي من دينه ودنياه أن يكون معلماً!! ما الشعر؟ الشعر إذا استحكمت فيه قعدت معلماً، تفقه يُعْلِك الله. قال: فنفعني الله بكلام ذلك الحجبي[1]، ورجعت إلى مكة، وكتبت عن ابن عيينة ما شاء الله أن أكتب، ثم كنت أجالس مسلم بن خالد الزنجي»[2].

ومنها ما رواه مصعب بن عبد الله الزبيري[3]: وكان سبب أخذه في العلم أنه كان يوماً يسير على دابة له، وخلفه كاتب لأبي، فتمثل الشافعي ببيت شعر، فقرعه كاتب أبي بسوطه، ثم قال له: مثلك يذهب بمروءته في مثل هذا؟! أين أنت من الفقه؟! فهزه ذلك، فقصد مجالسة الزنجي مسلم بن خالد، وكان مفتي مكة، ثم قدم علينا، فلزم مالك بن أنس[4].

ومنها ما رواه محمد بن إسماعيل الحميري عن أبيه قال: كان الشافعي يطلب اللغة والعربية والشعر، وكان كثيراً ما

---

(١) الحجبي: بفتح الحاء والجيم: هذه النسبة إلى حجابة بيت الله المحرم.

(٢) صفة الصفوة (٢: ١٤٠).

(٣) هو مصعب بن عبد الله، بن مصعب، بن ثابت، بن عبد الله، بن الزبير، علامة بالأنساب، غزير المعرفة بالتاريخ، كان أوجه قريش مروءة وعلماً وشرفاً، وكان ثقة في الحديث شاعراً، ولد بالمدينة وسكن بغداد، وتوفي بها سنة ٢٣٦ هـ.

(٤) المجموع (١: ١٥).

يخرج إلى البدو، فيحمل ما فيه من الأدب، فبينا هو يوماً في حي من أحياء العرب، جاء إليه بدوي فقال له: ما تقول في امرأة تحيض يوماً وتطهر يوماً؟ قال: ما أدري، قال: يا ابن أخي، الفريضة أولى بك من النافلة، فقال له: «إنما أريد هذا لذاك وعليه قد عزمت، وبالله التوفيق» ثم خرج إلى مالك بن أنس[1].

ومهما يختلف سياق هذه الروايات؛ فهي مجمعة على أنه كان يطلب الشعر والأدب، ثم تحول إلى الفقه، وأكثرها على أن أول من لقي من الفقهاء يقرأ عليه هو مسلم بن خالد الزنجي، أما ما تقدم من رواية الكرابيسي من قوله: «ورجعت إلى مكة، وكتبت عن ابن عيينة ما شاء الله» فذلك في الحرم مع من كان يحضر على ابن عيينة لاستماع دروسه العامة.

ولا ندّعي أن إقباله على الفقه صرفه البتة عن الاشتغال بالعربية والآداب، بل نجزم أنه لم ينقطع قط عن الاختلاف إلى قبائل العرب، يسمع فصيح كلامها، ويحفظ أشعارها، وخصوصاً منها هذيلاً التي كانت ـ على حد تعبيره ـ أفصح العرب، حتى بلغ في ذلك ما جعله حجة في العربية، وأستاذاً لمثل الأصمعي، كما سترى ذلك مبسوطاً في بحث علمه بالعربية وآدابها.

---

(١) صفة الصفوة (٢ : ١٤١).

قال الشافعي: «حفظت القرآن وأنا ابن سبع سنين، وقرأت الموطأ وأنا ابن عشر سنين، وأقمت في بطون العرب عشرين سنة، آخذ أشعارها ولغاتها، وحفظت القرآن، فما علمت أنه مرَّ بي حرف إلّا وقد علمت المعنى فيه والمراد، ما خلا حرفين، أحدهما: دساها»[1].

وقال: «ثم إني خرجت عن مكة، فلزمت هذيلاً في البادية، أتعلم كلامها، وآخذ طبعها، وكانت أفصح العرب، قال: فبقيت فيهم سبع عشرة سنة، أرحل برحيلهم، وأنزل بنزولهم، فلما رجعت إلى مكة جعلت أنشد الأشعار، وأذكر الآداب والأخبار وأيام العرب»[2].

فالشافعي رحمه الله إذا اندفع إلى الفقه بكل قواه لم يهمل العربية، وبهذا نستطيع التوفيق بين مختلف الروايات التي يقول بعضها: إنه انصرف إلى الفقه، ويقول بعضها الآخر: إنه انصرف إلى العربية ومشافهة العرب. ومهما يكن من أمر فقد برز فقهياً نابغة، مفسراً بارعاً، خبيراً بالعربية وهو غلام، حتى كان سفيان بن عيينة[1] إذا جاءه شيء من التفسير أو

---

(١) الوافي بالوفيات. ومعنى «دساها» من دسّ نفسه: أخفاها بالفجور والمعاصي. اهـ سجستاني.

(٢) معجم الأدباء (١٧: ٢٨٤).

(٣) سفيان بن عيينة: محدث الحرم المكي، ولد بالكوفة، وسكن مكة، وتوفي بها سنة ١٩٨ هـ. كان حافظاً، ثقة، واسع العلم، كبير القدر. قال الشافعي: لولا مالك وسفيان لذهب علم الحجاز.

الفتيا التفت إلى الشافعي فقال: سلوا هذا الغلام[1].

وشيخ الحرم المكي مسلم بن خالد الزنجي أول أستاذ للشافعي أذن له بالفتيا وهو ابن خمس عشرة سنة، وقال له: «أفتِ يا أبا عبد الله، فقد ـ والله ـ آن لك أن تفتي»[2].

ولما حج بشر المريسي رجع وقال لأصحابه: رأيت شاباً من قريش بمكة، ما أخاف على مذهبنا إلّا منه[3].

هذه هي المرحلة الثانية من تعلمه في مكة: كتب حديث ابن عيينة محدث الحرم المكي، وأخذ الفقه عن مفتي مكة مسلم بن خالد الزنجي، كما روى عن سعيد بن سالم القداح[4]، وداود بن عبد الرحمن العطار[5]، وعبد

---

(١) (٢) وفيات الأعيان (١: ٥٦٦).

(٣) الوافي بالوفيات. وبشر المريسي: هو ابن غياث بن أبي كريمة، العدوي بالولاء، فقيه معتزلي عارف بالفلسفة، وهو رأس الطائفة المريسية القائلة بالإرجاء. أخذ الفقه عن القاضي أبي يوسف وقال برأي الجهمية، وهو من أهل بغداد، توفي سنة ٢١٨ هـ.

(٤) سعيد بن سالم القداح: هو أبو عثمان الخراساني ثم المكي؛ روى عن ابن جريج، وروى عنه الشافعي ويحيى بن آدم. قال ابن معين: ليس به بأس. وقال أبو داود وابن عدي: صدوق.

(٥) داود بن عبد الرحمن العطار: هو أبو سليمان المكي، روى عن القاسم بن أبي بزة وعمرو بن دينار وجماعة، وعنه الشافعي وقتيبة، وعدة، وثقة ابن معين، توفي سنة ١٧٥ هـ.

المجيد بن عبد العزيز بن أبي روّاد الأزدي[1]. فبذلك أخذ الحديث المكي من أشهر شيوخه، وحفظ الفقه المكي، وعرف أصوله وفروعه وأدلته، ولم ينقطع ـ مع ذلك كما قدمنا ـ عن تلقف العربية في الحاضرة والبادية، وأتقن إلى ذلك كله فنون الفتوة والشجاعة والفراسة وهو ما يزال في ميعة العمر. قال بشر المريسي: رأيت بمكة فتىً لئن بقي ليكونن رجل الدنيا[2].

وحج بشر المريسي، فلما قيل له: من لقيت بمكة؟ قال: رأيت رجلاً إن كان منكم فلن تغلبوا، وإن كان عليكم فتأهبوا، وخذوا حذركم، وهو محمد بن إدريس الشافعي[3].

ولعله في هذه الفترة بدأ يقرىء الناس في المسجد الحرام حين رأى أنه كملت أهليته لذلك. قال حرملة: رأيت الشافعي يقرىء الناس في المسجد الحرام، وهو ابن ثلاث عشرة سنة[4].

* * *

---

(١) عبد المجيد بن عبد العزيز: هو أبو عبد الحميد المكي، روى عن ابن جريج فأكثر، وعنه الحميدي والشافعي وخلق، قال أحمد ويحيى: ثقة، يغلو في الإرجاء، توفي سنة ١٨٦ هـ.

(٢) (٣) تهذيب الأسماء واللغات (١ : ٦٣).

(٤) تهذيب الأسماء واللغات: وحرملة: هو ابن يحيى بن عبد الله التجيبي مولاهم المصري، كان إماماً جليلاً رفيع الشأن، روى عن الشافعي وغيره وكان من أصحابه؛ توفي سنة ٢٤٣ هـ.

تحدثنا عمّا تلقفه الشافعي ـ في مكة ـ من حديث وفقه وعربية، فلنتحدث قليلاً عما مارسه من فنون الفتوة: من حذق بالرمي، وفراسة وشجاعة، ثم عن حليته، لنستكمل بذلك جوانب حياته بمكة، قبل أن نتحدث عن رحلته إلى المدينة إلى مالك بن أنس.

حذق الشافعي بالرمي:

لما خرج الشافعي إلى البادية يسمع كلام الأعراب؛ تعلم إلى ذلك فنوناً كثيرة تقتضيها حياة البادية. منها الرمي، فقد تعلمه ومرن عليه، حتى صار من أحذق الرماة يصيب من العشرة عشرة، وقال عمرو بن سوّاد[١]: قال لي الشافعي: «كانت همتي في شيئين: العلم والرمي، فنلت من الرمي، حتى كنت أصيب من عشرة عشرة، وفي رواية من كل عشرة تسعة»[٢]. وقال الربيع: كان ـ أي الشافعي ـ ذا معرفة تامّة بالطب والرمي، حتى كان يصيب عشرة من عشرة[٣].

فراسة الشافعي وشجاعته:

الفَراسة بالفتح: الحذق بركوب الخيل، وأمرها،

(١) عمرو بن سواد بن الأسود أبو محمد المصري، روى عن ابن وهب والشافعي، قال أبو حاتم: صدوق، قال ابن يونس: مات سنة ٢٤٥ هـ.

(٢) توالي التأسيس (٦٧).

(٣) تهذيب الأسماء واللغات (١: ٦٥).

وركضها، والثبات عليها، كالفروسة والفروسية[1]، وهي مما تعلمه الشافعي في البادية ومارسه، فقد كان فارساً لا يبارى. قال الربيع: كان الشافعي أشجع الناس وأفرسهم، وكان يأخذ بأذنه وأذن الفرس، والفرس يعدو.

وهكذا نرى أكثر علماء السلف، يعدّون أنفسهم للجهاد والمرابطة في سبيل الله، امتثالاً لأمر الله في قوله: ﴿وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل، ترهبون به عدو الله وعدوكم﴾[2] وستأتي في حياته بمصر مرابطته بثغر الإسكندرية.

فأنت ترى أن تقوى السلف ليست بإملاء الوعظ على الناس وحضهم على البر والخير، دون أن يكون لهم مما يعظون النصيب الأوفر، وإنما كانت تقواهم أولاً بالإيمان العميق بما يقولون، وبالمبادرة قبل غيرهم إلى كل فضيلة ومكرمة، مع النزاهة والورع والبعد عن الشبهات.

---

(١) تاج العروس؛ مادة «فرس».
(٢) الآية ٦٠ من سورة الأنفال.

حِلْيةُ الشافِعيِّ وَعِيَاله

- حليته.
- حسن صوته.
- لباسه وخاتمه ونقشه.
- عياله.



حِلْيةُ الشافِعيِّ وَعِيالُه

حليته:

يقول ابن الصلاح[1]: كان طويلاً، سائل الخدين[2]، قليل لحمة الوجه، طويل العنق، طويل القصب[3]، أسمر، خفيف العارضين، يخضب لحيته بالحناء حمراء قانية، حسن الصوت والسمت، عظيم العقل، جميل الوجه، مهيباً فصيحاً، من آدب الناس لساناً، وإذا أخرج لسانه بلغ أرنبة أنفه. قال: وكان مسقاماً، ونقل أنه كان وارد الأرنبة[4]، وكان

---

(١) ابن الصلاح: عثمان بن عبد الرحمن الشهرزوري الكردي، أحد المقدمين في التفسير والحديث والفقه وأسماء الرجال، ولاه الملك الأشرف تدريس دار الحديث، وتوفي فيها سنة ٦٤٣ هـ، وللشيخ تقي الدين بن الصلاح جزء لطيف ذكر فيه حلية الشافعي، وهو مطبوع بدمشق.

(٢) سائل الخدين: أي رقيقهما، مستطيلهما.

(٣) القصب: عظم الفخذ والساق والعضد.

(٤) وارد الأرنبة: أي طويلها، والأرنبة مقدمة الأنف.

على أنفه أثر جدري، بادي العنفقة[1]، أبلج[2]، مفلج الأسنان[3].

وقد أخرج البيهقي عن يونس بن عبد الأعلى قال: كان الشافعي معتدل القامة، واضح الجبهة، رقيق البشرة، لونه إلى السمرة، وفي عارضه خفة.

وفي الوافي للصفدي: كان الشافعي رضي الله عنه نحيفاً، خفيف العارضين، يخضب بالحناء.

وقال المزني: ما رأيت أحسن وجهاً من الشافعي، إذا قبض على لحيته لا تفضل عن قبضته[4].

حسن صوته:

عرف الشافعي بجمال جرسه في الكلام، وشجو صوته في القراءة، وربما أبكى الناس، وأثار شجونهم. قال بحر بن نصر[5]: كنا إذا أردنا أن نبكي قال بعضنا لبعض: قوموا إلى هذا الفتى المطلبي يقرأ القرآن، فإذا أتيناه استفتح القرآن، حتى يتساقط الناس، ويكثر عجيجهم بالبكاء من حسن

---

(١) العنفقة: الشعر على ظاهر الشفة السفلى.

(٢) أبلج: أي ليس حاجباه مقرونين.

(٣) مفلج الأسنان: أي بين كل سن وسن فرجة.

(٤) شذرات الذهب (٢: ٩).

(٥) بحر بن نصر: ممن تفقه على الشافعي بمصر، روى عنه كثيرون، وثقه ابن أبي حاتم وغيره، توفي سنة ٢٦٧ هـ.

صوته، فإذا رأى ذلك أمسك عن القراءة[1]. وقال أحمد: كان الشافعي إذا تكلم كأن صوته صنج أو جرس من حسن صوته[2].

لباسه، وخاتمه، ونقشه:

قيل للربيع: كيف كان لباس الشافعي؟ قال كان مقتصداً فيه، يلبس الثياب الرفيعة من الكَتَّان والقطن البغدادي، وكان ربما لبس قلنسوة ليست مشرفة جداً، ويلبس كثيراً العِمامة والخف.

وفي الانتقاء[3]: كان رحمه الله يعتم بعمامة كبيرة كأنه أعرابي. أما خاتمه فقد قال الربيع: ويتختم - أي الشافعي - في يساره. ونقش خاتمه: «كفى بالله ثقة لمحمد بن إدريس»[4].

ورواية ابن أبي حاتم الرازي: «الله ثقة محمد بن إدريس»[5].

عياله[6]:

أريد بعياله: زوجتَه، وأولاده، وعبيده، وإماءه، وخصيانه.

---

(١) الوافي بالوفيات (٢: ١٧٢).

(٢) الوافي بالوفيات (٢: ١٧٣).

(٣) الانتقاء (٩٢).

(٤) تهذيب الأسماء واللغات (١:٦٥).

(٥) آداب الشافعي ومناقبه (٢٧٦).

(٦) عيال الرجل، وعيله: الذين يتكفل بهم اهـ لسان.

لا نعلم متى تزوج، وما أظننا نبعد كثيراً إذا قدّرنا أن زواجه كان قريباً من منصرفه عن مالك إلى مكة، وما عرف له إلّا زوجة واحدة هي حمدة بنت نافع، بن عنبسة، بن عمرو، بن عثمان بن عفان»[1]، وهي أم ولده كما حدّث بذلك أحمد بن محمد ابن بنت الشافعي.

أما أولاده: فمن المتفق عليه أن له ولدين ذكرين، أكبرهما: محمد أبو عثمان، وقيل للشافعي: ما اسم أبي عثمان، فقال: «سميته أحب الأسماء إليّ، محمداً»[2] وسماه ابن حزم، عثمان. سمع أباه، وسفيان بن عينية، وعبد الرزاق، وأحمد بن حنبل[3]، وولي القضاء بالجزيرة وأعمالها، وهناك حدّث،، وللجزريين عنه رواية، وولي القضاء أيضاً بمدينة حلب، وبقي بها سنين كثيرة[4]. وهو الذي قال له أحمد بن حنبل: إني لأحبك لثلاث خلال: أنك ابن أبي عبد الله، وأنك رجل من قريش، وأنك من أهل السنة. وله مع أحمد بن حنبل مناظرة في جلود الميتة إذا دبغت[5].

وهو الذي قال له أبوه يعاتبه ويعظه: «يا بني، والله لو

(١) الانتقاء (٦٨).

(٢) الطبقات الكبرى (٢: ٧٢).

(٣) الطبقات الكبرى (٢: ٧١).

(٤) الطبقات الكبرى (٢: ٧١ - ٧٢).

(٥) الطبقات الكبرى (٢: ٧١ - ٧٢).

علمت أن الماء البارد يثلم من مروءتي ما شربته إلاّ حاراً» ولما توفي والده كان بالغاً، مقيماً بمكة[1].

أعقب أبو عثمان ثلاثة بنين: منهم العباس بن محمد بن محمد بن إدريس، وأبو الحسن، مات رضيعاً، وفاطمة لم تعقب[2]. ويقول ابن حزم عنه: ولم يعقب[3]، وتوفي بالجزيرة كما يقول الخطيب البغدادي، بعد سنة أربعين ومائتين وكما في معجم الأدباء[4].

أما ولد الشافعي الثاني: فاسمه محمد أيضاً، وكنيته أبو الحسن، وهو من جارية اسمها دنانير، ذكر ابن يونس: أنه قدم مصر مع أبيه وهو صغير، فتوفي بها في شعبان سنة إحدى وثلاثين ومائتين[5] ويقول عنه ابن حزم: ولي قضاء قنسرين والعواصم، ولم يعقب[6].

وعرف للشافعي من البنات بنت واحدة اسمها زينب، تزوجت من ابن عم للشافعي اسمه محمد بن عبد الله بن محمد بن العباس بن عثمان بن شافع، وأنجبت ولداً اسمه:

---

(١) الطبقات الكبرى (٢: ٧١ - ٧٢).

(٢) الطبقات الكبرى (٢: ٧٢).

(٣) جمهرة أنساب العرب (٧٣).

(٤) معجم الأدباء (١٧: ٣٢٣).

(٥) الطبقات الكبرى (٢: ٧٣).

(٦) جمهرة أنساب العرب (٧٣).

أحمد بن محمد بن عبد الله، عرف بابن بنت الشافعي. قال النووي: كان إماماً مبرزاً، لم يكن في آل الشافعي بعد الشافعي مثله، سرت إليه بركة جدّه[1].

وللشافعي غلام صقلبي، يقال له: إطراق[2].

كما كان له خصيَّان، فإذا بلغ الغلام منهم مبلغ الحلم لم يدعه يصعد إلى النساء، واشترى آخر مكانه ليصعد إليهن[3]، ومرّ ـ قبل قليل ـ أنه تسرّى بأمة اسمها دنانير، قيل إن ابنه أبا الحسن منها.

* * *

---

(١) الطبقات الكبرى (٢ : ١٨٦).

(٢) آداب الشافعي ومناقبه (٢٧٧).

(٣) آداب الشافعي ومناقبه (٢٧٢) وعلق مصحح الكتاب على ذلك بقوله: يؤخذ من المغني: أنه لا خلاف في أن حكم الخصي مطلقاً حكم ذوي المحارم. فالظاهر أن ما حدث من الشافعي إنما هو من شدة الحذر والحيطة، وكمال الورع والغيرة.

أقول: ومن قرأ ما كتبه الجاحظ في الحيوان عن المفاسد التي تنشأ عن مخالطة الخصي للنساء؛ يوقن أن الشافعي خبير فطن حذر.

رحلتُهُ إلى المدَينةِ

- تطلعُ الشافعي إلى المدينة بعد أن احتوى علم مكة.
- أهل المدينة أعرف الناس بالسنة وعمل الصحابة.
- رحلته كما قصّها هو نفسه وعمره حينذاك.
- طلبه العلم على مالك وغيره من شيوخ المدينة.
- ثقته بعلم أهل المدينة وأثر مالك فيه.
- أربع عجائب رآها الشافعي بالمدينة.
- عودته إلى مكة.

رحلته إلى المدينة

تطلّع الشافعي إلى المدينة بعد أن احتوى علم مكة:

التهم الشافعي معظم ما في مكة من علم، فأخذ عن الـزنجي شيـخ الحـرم ومفتي مكـة، وغيـره، وروى عن سفيان بن عيينة عَلَمَ مكة، وغيره، وعلَّم بالحرم المكي، وأُذن له بالفتوى في سن مبكرة، وشُهد له بالبراعة والقدرة، فهل يقنع من العلم بأن يكون فقيهاً مكي المذهب أم يطمع في أكثر من ذلك؟

يدرك من عرف ظمأ الشافعي إلى العلم أنه لن ينقع غلّته إلّا أن يرحل إلى المدينة، فيأخذ عن الإمام مالك[1] إمام دار الهجرة، ووريث الفقهاء السبعة. يقول النووي: «فلما أخـذ الشافعي رحمه الله في الفقه، وحصَّل منه على مسلم بن

---

(١) مالك بن أنس بن مالك الأصبحي الحميري، أبو عبد الله، إمام دار الهجرة، وأحد الأئمة الأربعة، وإليه تنسب المالكية، مولده ووفاته في المدينة، كان صلباً في دينه، بعيداً عن الأمراء والملوك، أشهر مؤلفاته الموطأ، توفي سنة ١٧٩ هـ.

خالد الزنجي وغيره من أئمة مكة ما حصَّل؛ رحل إلى المدينة، قاصداً الأخذ عن أبي عبد الله مالك بن أنس رضي الله عنه، ورحلته مشهورة فيها مصنَّف مسموع»[1].

أهل المدينة أعرف الناس بالسنة وعمل الصحابة:

والمدينة حينذاك أجل بلد حافظ على الطابع الإسلامي الأصيل، وأكثر الصحابة كانوا بالمدينة، فإن النبي ﷺ بعد رجوعه من حنين ترك فيها نحو اثني عشر ألف صحابيّ، لبث فيها نحو عشرة آلاف، ثم ماتوا فيها، وتفرّق في سائر الأقطار نحو ألفين[2]. فأهل المدينة بذلك أعرف الناس بحديث رسول الله ﷺ، وأخبر بقوله وعمله، ومن هذا كان ربيعة الرأي[3] شيخ مالك يقول: «ألف عن ألف أحب إليَّ من واحد عن واحد، فإن واحداً عن واحد ينتزع السنة من أيديكم»[4] إشارة إلى ما يسمى «عمل أهل المدينة» وكان ربيعة يأخذ به إذا وجدهم على أمر قد اتفقوا عليه، ثم اعتمد ذلك الإمام مالك رحمه الله، وكان علماء المدينة يرون

---

(١) تهذيب الأسماء واللغات (١: ٤٧).

(٢) ترتيب المدارك (١: ٦٦ - ٦٧).

(٣) ربيعة الرأي: هو ربيعة بن فروخ التيمي بالولاء، المدني، أبو عثمان؛ إمام حافظ فقيه مجتهد، كان بصيراً بالرأي - أي بالقياس - وكان صاحب الفتوى بالمدينة، وبه تفقه الإمام مالك، توفي سنة ١٣٦ هـ.

(٤) ترتيب المدارك (١: ٦٦ - ٦٧).

الحديث إذا نأى عن الحجاز صار قابلًا للوضع أو التزيّد، فمالك رحمه الله يقول: «إذا جاوز الحديث الحرّتين ضعفت شجاعته» وكان يسمي الكوفة «دار الضرب» يريد أنها تصنع الأحاديث كما تخرج دار الضرب الدنانير والدراهم. ويقول ابن شهاب الزهري: «يخرج الحديث من عندنا شبراً، فيعود من العراق ذراعاً».

وما كان يوثق بعلم العالم في جميع أقطار الخلافة الإسلامية إلّا أن يؤم المدينة، يختلف إلى علمائها، ويروي عن حفَّاظها. ولهذا كان العلماء والفقهاء والمحدِّثون يشدّون الرحال إليها، يعرضون ما يعلمون، ويصححون، ويزدادون علماً، ومن أبرزهم الإمام الشافعي.

رحلته كما قصّها هو نفسه وعمره حينذاك:

ولرحلته إلى المدينة قصة طريفة معروفة، يتجلّى فيها جلال العلم والعلماء، وقد قصّها الشافعي نفسه ـ فيما روي عنه ـ فقال فيها:

«ثم إني خرجت عن مكة، فلزمت هذيلاً في البادية، أتعلم كلامها، وآخذ طبعها، وكانت أفصح العرب. فقال: فبقيت فيهم سبع عشرة سنة أرحل برحيلهم، وأنزل بنزولهم، فلما رجعت إلى مكة، جعلت أنشد الأشعار، وأذكر الآداب والأخبار وأيام العرب، فمرّ بي رجل من الزبيريين من بني عمي، فقال لي: يا أبا عبد الله عزّ عليّ أن لا يكون مع هذه

اللغة وهذه الفصاحة والذكاء فقه، فتكون قد سُدْتَ أهل زمانك، فقلت فمن بقي نقصد؟ فقال لي: مالك بن أنس - سيد المسلمين يومئذٍ - قال فوقع في قلبي، فعمدت إلى الموطأ، فاستعرته من رجل بمكة، فحفظته في تسع ليالٍ ظاهراً. قال: ثم دخلت إلى والي مكة وأخذت كتابه إلى والي المدينة، وإلى مالك بن أنس، قال فقدمت المدينة، فأبلغت الكتاب إلى الوالي، فلما أن قرأ قال: يا فتى إن مشيي من جوف المدينة إلى جوف مكة حافياً راجلاً أهون عليّ من المشي إلى باب مالك بن أنس، فلست أرى الذل حتى أقف ببابه، فقلت: أصلح الله الأمير، إن رأى الأمير يوجه إليه ليحضر. قال: هيهات! ليت أني إذا ركبت أنا ومن معي وأصابنا من تراب العقيق، نلنا بعض حاجتنا. قال فواعدته العصر، وركبنا جميعاً، فوالله لكان كما قال، لقد أصابنا من تراب العقيق، قال: فتقدم رجل فقرع الباب، فخرجت إلينا جارية سوداء، فقال لها الأمير: قولي لمولاك إني بالباب[1]. قال: فدخلت، فأبطأت، ثم خرجت فقالت: إن مولاي يقرئك السلام ويقول: إن كانت مسألة فارفعها في

---

(١) كان الأمراء - كما ترى - بأبواب العلماء، لا العلماء بأبواب الأمراء. روي أن الرشيد وجه إلى مالك ليأتيه فيحدثه، فقال: العلم يؤتى، فقصد الرشيد منزله، واستند إلى الجدار، فقال مالك: يا أمير المؤمنين، من إجلال رسول الله إجلال العلم، فجلس بين يديه، فحدثه.

رقعة، يخرج إليك الجواب، وإن كان للحديث فقد عرفت يوم المجلس فانصرف، فقال لها: قولي له: إن معي كتاب والي مكة إليه في حاجة مهمة. قال: فدخلت وخرجت وفي يدها كرسي، فوضعته، ثم إذا أنا بمالك قد خرج وعليه المهابة والوقار، وهو شيخ طويل، مسنون اللحية[1]، فجلس وهو متطلس[2]، فرفع إليه الوالي الكتاب، فبلغ إلى قوله: (إن هذا رجل من أمره وحاله... فتحدثه وتفعل وتصنع) رمى الكتاب من يده ثم قال: سبحان الله! أو صار علم رسول الله ﷺ يؤخذ بالرسائل؟! قال: فرأيت الوالي وقد تهيّبه أن يكلمه، فتقدمت إليه، وقلت: أصلحك الله، إني رجل مطلبي، ومن حالي وقصتي... فلما أن سمع كلامي نظر إليّ ساعة، وكانت لمالك فِراسة، فقال لي: ما اسمك؟ قلت: محمد، فقال لي يا محمد، اتّق الله واجتنب المعاصي، فإنه سيكون لك شأن من الشأن، ثم قال: نعم وكرامة، إذا كان غد تجيء ويجيء من يقرأ لك، قال: فقلت: أنا أقوم بالقراءة، قال: فغدوت عليه، وابتدأت أن أقرأه ظاهراً، والكتاب في يدي، فكلما تهيبت مالكاً وأردت أن أقطع، أعجبه حسن قراءتي وإعرابي، فيقول: يا فتى زد، حتى قرأته في أيام يسيرة، ثم أقمت بالمدينة حتى

---

(١) أي حسن اللحية طويلها.

(٢) أي لابس الطيلسان: وهو نوع من الأكسية.

توفي مالك ابن أنس»[١].

مما يلاحظ أن صدر هذه القصة ذكر أو قريب منه في سبب قصده لمسلم بن خالد الزنجي مفتي مكة، وقد يكون تكرر مرتين ومع رجل من الزبيريين.

ويلاحظ أيضاً أن عمر الشافعي ـ على هذه الرواية ـ حين رحل إلى مالك نحو سبع وعشرين سنة، لأنه لزم البادية سبع عشرة سنة، ولا يقل عمره حينذاك عن عشر سنوات. وأكثر الروايات، وأوثقها خالفت هذه الرواية في الأمرين الملاحظين: فلم تذكر في ذهابه إلى مالك لزومه هذيلاً سبع عشرة سنة، وأجمعت على تحديد عمره بثلاث عشرة سنة[٢].

وسواء أكان هذا التحديد دقيقاً أم غير دقيق، فمن المؤكد أن الشافعي كان فتى حين ذهب إلى مالك، لا يتجاوز السادسة عشرة من عمره، فعبد الرحمن بن مهدي قال: سمعت مالكاً يقول: «ما يأتيني قرشيٌ أفهم من هذا الفتى»[٣] وقال مالك مرة له: «إن يك أحد يفلح فهذا الغلام»[٤] وكلمة

(١) معجم الأدباء (١٧ : ٢٨٤).

(٢) انظر مثلاً: المجموع (١ : ١٥). وتهذيب الأسماء واللغات (١ : ٤٧). وتوالي التأسيس (٥٠).

(٣) توالي التأسيس (٥٤).

(٤) وفيات الأعيان (١ : ٥٦٦).

«الفتى» «والغلام» وإن كان يطلقها الشيوخ على تلاميذهم؛ إلاّ أنها في الوقت ذاته تدل على صغر سنه؛ خصوصاً والروايات تؤيد ذلك.

ويظن أن تحديد عمر الشافعي بثلاث عشرة سنة حين رحل إلى مالك غير دقيق مع كثرة الروايات في ذلك؛ وذلك لسببين: الأول: لأن من البعيد في هذه السن أن يأخذ ما في مكة من علم وفقه وحديث، ويملأ من ذلك جرتين عظيمتين من العظام وكرب النخل والجلود، ويذهب إلى البادية فيأخذ أشعارها وآدابها. والثاني: لأن شيخه بمكة حين أذن له بالفتوى كان عمره ـ على أقل الروايات ـ خمس عشرة سنة[1]. ومنهم من يقول: عشرين سنة، وكل ذلك كان قبل ذهابه إلى مالك. فكيف نوفق بين هذا وهذا؟!

طلبه العلم على الإمام مالك وغيره من شيوخ المدينة:

وعلى كل حال لقد وصل الشافعي ـ وهو فتى ـ إلى المدينة قاصداً إلى الإمام مالك، وكان به من الفقر ما الله به عليم، ولكن غالب عزمُه فقره، وقهرت نهمته إلى العلم حاجتَه. وقبله الإمام مالك بعد أن توسّل إليه بأمير المدينة، وبشيخه مسلم بن خالد الزنجي، حين سأله الشافعي أن يكتب إلى مالك يوصيه به، فكتب إليه وقرأه مالك.

---

(١) وفيات الأعيان (١: ٥٦٦).

وجلس الشافعي إلى شيخه الإمام مالك يشرع في القراءة عليه وخشي الإمام ألا يحسن الشافعي الصغير قراءة حديث رسول الله، فطلب منه أن يأتي بمن يقرأ له الموطأ، ولكن الشافعي كان قد استعد لهذا اللقاء المهيب، لقاء الإمام مالك، فحفظ الموطأ وأتقنه مع فصاحته المعروفة وحسن بيانه، لذلك قال للإمام مالك: إني أقرأه ظاهراً، فلما بادر بالقراءة أعجب بقراءته، فإذا أراد أن يقطع القراءة هيبة له، أغراه بقوله: بالله يا فتى زد، حتى قرأ عليه الموطأ في أيام يسيرة.

ويقول الشافعي: «ثم أقمت بالمدينة حتى توفي مالك بن أنس»[1] أي سنة ١٧٩ هـ، وقد كان عمر الشافعي تسعاً وعشرين سنة، ومعنى هذا أنه لبث في المدينة بضع عشرة سنة، والظاهر أنه لم يأخذ عن مالك الموطأ فقط، فقد قرأ الموطأ من حفظه في أيام يسيرة؛ بل أخذ كل ما عند مالك من حديث وفقه واجتهاد، ونقول وفتاوى عن الصحابة والتابعين، وأخذ عنه ما بناه عليه من عمل أهل المدينة. وهل اكتفى الشافعي بهذه الإقامة الطويلة في المدينة صابراً على القلة والفقر بما أخذ عن الإمام مالك، أم أخذ عن شيوخ آخرين؟

المحقق أنه لم يدع شيخاً من مشايخ المدينة إلا أخذ

---

(١) معجم الأدباء (١٧ : ٢٨٧).

عنه، وجمع علمه. يقول الزبير بن بكار[1]، عن عمه مصعب بن الزبير بن عبد الله بن الزبير، في قصة الشافعي وذهابه إلى مالك، يقول: فما ترك عند مالك بن أنس ـ أي من العلم ـ إلا الأقل، ولا عند شيخ من مشايخ المدينة إلا جمعه [2]. ومعنى ذلك أنه أحاط بعلم الحجاز، وحسبه أن أخذ عن سفيان بن عيينة بمكة وعن مالك بالمدينة، يقول الشافعي: «لولا مالك وسفيان لذهب علم الحجاز»[3] ويقول: «مالك وسفيان قرينان في إسناد الحجاز»[4].

ثقته بعلم أهل المدينة وأثر مالك فيه:

لا شك أن علم المدينة وبالأخص علم مالك قد ملأ نفس الشافعي علماً، وثقة وفهماً، ورأى فيه سطوع الحق وقوة الدليل. قال يونس بن عبد الأعلى: سمعت الشافعي يقول: «ما أريد إلاّ نصحك، ما وجدت عليه متقدِّمي أهل المدينة؛ فلا يدخل قلبك شك أنه الحق» قال يونس: هذه ـ والله ـ وصيته كانت لي[5].

وكان رحمه الله ـ يفخر بالانتماء إليهم فيقول: «إذا قلت:

---

(١) الزبير بن بكار بن عبد الله القرشي: من أحفاد الزبير بن العوام. عالم بالأنساب وأخبار العرب، راوية، ولد في المدينة؛ وتولى قضاء مكة، فتوفي فيها سنة ٢٥٦ هـ.

(٢) معجم الأدباء (١٧ : ٢٨٣).

(٣) (٤) آداب الشافعي (٢٠٥).

(٥) آداب الشافعي ومناقبه (١٩٦).

قال بعض أصحابنا، فهم أهل المدينة. وإذا قلت: قال بعض الناس، فهم أهل العراق»[1].

وأما الإمام مالك فهو في نظر الشافعي النجم، فعن يونس بن عبد الأعلى، قال: قال الشافعي: «إذا جاء الأثر فمالك النجم»[2]. وكان يقول: «إذا جاء الحديث عن مالك فشدّ به يديك» ويقول عن كتابه الموطأ: «ما في الأرض كتاب - من العلم - أكثر صواباً من موطأ مالك»[3] ويقول حرملة: «لم يكن الشافعي يقدّم على مالك - في الحديث - أبداً»[4].

وقد وفى الشافعي لشيخه مالك حياته كلها، حتى ما يستطيع أحد أن ينال منه أمامه ولو بكلمة واحدة، وقد ردع مرّة محمد بن الحسن بالحجة حين أراد أن ينال من مالك. قال يونس بن عبد الأعلى: سمعت الشافعي يقول:

«قلت لمحمد بن الحسن يوماً - وقد ذكر مالكاً وأبا حنيفة، فقال لي محمد بن الحسن: ما كان ينبغي لصاحبنا أن يسكت - يعني أبا حنيفة - ولا لصاحبكم أن يفتي - يريد مالكاً - قلت: نشدتك الله أتعلم أن صاحبنا - يعني مالكاً - كان عالماً بكتاب الله؟ قال: اللهم نعم. قلت: فنشدتك

---

(١) آداب الشافعي ومناقبه (١٩٦).

(٢) (٣) آداب الشافعي ومناقبه (١٩٦).

(٤) آداب الشافعي ومناقبه (٢٠٠).

الله، أتعلم أن صاحبنا كان عالماً بحديث رسول الله ﷺ؟ قال: اللهم نعم. قلت: وكان عالماً باختلاف أصحاب رسول الله ﷺ؟ قال: نعم. قلت: أكان عاقلاً؟ قال: لا»

«قلت فنشدتك الله: أتعلم أن صاحبك ـ يعني أبا حنيفة ـ كان جاهلاً بكتاب الله عزّ وجلّ؟ قال: نعم. قلت: وكان جاهلاً بحديث رسول الله ﷺ، وجاهلاً باختلاف أصحاب رسول الله ﷺ قال: نعم. قلت: أكان عاقلاً؟ قال: نعم».

«قلت: فتجتمع في صاحبنا ثلاث؛ لا تصلح الفتيا إلا بها، ويخل واحدة، ويخطىء صاحبك ثلاثاً، ويكون فيه واحدة؛ فتقول: لا ينبغي لصاحبكم أن يتكلم، ولا لصاحبنا أن يسكت؟؟»[1].

---

(١) آداب الشافعي ومناقبه (٢٠١) وأقول: ما يريد محمد بن الحسن بنفيه العقل عن الإمام مالك أنه فاقد للعقل ـ لا سمح الله ـ وهو يعلم أن من أخرج للناس هذا العلم والفقه والاجتهاد؛ لا بد وأن يكون من أعقل العقلاء. ولعله يريد: أنه لا يستعمل عقله أو رأيه في مورد النص.

وأقول أيضاً: حاشا أن يكون الإمام أبو حنيفة جاهلاً بكتاب الله وقد ملأ الدنيا فقهاً وعلماً. بل الناس في الفقه عالة عليه. كما يقول الإمام الشافعي. ولعل الشافعي إنما يريد: أنه لم يبلغ في تأويل كتاب الله مبلغ كبار العلماء. الذين هم حجة في فهمه وتأويله (وفوق كل ذي علم عليم).

والشافعي يثق ثقة كاملة بالأحاديث النبوية التي يرويها علماء الحرمين وخصوصاً مالكاً، ويرى أنها تضعف إذا جاوزت الحرمين، أو لم يكن لها أصل في المدينة أو مكة، فيقول: «إذا جاوز الحديث الحرمين، فقد ضعف نخاعه»[1] ويقول: «لو صح الإسناد ـ من حديث العراق ـ غاية ما يكون من الصحة؛ ثم لم أجد له أصلاً عندنا ـ يعني بالمدينة ومكة ـ على أي وجه كان، لم أكن أُعنى بذلك الحديث، على أي صحة كان»[2].

ويقول في تحري مالك لصحة إسناد الحديث: «كان مالك إذا شك لم يتقدم، إنما يهبط في الحديث أبداً، إذا كان مسنداً، إنما ينزل درجة»[3]. ويقول: «كان مالك إذا شك في بعض الحديث طرحه كله»[4]. ويقول: «قيل لمالك بن أنس: إن عند ابن عيينة عن الزهري أشياءَ ليست عندك. فقال مالك: وأنا كل ما سمعت من الحديث أحدث به؟! أنا إذن أريد أن أظلمهم»[5].

---

(١) (٢) آداب الشافعي ومناقبه (٢٠٠) وفي اللسان: النخاع: مثلث الأول: عرق أبيض في داخل العنق، ينقاد في فقار الصلب، حتى يبلغ عجب الذنب، وهو يسقي العظام.

(٣) آداب الشافعي ومناقبه (٢٠٠) والمعنى: إذا شك في الشيخ العالي ترك الرواية عنه، وروى عن الشيخ القريب مكتفياً به. فهو لا يحدث إلاّ عن الثقة، كما قال ابن عيينة.

(٤) (٥) آداب الشافعي ومناقبه (١٩٩).

أربع عجائب رآها الشافعي بالمدينة:

ولقد أفاد الشافعي من إقامته في المدينة في هذا الزمن ـ غير العلم ـ فوائد غزيرة، دينية واجتماعية، عرف فيها أحوال الناس ومعاملتهم في معاشهم ومعادهم، ورأى عجائب وغرائب. فمما روي عنه في ذلك ما رواه المزني، قال: سمعت الشافعي يقول:

«رأيت بالمدينة أربع عجائب: رأيت جدة لها إحدى وعشرون سنة، ورأيت رجلاً فلسه القاضي في مُدَّينِ نوىً، ورأيت شيخاً قد أتى عليه تسعون سنة، يدور نهاره حافياً راجلاً على القيان يعلمهن الغناء، فإذا جاءت الصلاة صلى قاعداً، وكان بالمدينة والٍ وكان رجلاً صالحاً فقال: مالي لا أرى الناس يجتمعون على بابي كما يجتمعون على أبواب الولاة؟ فقالوا: إنك لا تضرب أحداً، ولا تؤذي الناس، فقال: أهكذا؟! عليّ بالإمام، فنصب بين العقابين، وجعل يضرب والإمام يقول: أعزّ الله الأمير إيش جرمي؟! وهو يقول: حمّلنا بنفسك، حتى اجتمع الناس على بابه»[1].

عودته إلى مكة:

كان الشافعي ـ في إقامته بالمدينة ـ يؤوب بين الحين والحين إلى مكة منشئه، وموطن أجداده، وفيها أمه العاقلة

(١) معجم الأدباء (١٧: ٣١٧). والعقابان: خشبتان يشبح الرجل بينهما.

التي ما تنفك تنصح له وتحسن توجيهه، وفيها شيوخه الذين يجلهم، ولا ينسى فضلهم عليه.

فقد قدم مرة مكة، يسعى عند بعض قرابته من الطالبيين أن يعطيه من الدنيا ما يسد به خَلته، ففوجىء بنقمة منه عليه، لتركِه مذهبَ أهل مكة، وأخذه عن مالك.

يقول الشافعي في حديث له: «فجئت إلى مصعب الزبيري، فكلمته أن يكلم بعض أهلينا - يعني من الطالبيين - فيعطيني شيئاً من الدنيا، فإنه كان بي من الفقر ما الله به عليم، فكلمه، فقال: تكلمني في رجل كان منا فخالفنا إلى غيرنا؟! ينقم عليه أخذه عن مالك، قال: فأعطاني مائة دينار»[1].

وقدم مرّة أخرى مكة، فسعى له بعض القرشيين عند والٍ على اليمن قدم مكة، أن يصحبه إلى اليمن، لعله يجد له عملاً، وتأهب فيها للذهاب إلى اليمن.

* * *

(١) طبقات الشافعية (٢ : ١٢١).

رِحْلتهُ إلى اليمَنِ

- سبب هذه الرحلة.
- العمل الذي تولاه.
- ارتفاع شأنه.
- تآمر والي اليمن عليه.

رحلته إلى اليمن

سبب هذه الرحلة:

روى الحميدي عن الشافعي قصة ذهابه إلى اليمن فقال: «قدم والٍ على اليمن[1] ـ يعني من مكة ـ فكلمه بعض القرشيين في أن أصحبه، ولم يكن عند أمي ما تعطيني ما أتجمل به، فرهَنْت داراً، فتحمَّلت معه، فلما قدمنا علمت له على عمل، فحُمِدت فيه، فزادني»[2].

وعن الكرابيسي: قال الشافعي: وقال لي مصعب: إن هارون الرشيد قد كتب إليّ أن أصير إلى اليمن قاضياً، فهل تخرج معنا؛ لعل الله أن يعوضك ما كان هذا الرجل يعوضك؟ ـ يريد به بعض الطالبيين من قرابته الذي أعطاه مائة دينار، وانتقده في ذهابه إلى مالك. وقد مر قريباً الإشارةُ إليه ـ.

قال: فخرج قاضياً على اليمن[3]، فخرجت معه.

---

(١) هو حماد البربري.

(٢) (٣) توالي التأسيس (٦٩).

وفي هذين النصين تخالف، فما رواه الحميدي يفيد أنه صحب والياً على اليمن حين قدم مكة وعاد إلى اليمن، والظاهر من رواية الكرابيسي أنه خرج مع مصعب بن الزبير حين ولاه الرشيد قضاء اليمن. فأي هذي الأمرين كان؟ يجوز أن يكون كلا النصين صحيحاً إذا قدرنا أنه يريد بقوله: «بعض القرشيين» في النص الأول: مصعباً، وهو المصرّح به في النص الثاني، وأنهم خرجوا جميعاً إلى اليمن: الوالي، والقاضي مصعب الزبيري، مصطحبين الشافعي.

عمله، وارتفاع شأنه، وتآمر الوالي عليه:

الظاهر أنه ـ مع ما اشتهر عنه في مكة أولاً وفي المدينة ثانياً من العلم والصيانة ـ لم يتول في أول أمره إلا عملاً صغيراً، قيل: إنه استخدم في أحد الخدم الديوانية باليمن[1]، ولعل هذه الخدم كانت متعلقة بالقضاء موضع فهمه واختصاصه، ومهما يكن هذا العمل، فقد بذل فيه جهداً حُمد فيه، وشهر بين الناس، فزاد له الوالي في عمله، وقد مرّ قريباً قول الشافعي: «فلما قدمنا ـ أي اليمن ـ عملت له على عمل، فحمدت فيه فزادني»[2] والتقيُّ المستقيم من لا يستهين بمصالح الناس إن ولي عليهم، بل يقوم بما تفرضه عليه أمانته ويمليه عليه دينه، وبهذا اشتهر الشافعي حتى

---

(١) المحمدون للقفطي (١٣٧).

(٢) توالي التأسيس (٦٩).

جاوزت شهرته اليمن إلى مكة، فحين وفد الناس في شهر رجب إلى مكة، انطلقت ألسنتهم بالثناء على الشافعي، يقول الشافعي: «وفد الناس في شهر رجب ـ يعني إلى مكة ـ فأتوا عليَّ فطار لي بذلك ذكر»(١) حتى شيخه سفيان بن عيينة محدث مكة رحب به حين لقيه وقال: «قد بلغني حُسن ما انتشر عنك، وما أديت كل الذي لله عليك، فلا تعد»(٢) هذا رأي سفيان: ألاَّ يعود إلى العمل، وهو رأي شيخه المكي إبراهيمَ بنِ أبي يحيى(٣) أيضاً، فقد لامه على دخوله في العمل، ويقول الشافعي: «فكانت موعظة ابن عيينة أنفع لي»(٤) ذلك لأنها قِيلت في رفق وحكمة ومحبة. وبالرغم من أن مسّ الحاجة دعا الشافعي إلى العمل، فإن شيخي الشافعي يُكبرانه أن يتولى عملاً قد ينقص من دينه وورعه، ويثلم من مروءته ونبله، وأيضاً فإن ما يلاحظانه من عقله وعلمه وذكائه، وما يتوسمانه فيه أن يكون إماماً من فحول أئمة المسلمين، هو الذي دعاهما إلى حضّه على ترك العمل، ملاحظين أن ما ينتظره الناس من نفع لهم في دينهم وشرعة

---

(١) توالي التأسيس (٦٩). ومعنى أتوا علي: أي ذكروه مثنين عليه.

(٢) توالي التأسيس (٦٩).

(٣) وهو: إبراهيم بن محمد بن أبي يحيى، الفقيه المحدث، أحد الأعلام، روى عن الزهري وابن المنكدر وخلق، وروى عنه الشافعي وابن جريج. وكان قدرياً. توفي سنة ١٨٤ هـ.

(٤) توالي التأسيس (٦٩).

نبيِّهم أولى من سعيه لسدّ حاجة نفسه.

ويقول الشّافعي: «ثم وُلِّيت نجران، وبها بنو الحارث بن عبد المدان، وموالي ثقيف. وكان الوالي إذا أتاهم صانعوه، فأرادوني على نحو ذلك، فلم يجدوا ذلك عندي، وتظلّم عندي ناس كثير، فجمعتهم،، وقلت: اجمعوا لي سبعة يكون من عدّلوه عدلاً، ومن جرحوه مجروحاً، وجلست وأمرت بتقديم الخصوم، وأجلست السبعة حولي، فإذا شهد الشاهد التفتُ إليهم، فعملت بتعديلهم، أو تجريحهم، ولم أزل حتى أتيت على جميع الظلامات، فلما انتهيت، جعلت أحكم وأسجل، فلما رأوا ذلك قالوا: هذه الضياع ليست لنا، وإنما هي لمنصور بن المهدي، فقلت للكاتب: اكتب. وأقرَّ المذكورون أن الضيعة التي حكمت عليه فيها ليست له، وإنما هي لمنصور، ومنصور باق على حجته فيها إن كانت، قال: فاجتمعوا وخرجوا إلى مكة وعملوا في أمري، حتى حملتُ إلى العراق»[1] إلى آخر ما قال.

فما هذه الولاية ينجران؟ قد تكون ولاية عادية لجزء من اليمن. يقول النووي: «ثم وُلِّي باليمن، واشتهر من حسن سيرته، وحملِه الناس على السنة، والطرائق الجميلة أشياء كثيرة معروفة»[2] وقد يكون المراد من هذه الولاية القضاء؛

---

(١) توالي التأسيس (٦٩).

(٢) تهذيب الأسماء واللغات (٤٧).

فإن عمله فيها عمل القاضي، ومهما تكن هذه الولاية فقد كانت سبباً لمحنة الشافعي، وهي ضريبة الشرف والدين، يؤديها من يؤثر العدل، ويتساوى الناس عنده فيه، ويبتغي رضاء الله، ولا يبالي بسخط الناس.

وقد حاول ذوو النفوذ مصانعة الشافعي كما اعتادوا أن يفعلوا مع من يتولى أمورهم؛ ولكنهم لم يفلحوا، ولم يجدوا في نفسه استجابة مّا لإغرائهم واستهوائهم، واتجه بكل قواه إلى إقامة العدل، وإزهاق الباطل؛ لذلك أجمعوا أمرهم وسعوا به إلى السلطان سعاية منكرة كادت تودي به لولا حفظ الله له.

وهناك رواية أخرى يقول فيها الشافعي:

«ثم خرجت إلى اليمن فارتفع لي بها الشأن، وكان بها والٍ[1] من قِبَل الرشيد، وكان ظلوماً غشوماً، وكنت ربما آخذ على يديه وأمنعه من الظلم، فكتب الوالي إلى الخليفة يقول: إن أناساً من العلوية ـ من ذرية علي ـ قد تحركوا، وإني أخاف أن يخرجوا، وإن ها هنا رجلاً من ولد شافع المطّلبي لا أمر لي معه ولا نهي.

قال: فكتب إليه هارون: أن احمل هؤلاء، واحمل

---

(١) وهو حماد البربري الذي ولاه الرشيد مكة واليمن سنة ١٨٤، وهي السنة التي تولى فيها الشافعي عملاً باليمن من سوء طالعه.

الشافعي معهم، فقُرنت معهم. قال: فلما قدمنا على هارون الرشيد، أدخلنا عليه، وعنده محمد بن الحسن. قال: فدعا هارون بالنِّطع والسيف، وضُربت رقاب العلوية، ثم قال محمد بن الحسن: يا أمير المؤمنين، هذا المطَّلبي لا يغلبنَّك بفصاحته، فإنه رجل لَسِنٌ، فقلت: مهلاً يا أمير المؤمنين، فإنك الداعي وأنا المدعو، وأنت القادر على ما تريد مني، ولست القادر على ما أريده منك. يا أمير المؤمنين، ما تقول في رجلين: أحدهما يراني أخاه، والآخر يراني عبده، أيهما أحب إليَّ؟ قال الذي يراك أخاه. قال: قلت: فذاك أنت يا أمير المؤمنين. قال: فقال لي: كيف ذاك؟ فقلت: يا أمير المؤمنين، إنكم ولد العباس، وهم ولد علي، ونحن بنو المطلب، فأنتم ولد العباس تروننا إخوتكم، وهم يروننا عبيدهم، قال: فسُرِّيَ ما كان به... الخ ما قال»[1].

وهناك بعض اختلاف بين الروايتين، تابع للاختلاف في أصل الرواية، ففي الأولى: «فاجتمعوا وخرجوا إلى مكة وعملوا في أمري» وفي الثانية «فكتب الوالي إلى الخليفة يقول: إن ناساً... إلى أن قال: وإن ههنا رجلاً من ولد شافع المطلبي لا أمر لي معه ولا نهي... الخ».

وقد يمكن الجمع بين الروايتين بأن يكون المتآمرون كثراً

---

(١) معجم الأدباء (١٧ : ٢٨٧).

من الذين كفهم الشافعي عن التمادي في الظلم، ويكون المنفذ لتآمرهم الوالي الذي خشي على نفسه وولايته من الشافعي، ومهما تختلف الروايات في أسباب المحنة، فكلها تتفق على أن القوم ائتمروا به، وأرادوا به شرّاً، لأنه أقام العدل وأخذ الحقوق لأربابها، وكفّ أيدي المعتدين، فحمل الشافعي إلى بغداد عاصمة الخلافة، بتهمة الخروج على الدولة مع بعض العلويين المتهمين دائماً بذلك.



أَخْذُهُ إلى العِرَاق مُتَّهَمًا

- حمله إلى العراق وطلبه العلم وهو على باب الخليفة.
- مثوله بين يدي الخليفة ونجاته من القتل.
- رواية مكذوبة في تحريض محمد بن الحسن الرشيد على قتله.

أخذه إلى العراق متهمًا

حمله إلى العراق وطلبه العلم وهو على باب الخليفة:

في سنة ١٨٤ هـ حمل الشافعي إلى العراق[١] كرهاً لا طوعاً، فقد أوثقه حمَّاد البربري -والي مكة واليمن- في الحديد بتهمة الخروج على الدولة، فلما انتهى إلى بغداد قيل له: الزم الباب. يقول الشافعي: «فنظرت، فإذا أنا لا بد لي من الاختلاف إلى بعض أولئك[٢]، وكان محمد بن الحسن جيد المنزلة، فاختلفت إليه، وقلت: هذا أشبه لي من طريق العلم [فلزمته][٣] وكتبت كتبه، وعرفت قولهم، وكان إذا قام ناظرت أصحابه»[٤].

لقد اهتبل الشافعي هذه الفرصة، فرصة لزومه باب

---

(١) وقيل: إنه حمل إلى الرقة، وكانت مصيف الرشيد وفيها توفي.

(٢) أي ممن لهم منزلة عند الخليفة.

(٣) زيادة ضرورية عن «توالي التأسيس».

(٤) آداب الشافعي ومناقبه (٣٢).

الخليفة، أي بقائه ببغداد رهن الطلب، وانصرف يتزود من العلم، ويطلع على كل جديد من مذاهب أهل الرأي، وقد نفد ما كان معه من نفقة، فقد بذلها على كتب محمد بن الحسن رحمه الله. فأي صبر هذا؟ وأي ثقة بالله هذه؟ رجل متهم تهمة توجب القتل، وقد نفد زاده، لبث ينتظر في باب الخليفة قضاء الله فيه؛ ومع ذلك فتح نفسه للعلم، وذهب يتزود منه، فكتب كتب محمد بن الحسن، وعرف قولهم، وناظر أصحابه! تالله ما يكون ذلك إلّا لعظماء الرجال. يقول الشافعي: «حملت عن محمد بن الحسن حمل بُخْتي[1] ليس عليه إلّا سماعي»[2] ويقول: «أنفقت على كتب محمد بن الحسن ستين ديناراً، ثم تدبرتها، فوضعت إلى جنب كل مسألة حديثاً»[3] يعني رداً عليه.

مثوله بين يدي الخليفة ونجاته من القتل:

وبفضل صدقه، وصبره، وعلمه، وبراءته، وفصاحته، ورباطة جأشه؛ فرَّج الله عنه محنته. وقد تحدث الشافعي ـ رحمه الله ـ عن هذه الفترة المفزعة فقال: «جئت يوماً فجلست إليه ـ أي إلى محمد بن الحسن ـ وأنا من أكثر الناس همّاً وغمّاً من سخط أمير المؤمنين، وزادي قد نفد، فلما أن جلست أقبل محمد يطعن على أهل المدينة، فقلت: إن

(١) البخت: نوع من الإبل، الواحد بختي.

(٢) آداب الشافعي ومناقبه (٣٣).

(٣) آداب الشافعي ومناقبه (٣٤).

طعنت على البلد فإنها مُهاجَر رسول الله ﷺ، ومهبط الوحي، وإن طعنت على أهلها فهم أبو بكر وعمر، والمهاجرون، والأنصار، فقال: معاذ الله أن أطعن عليهم، وإنما أطعن في حكم من أحكامه، فذكر الشاهد واليمين، فذكر بحثه معه في ذلك، ومباحث كثيرة ذكرها، قال: ورجل ورائي يكتب ألفاظي، وأنا لا أعلم، فأدخله على هارون، وقرأ عليه، فقال هرثمة بن أعين[1]: كان الرشيد متكئاً فاستوى جالساً، فقال: أعد، فأعاده عليه، فقال: صدق الله ورسوله، قال رسول الله ﷺ: «تعلّموا من قريش، ولا تعلِّموها، وقدِّموا قريشاً ولا تؤخروها، ما أنكر أن يكون محمدُ بن إدريس أعلم من محمد بن الحسن، قال فرضي عني، وأمر لي بخمسمائة دينار، فخرج هرثمة فقال لي: قد أمر لك بخمسمائة دينار، وقد أضفنا إليه مثله، فوالله ما ملكت قبلها ألف دينار»[2] هذه رواية أبي نعيم[3].

وروى الساجي[4] بسنده إلى الشافعي قال: «كتب البربري

(١) هرثمة بن أعين: أمير، من القادة الشجعان. له عناية بالعمران، ولاه الرشيد مصر، ثم وجهه إلى أفريقية لإخضاع عصاتها، وانحاز إلى المأمون فدس إليه الفضل بن سهل من قتله في الحبس سراً، فقتل سنة ٢٠٠ هـ.

(٢) توالي التأسيس (٧٠).

(٣) أبو نعيم: هو أحمد بن عبد الله بن أحمد الأصبهاني، حافظ مؤرخ من الثقات، ولد ومات في أصبهان سنة ٤٣٠ هـ.

(٤) الساجي: هو زكريا بن يحيى الساجي، أبو يحيى البصري الحافظ، =

إلى الرشيد، إن كانت لك حاجة قِبلَنا ـ يعني باليمن ـ فاحذر محمد بن إدريس، فإنه قد غلب على ما قبلي، ولو أراد الخروج لم يبق أحد إلا تبعه، قال: فحملت إلى الباب، واجتمع عليّ أصحاب الحديث»[1].

وروى الآبُري[2] بسنده إلى الشافعي: «أنه أدخل على الرشيد فقال: يا أخا شافع، شققت العصا وخرجت مع العلوية علينا؟! فقلت يا أمير المؤمنين، أأدع من يقول: إني ابن عمه، وأصير إلى من يقول: إني عبده، قال فأطلق عنه ووصله»[3]، وروى أيضاً بسنده إلى الشافعي قال: خرجت إلى اليمن فأقمت بها أشهراً، وارتفع لي بها شأن، وكان بها والٍ من قبل الرشيد، وكان ظلوماً غشوماً، فكنت ربما أخذت على يديه، ومنعته من الظلم، وكان باليمن جماعة من العلويين قد تحركوا، فكتب الوالي إلى الرشيد: إن العلوية قد تحركوا، وأرادوا أن يخرجوا، وإن ههنا رجلاً من ولد شافع بن السائب من بني المطلب لا أمر لي معه ولا نهي. فكتب إليه الرشيد أن يقبض عليهم وعليَّ، قال: فبلغني عن

= وثقه قوم وضعفه آخرون، توفي سنة ٣٠٧ هـ.

(١) توالي التأسيس (٧٠).

(٢) الآبـري: هـو محمـد بن الحسين السجستـاني ـ وآبـر: قـريـة بسجستان ـ كان حافظاً ثبتاً، له كتاب مناقب الشافعي، توفي سنة ٣٦٣ هـ.

(٣) توالي التأسيس (٧٠).

محمد بن زياد ـ وكان نديم هارون ـ أنه كان عند هارون حين أدخلوا عليه، فقتل العلوية، والتفت إلى محمد بن الحسن، فقال له: يا أمير المؤمنين لا يغلبنك هذا بفصاحته ولسانه، فإنه رجل لَسِنٌ، قال الشافعي: فقلت له: مهلاً يا أمير المؤمنين، فإنك الراعي وأنا المرعي، وأنت القادر على ما تريد مني، ما تقول في رجلين: أحدهما يراني أخاه، والآخر يراني عبده، أيهما أحب إليَّ؟. قال الذي يراك أخاه، قلت فأنت هو يا أمير المؤمنين، إنكم ولد العباس، وهو ولد علي، ونحن إخوتكم من بني المطلب. فأنتم ترونا إخوة، وهم يرونا عبيداً، قال: فسري عنه ما كان به، واستوى جالساً وقال: عظني، فوعظته إلى أن بكى، ثم أمر لي بخمسين ألف درهم»[1].

هذه أشهر الروايات في محنته. يقول ابن حجر، بعد أن سردها: «فهذا أقرب ما وقفت عليه من أمر المحنة» وإذا اختلفت هذه الروايات؛ فقد أجمعت على أنه اتهم بأمر خطير، كاد يدنيه من الهلكة، ولكن الله نجاه لأمر يريده له.

رواية مكذوبة في تحريض محمد بن الحسن الرشيد على قتله:

ولا بد هنا أن نشير إلى رواية مكذوبة تقول: إن محمد بن الحسن وأبا يوسف[2] قد أغريا الخليفة هارون الرشيد بقتله،

---

(١) توالي التأسيس (٧٠).

(٢) أبو يوسف: هو يعقوب بن إبراهيم بن حبيب الأنصاري، الكوفي =

وهذه الرواية مأخوذة من الرحلة المنسوبة إلى الشافعي المروية من طريق عبد الله بن محمد البلوي، وأخرجها الأبري والبيهقي في كتابيهما عن الشافعي، وساقها الفخر الرازي في مناقب الشافعي بغير إسناد. يقول ابن حجر: وهي مكذوبة، وغالب ما فيها موضوع، وبعضها ملفق من روايات ملفقة وأوضح ما فيها من الكذب قوله فيها: إن أبا يوسف ومحمد بن الحسن حرّضا على قتل الشافعي. وهذا باطل من وجهين:

أحدهما: أن أبا يوسف لما دخل الشافعي بغداد كان مات، ولم يجتمع به الشافعي.

والثاني: أنهما كانا أتقى لله من أن يسعيا في قتل رجل مسلم؛ لا سيما وقد اشتهر بالعلم، وليس له إليهما ذنب؛ إلا الحسد له على ما أتاه الله من العلم، وهذا ما لا يُظن بهما، وأن منصبهما وجلالتهما، وما اشتهر من دينهما ليصد عن ذلك. والذي تحرر لنا بالطرق الصحيحة: أن قدوم الشافعي بغداد أول ما قدم كان سنة أربع وثمانين، وكان أبو يوسف قد مات قبل ذلك بسنتين، وأنه لقي محمد بن الحسن في تلك القدمة، وكان يعرفه قبل ذلك من الحجاز، وأخذ عنه ولازمه.

= البغدادي، صاحب الإمام أبي حنيفة، وأول من نشر مذهبه، كان فقيهاً علامة، وولي القضاء ببغداد أيام المهدي والهادي والرشيد، وهو أول من دعي «قاضي القضاة» توفي سنة ١٨٢ هـ.

وقد روينا في كتاب الألقاب لأبي بكر الشيرازي بسنده إلى محمد بن أبي بكر المقدمي قال: قال الشافعي: لم يزل محمد بن الحسن عندي عظيماً جليلاً، وأنفقت على كتبه ستين ديناراً حتى جمعني وإياه مجلس عند هارون أمير المؤمنين، فابتدأ محمد بن الحسن فقال: يا أمير المؤمنين، إن أهل المدينة خالفوا كتاب الله نصاً، وأحكام رسول الله ﷺ وأحكام المسلمين، وقضوا بشاهد ويمين!! قال الشافعي: فأخذني ما قرب وما بعد، فقمت فقلت: إني أراك قد قصدت لبيت النبوة، ومن نزل القرآن فيهم، وأحكم الله أمره بهم، وقبر النبي ﷺ بين أظهرهم؛ عمدت تهجوهم، أرأيتك أنت بأي شيء قضيت؟ بشهادة القابلة وحدها، حتى ورثَت خليفةً ملكاً كبيراً ومالاً عظيماً؟! قال: بعلي بن أبي طالب، قلت: إنما روى هذا عن عليٍ رجل مجهول، يقال له، عبد الله بن نُجَي[1]، ورواه عن نُجَي جابر الجعفي[2] وكان يؤمن بالرجعة، وذكر القصة. فهذا الذي وقع بينه وبين محمد بن الحسن، فكان محمد بن الحسن يبالغ في إكرامه

---

(١) في تذهيب الكمال، نُجْبَى بضم أوله وإسكان الجيم، وفتح الموحدة، آخره تحتانية، وفي التهذيب والميزان: نجي كما هنا. وثقه النسائي، وقال البخاري وابن عدي: فيه نظر.

(٢) هو جابر بن يزيد، أحد علماء الشيعة، وثقه شعبة ووكيع وسفيان، وقال النسائي وغيره: متروك، وقال أبو حنيفة: ما رأيت أفضل من عطاء، ولا أكذب من جابر الجعفي!.

والتأدب معه والاغتباط به؛ حتى إن الآبري أخرج بسنده عن أبي حسان الحسن بن عثمان الزيادي[1] قال: «كنت في دهليز محمد بن الحسن، فخرج محمد راكباً، فرأى الشافعي قد جاء، فثنى رجله ونزل، وقال لغلامه: اذهب فاعتذر، فقال الشافعي: لنا وقت غير هذا، قال: لا، وأخذ بيده فدخلا الدار، قال أبو حسان: فاختار مجالسة الشافعي على مرتبته في الدار - يعني دار الخلافة - قال أبو حسان: وما رأيت محمداً يعظم أحداً إعظام الشافعي»[2].

هذا ما قاله ابن حجر في هذه التهمة عن العالمين الجليلين، وكان الشافعي يقول: «ما رأيت رجلاً سميناً أفهم منه»[3] ويقول أيضاً: «وكان إذا تكلم خُيِّل إليك أن القرآن أنزل بلغته»[4] أي لفصاحته، وتنقصّ رجل محمد بن الحسن عند الشافعي فقال له: «مه، لقد تلمظت بمضغة طالما لفظها الكرام»[5].

---

(١) كان الحسن بن عثمان إماماً ثقة أخبارياً، مصنفاً، كثير الاطلاع، سمع حماد بن زيد وطبقته، قيل إن الشافعي نزل عليه ببغداد، توفي سنة ٢٤٢ هـ.

(٢) توالي التأسيس (٧١).

(٣) (٤) الجواهر المضية (٢: ٤٣).

(٥) صفة الصفوة (٢: ١٤٣).

مدّة إقامته في العراق:

لم يذكر أحد من الرواة كم لبث الشافعي في بغداد هذه المرّة، وهي المَرَّةُ الأولى، والمظنون أن إقامته كانت طويلة، ربما جاوزت السنوات، فكتابة كتب محمد بن الحسن، وسماعها عليه، واشتغاله بمناظرة العلماء والفقهاء والمحدثين، وأخذه العلم عن الشيوخ، كل هذا يحتاج إلى زمن طويل، وقد تكون إقامته طالت إلى حين وفاة محمد بن الحسن سنة ١٨٩ هـ أو قبلها بقليل، ثم قفل عائداً إلى مكة.

لقد غادر الشافعي العراق وترك أثراً لا يمحى في نفوس الموافقين والمخالفين، حتى أجمعوا على الشهادة بعقله وفهمه وسرعة بديهته. قال محمد بن إسحاق الصغاني: سألت يحيى بن أكثم[١] عن الشافعي، فقال: «كنا عند محمد بن الحسن في المناظرة كثيراً، فكان الشافعي رجلاً قرشي العقل والفهم والذهن، صافي العقل والفهم والدماغ سريع الإصابة، ولو كان أمعن في الحديث لاستغنت به أمّة محمد عن غيره من العلماء»[٢].

---

(١) يحيى بن أكثم: قاض رفيع القدر، من نبلاء الفقهاء، اتصل بالمأمون، فولاه قضاء البصرة، ثم قضاء القضاة ببغداد، وأضاف إليه تدبير مملكته، توفي سنة ٢٤٢ هـ.

(٢) توالي التأسيس (٥٦).

عودته إلى مكة

- اتجاه الشافعي إلى الاجتهاد المطلق بعد أخذه علم الحجاز والعراق.
- حلقته في المسجد الحرام، وارتفاع شأنه لدى العلماء.
- تأليفه كتاب الرسالة في هذه الفترة.

عَوَدَته إلى مَكة

اتجاه الشافعي إلى الاجتهاد المطلق بعد أخذه علم الحجاز والعراق:

عاد الشافعي إلى مكة، وقد أنقذه الله من محنة مصيرها الموت، عاد ومعه حمل بعير من علم أهل الرأي، وعليه سماعه من فقيه العراق محمد بن الحسن صاحب أبي حنيفة، فاجتمع له في ذلك علم الحجاز ـ وأكثره آثار وسنن ـ وعلم أهل الرأي المَهَرَة في الفقه والقياس والاستنباط. ولم يكن طوال إقامته في بغداد ـ هذه المرة ـ يراوده أن يدع التزامه مذهب مالك، بل مضى بقوة يدافع عن فقهه: بأصوله وفروعه، ويقرع أهل الرأي بالحجة انتصاراً لمذهبه، لكن اقتحامه لميدان المناظرات ومقارعة الأدلة بالأدلة، قد أثار في نفسه الرغبة في أن يقارن بين الأدلة، ويميز ضعيفها من قويها، وخطأها من صوابها.

وتجلّى له هذا الاتجاه حين رجع إلى مكة، وشرع يعيد النظر في أصول المذاهب وفروعها، ومن هنا نبتت في رأسه فكرة الاجتهاد المطلق، لقد حفظ وفهم علم الأولين

والآخرين من الفقهاء والمحدثين، وعرف مالها وما عليها، من محاسنها ومآخذها، فما عليه إلّا أن يأخذ من كل ما علم أقواه حجة، وأوضحه منهجاً، وأدناه من كتاب الله تعالى وسنة رسوله ﷺ، وما كان يبالي في هذه المرحلة أن يتعصب أو ينتصر لإمام، إنما كان تعصبه وانتصاره للحق وحده، ولدين الله خوفاً عليه من تحريف أو تبديل عما في كتاب الله وحديث رسوله.

حدّث أبو الوليد بن أبي الجارود قال: «كنا نتحدث نحن وأصحابنا من أهل مكة: أن الشافعي أخذ كتب ابن جريج[1] عن أربعة أنفس: عن مسلم بن خالد، وسعيد بن سالم، وهذان فقيهان، وعن عبد المجيد بن عبد العزيز بن أبي روّاد ـ وكان أعلمهم بابن جريج ـ وعن عبد الله بن الحارث المخزومي[2]، وكان من الأثبات، وانتهت رياسة الفقه بالمدينة إلى مالك بن أنس، رحل إليه ولازمه وأخذ عنه، وانتهت رياسة الفقه بالعراق إلى أبي حنيفة، فأخذ عن صاحبه محمد بن الحسن جملاً ليس فيها شيء إلا وقد سمعه عليه،

---

(١) ابن جريج: هو عبد الملك بن عبد العزيز بن جريج: فقيه الحرم المكي، كان إمام أهل الحجاز في عصره، وهو أول من صنف التصانيف في العلم بمكة، رومي الأصل، من موالي قريش، توفي سنة ١٥٠ هـ.

(٢) هو عبد الله بن الحارث بن عبد الملك المخزومي أبو محمد المكي، روى عن ثور بن يزيد وابن جريج، وثقه يعقوب بن شيبة.

فاجتمع له علم أهل الرأي وعلم أهل الحديث فتصرف في ذلك، حتى أصّل الأصول، وقعّد القواعد، وأذعن له الموافق والمخالف، واشتهر أمره وعلا ذكره، وارتفع قدره حتى صار منه ما صار»(١).

حلقته في المسجد الحرام وارتفاع شأنه لدى العلماء:

لقد قبض الشافعي في أهلية وقدرة وعلم على ناصية الاجتهاد، فأصّل الأصول، ووضع القواعد، واتخذ له حلقة في المسجد الحرام، جلبت إليه الكثير من ذوي المكانة في العلم، يستمعون إليه طرائقه الجديدة في الأصول والكليات، حتى ملأ عقولهم، وشهدوا له بالتفوق والفهم والعقل، ، ومن كبار هؤلاء الإمام أحمد بن حنبل الذي وفد حاجاً إلى مكة، ودخل المسجد الحرام يلقى من به من كبار العلماء والمحدِّثين، وكان أشهرهم سفيان بن عيينة، وشغل نظره الشافعي في حلقته، وقد عرفه في العراق فرأى فيه جديداً غير الرواية، رأى فيه فهماً ثاقباً لكتاب الله تعالى، وسنة رسول الله ﷺ، وسمع منه أصولاً وقواعد لم يكن له عهد بسماعها من أحد، تدل على عظم عقله، وعميق فهمه، لذا كان يدع مجلس الشيوخ ـ شيوخ الرواية ـ ويلازم حلقة الشافعي.

يقول محمد بن الفضل الفرّاء: سمعت أبي يقول: «حججت مع أحمد بن حنبل، فنزلت في مكان واحد معه،

(١) توالي التأسيس (٥٣).

فخرج باكراً وخرجت بعده، فدرت المسجد فلم أره في مجلس ابن عيينة ولا غيره، حتى وجدته جالساً مع أعرابي، فقلت: يا أبا عبد الله، تركت ابن عيينة وجئت إلى هذا؟! فقال لي: اسكت، إنك إن فاتك حديث بعلو، وجدته بنزول، وإن فاتك عقل هذا أخاف ألا تجده، ما رأيت أحداً أفقه في كتاب الله من هذا الفتى، قلت: من هذا؟ قال: محمد بن إدريس»[1].

وعن إسحاق بن راهويه[2] قال: كنت مع أحمد بمكة، فقال لي: «تعالَ حتى أريك رجلاً لم ترَ عيناك مثله» فأراني الشافعي[3].

وعن الحميدي قال: «كان أحمد بن حنبل قد أقام عندنا بمكة على سفيان بن عيينة، فقال لي ـ ذات يوم ـ: ههنا رجل من قريش، له بيان ومعرفة، فقلت له: فمن هو؟ قال: محمد بن إدريس الشافعي. وكان أحمد بن حنبل قد جالسه بالعراق، فلم يزل بي حتى اجترني إليه»... «وكان الشافعي قبالة الميزاب[4]، فجلسنا إليه، ودارت مسائل، فلما قمنا،

(١) توالي التأسيس (٥٦).

(٢) هو إسحاق بن إبراهيم بن مخلد التميمي المروزي، عالم خراسان في عصره، وهو أحد كبار الحفاظ، وكان ثقة، قال الدارمي: ساد إسحاق أهل المشرق والمغرب بصدقه، توفي سنة ٢٣٨ هـ.

(٣) صفة الصفوة (٢: ١٤٢).

(٤) أي ميزاب الكعبة (مزرابها).

قال أحمد بن حنبل: كيف رأيت؟ فجعلت أتتبع ما كان أخطأ فيه ـ وكان ذلك مني بالقرشية[1] (يعني من الحسد) ـ فقال لي أحمد بن حنبل: فأنت لا ترضى أن يكون رجل من قريش يكون له هذه المعرفة وهذا البيان ـ أو نحو هذا القول ـ تمر مائة مسألة، يخطىء خمساً أو عشراً؟! اترك ما أخطأ وخذ ما أصاب»[2].

ومثل أحمد إسحاق بن راهويه الذي ناظر الشافعي بعناد وقوة في مجلسه هذا في الحرم المكي، فقال في نتيجة إحدى هذه المناظرات[3]: «فذاكرْتهُ وذاكرَني، فانفجر لي منه علم، أعجبني حفظه» وقال مرّة: «الشافعي إمام»[4]. وهذا بشر المريسي القدري المناظر البارع، رأى الشافعي في هذه الفترة بمكة، فقال عنه: معه نصف عقل أهل الدنيا. فقد حدّث الحسن بن محمد الزعفراني قال:

«كنا نحضر مجلس بشر المريسي، فكنا لا نقدر على مناظرته، فمشينا إلى أحمد بن حنبل، فقلنا له: ائذن لنا في أن نحفظ الجامع الصغير الذي لأبي حنيفة؛ لنخوض معهم إذا خاضوا. فقال: اصبروا، فالآن يقدم عليكم المطلبي

---

(١) أي بسبب أنه قرشي مثله.

(٢) آداب الشافعي ومناقبه (٤٤).

(٣) ستأتي في باب مناظرات الشافعي بعض هذه المناظرات.

(٤) توالي التأسيس (٥٧).

الذي رأيته بمكة. قال: فقدم علينا الشافعي، فمشوا إليه، وسألناه شيئاً من كتبه، فأعطانا كتاب اليمين مع الشاهد، فدرسته في ليلتين، ثم غدوت على بشر المريسي، وتخطيت إليه، فلما رآني قال: ما جاء بك يا صاحب حديث؟ قال: ذرني من هذا، إيش الدليل على إبطال اليمين مع الشاهد؟ فناظرته فقطعته، فقال: ليس هذا من كيسكم[1]، هذا من كلام رجل رأيته بمكة، معه نصف عقل أهل الدنيا»[2].

ولعل حلقة الشافعي في المسجد الحرام طغت على كل حلقة بعظمها وحيويتها، وما يعقد فيها من مناظرات، وما يثار فيها من مباحث، بل كان أحياناً يندب الناس ليسألوه عن فقه آية أو تبيان سنة، فيجيب أحسن جواب وأقطعه. قال عبد الله بن محمد بن هارون الفريابي: «وقفت بمكة على حلقة عظيمة وفيها رجل، فسألت عنه فقيل: هذا محمد بن إدريس الشافعي، فسمعته يقول: سلوني عما شئتم أخبركم، بآية من كتاب الله، وسنة رسول الله ﷺ، وقول صحابي. فقلت في نفسي: إن هذا الرجل جريء، ثم قلت له: ما تقول في المحرم يقتل الزنبور؟ فقال: قال الله تعالى: ﴿وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا﴾[3] وحدّثنا

---

(١) أي من فطنتكم وحذقكم.

(٢) معجم الأدباء (١٧ : ٣٠٤).

(٣) الآية ٧ من سورة الحشر.

سفيان بن عيينة، عن عبد الملك بن عمير، عن ربعي، عن حذيفة، قال: قال رسول الله ﷺ: «اقتدوا باللذين من بعدي أبي بكر وعمر». وحدّثنا سفيان بن عيينة، عن مسعر، عن قيس بن مسلم، عن طارق بن شهاب، أن عمر رضي الله عنه أمر المحرم بقتل الزنبور»[1].

وما كان ينقطع هذه الفترة عن مجالس ابن عيينة شيخه القديم ومحدّث الحرم، وكان ابن عيينة يثق بعلم الشافعي وفقهه، وربما سأله على ملأ من الناس عن معنى آية، أو فقه حديث، فيجيب بما يثلج صدر شيخه، ويهتز له طرباً. وروي عن إبراهيم بن محمد بن العباس[2]، قال: «كنت في مجلس ابن عيينة والشافعي حاضر، فحدّث ابن عيينة عن الزهري بحديث صفيّة والرجلين.. الحديث. وفيه: «إن الشيطان يجري من الإنسان مجرى الدم» فقال ابن عيينة للشافعي: ما فقه هذا الحديث يا أبا عبد الله؟ قال: لو كان القوم اتهموا رسول الله ﷺ لكانوا بتهمتهم إياه كفاراً، ولكن رسول الله أدّب مَنْ بعده، قال: إذا كنتم هكذا؛ فافعلوا هكذا حتى لا يظن بكم، لا أن النبي ﷺ - وهو أمين الله في وحيه - يتهم، فقال ابن عيينة: جزاك الله خيراً يا أبا عبدالله،

(١) معجم الأدباء (١٧ : ٣١٦).

(٢) إبراهيم بن محمد بن العباس ابن عم الشافعي، روى عن الشافعي، والفضيل بن عياض، روى عنه ابن ماجه في سننه، قال أبو حاتم: صدوق. مات سنة ٢٣٨ هـ.

ما يجيئنا منك إلا ما نحبه»[1].

تأليفه كتاب الرسالة في تلك الفترة:

يظهر أن شهرة الشافعي في حلقته في المسجد الحرام، وما كان يثار فيها من مباحث جديدة كل الجدة في الأصول والقواعد؛ جاوزت حدود مكة، فبلغت العراق، وعرف علماؤه قيمة ما ينشره بين الناس من علم، وهذا ما دعا حافظ العراق الإمام العلم عبد الرحمن بن مهدي أن يكتب إلى الشافعي وهو بمكة، يطلب منه فيه ـ وهو شاب ـ «أن يضع له كتاباً فيه معاني القرآن، ويجمع مقبول الأخبار فيه، وحجة الإجماع، وبيان الناسخ والمنسوخ من القرآن والسنة. فوضع له كتاب الرسالة»[2].

ويقول علي بن المديني[3]: قلت لمحمد بن إدريس الشافعي: أجب عبد الرحمن بن مهدي عن كتابه، فقد كتب إليك يسألك وهو متشوق إلى جوابك. قال فأجابه الشافعي. وهو كتاب الرسالة التي كتبت عنه بالعراق، وإنما هي رسالته إلى عبد الرحمن بن مهدي[4].

(١) توالي التأسيس (٥٤).
(٢) معجم الأدباء (١٧ : ٣١٣).
(٣) هو علي بن عبد الله المديني، كان حافظ عصره، توفي بسامراء سنة ٢٣٤ هـ.
(٤) الانتقاء (٧٢ ـ ٧٣). وعبد الرحمن بن مهدي: هو الإمام الحافظ المتقن الورع، سمع شعبة والثوري ومالكاً، يقول الشافعي عنه: لا =

هذه هي «الرسالة». كتبها الشافعي في هذه الفترة بمكة، ونقلها إلى ابن مهدي الحارث بن سريج النقّال الخوارزمي[1] ثم البغدادي، وبسبب ذلك سمي «النقّال» ويرى الفخر الرازي أن الشافعي كتب الرسالة ببغداد إذ يقول: «اعلم أن الشافعي رضي الله عنه صنف كتاب الرسالة ببغداد، ولما رجع إلى مصر أعاد تصنيف كتاب الرسالة، وفي كل واحد منهما علم كثير»[2].

ولا معنى لأن يكتب إلى الشافعي، ويجيبه الشافعي، ويحمل الرسالة ابن سريج النقّال، إذا كان كلاهما في بغداد، إلا إذا قدرنا أن ابن مهدي كان بالبصرة والشافعي ببغداد، وهو بعيد.

هذه خلاصة عن بعض نشاطات الشافعي في نشر آرائه واجتهاداته في الأصول والفقه، هذه الفترة في مكة، وكنا نود لو تكون هذه الفترة موضحة محددة في كتب المؤرخين والمترجمين؛ ولكن ما لا يدرك كله لا يترك جله.

= أعرف له نظيراً في الدنيا. توفي سنة ١٩٨ هـ.

(١) روى عن الشافعي، وحماد بن سلمة، وسفيان بن عيينة وغيرهم، توفي سنة ٢٣٦ هـ.

(٢) مناقب الشافعي للفخر (٥٧).



رحلته الثّانية إلى العِرَاق

- هذه الرحلة أجدى رحلة له إلى العراق.
- حلقته في الجامع الغربي في بغداد.
- أثره العظيم في أهل الحديث.
- شهادات المحدثين بفضل الشافعي عليهم.
- حصيلة جهده العلمي في هذه الرحلة.
- تلاميذه في العراق.

رحلته الثانية إلى العراق [1]

هذه الرحلة أجدى رحلة له إلى العراق:

رحل الشافعي مختاراً إلى بغداد الرحلة الثانية سنة ١٩٥ خمس وتسعين ومائة، وكانت أنفع رحلة وأخصبها، وأجداها على نفسه وعلى الناس، مع أنها كانت قصيرة لم تجاوز السنتين. وما نعلم السبب المباشر الذي دعاه إلى هذه الرحلة، والغالب أنه كان سبباً علمياً، فقد عرف الشافعي بغداد قبل، وعرف علماءها، وأخذ عن أهل الرأي منهم، وخبر الصراع العنيف بين علماء الحديث الذين يتشبثون بظاهر النص، لا يكادون يخرجون عنه، ومن ورائهم أكثر الناس؛ وبين فقهاء الرأي الذين هم في الاتجاه المقابل، لا يأخذون بالنص حتى يقتلوه تمحيصاً وتفريعاً، ويولون القياس والاستحسان والعرف وما إلى ذلك الإشراف على كثير من اجتهادهم، وقد أوتوا القدرة على المجادلة والبحث، ومع هؤلاء نفوذ السلطان وقوته. وما انفك الشافعي عن بغداد في المرة الأولى إلا وقد كون في نفسه رأياً اجتهادياً، بعيداً عن سطحية أولئك، ومتجافياً عن تحكم الرأي عند هؤلاء.

وقد سبقه إلى بغداد هذه المرّة شهرة وذكر، بثهما كبار المحدّثين والفقهاء: كأحمد بن حنبل، وإسحاق بن راهويه، وبشر المريسي، وعبد الرحمن بن مهدي الذي ألف له الشافعي الرسالة مستجيباً لطلبه. ومع ذلك فإن دخول الشافعي العراق يعلن فيه اجتهاده مغامرة مرّة، إن لم يصطحب من سلاح العلم والحجة والبيان ما يوازي الفريقين، إن لم يَرْبُ عليهما. على أن الطريق قد تكون موطّأةً له بعض الشيء من جهة المحدثين وفقهائهم، فقد أتى ينصر السنة، ويدعم أهلها، ويفتح فتحاً مبيناً في أصول فهمها، والاستنباط منها، وإحكام أحكامها. يقول النووي: «ونشر أي في العراق علم الحديث، ومذهب أهله، ونصر السنة، وشاع ذكره وفضله»[1].

ولقد نزل حين أتى بغداد على أبي حسان الزيادي[2]، ويقال: نزل على الزعفراني[3]، وكان أديباً موسراً متصلاً بالسلطان. وقيل: نزل على بشر المريسي، فأنزله في العلو، وهو في السفل إعظاماً له، إلى أن قالت له أمه: يا أبا عبد الله، إيش تصنع عند هذا الزنديق؟ قال: فتحول عنه[4].

(١) المجموع (١: ١٦).

(٢) توالي التأسيس (٧١).

(٣) توالي التأسيس (٧٢).

(٤) توالي التأسيس (٧٢) وهذا الاختلاف إنما حدث بسبب تخليط كثير من المؤرخين والمترجمين بين رحلاته الثلاث، لا بهذا الخبر =

حلقته في الجامع الغربي في بغداد:

ثم قصد الشافعي إلى الجامع الغربي، وفيه تعقد حلقات العلم، وانتحى منه ناحية، وبدأ يعرض أصوله وقواعده وموارد فقهه، فأمه المتعلمون والعلماء، وأكثرهم إنما حضر مجلسه أول الأمر ليعجم عوده، ويمتحن علومه، وبعضهم أتى معتداً بمذهبه، شامخاً بأنفه، يريد أن يسخر من المتفقه الجديد على زعمه، فلما سمع منه سحره بيانُه، وأسرته حجته، فانقلب إلى رأيه، وتمذهب بمذهبه. ومن هؤلاء أبو ثور وحسين بن علي الكرابيسي. قال أبو ثور: «لما ورد الشافعي العراق، وجاءني حسين بن علي الكرابيسي، وكان يختلف معي إلى أهل الرأي، فقال لي: ورد رجل من أصحاب الحديث يتفقه، قم بنا نسخر منه، فذهبنا إليه، فسأله الحسين عن مسألة، فلم يزل يقول: قال الله، قال رسول الله، حتى أظلم علينا البيت، فتركنا ما كنا فيه واتبعناه»[1].

وفي رواية أخرى عنه قال:

= وحده، بل بأخبار عدّة، بل يرى بعضهم أنه لم يرحل إلى العراق إلا رحلتين، والذي لا ريب فيه أن رحلاته ثلاث: الأولى سنة ١٨٤ حين محنته، وفيها حمل عن محمد بن الحسن وقر بُخْتيّ من العلم، وقد تحدثنا عنها. والثانية سنة ١٩٥ وهي هذه التي نتحدث عنها، ولم يكن فيها محمد بن الحسن على قيد الحياة إذ توفي سنة ١٨٩. والثالثة سنة ١٩٨ وستأتي إن شاء الله تعالى.

(١) توالي التأسيس (٥٨).

«كنت من أصحاب محمد بن الحسن، فلما قدم الشافعي علينا جئت إلى مجلسه شبه المستهزىء، فسألته عن مسألة من الدور فلم يجبني، وقال لي: كيف ترفع يديك في الصلاة؟ قلت: هكذا. قال لي: أخطأت! فقلت: كيف أصنع؟ فقال: حدّثني ابن عيينة عن الزهري، عن سالم عن أبيه، أن النبي ﷺ «كان يرفع يديه حذو منكبيه، وإذا ركع، وإذا رفع» قال أبو ثور: فوقع في قلبي من ذاك، فجعلت أزيد في المجيء إلى الشافعي، وأقصر في الاختلاف إلى محمد بن الحسن، فقال لي ابن الحسن يوماً: يا أبا ثور، أحسب أن هذا الحجازي قد غلب عليك. قال: قلت: أجل، الحق معه. قال: وكيف ذاك؟ قال: فقلت: كيف ترفع يديك في الصلاة؟ فأجابني على نحو ما أجبت الشافعي، فقلت: أخطأت! قال كيف أصنع؟ قلت: حدّثني الشافعي، عن ابن عيينة، عن الزهري، عن سالم، عن أبيه، أن النبي ﷺ «كان يرفع يديه حذو منكبيه، وإذا ركع وإذا رفع» قال أبو ثور: فلما كان بعد شهر قال: يا أبا ثور، خذ مسألتك في الدور، فإنما منعني أن أجيبك يومئذٍ أنك كنت متعنتاً»[1].

وقال أبو ثور: «كنت أنا وإسحاق بن راهويه وحسين الكرابيسي، وجماعة من العراقيين، ما تركنا بدعتنا حتى رأينا الشافعي»[2].

---

(١) معجم الأدباء (١٧ : ٣٠٢).

(٢) تهذيب الأسماء واللغات (١ : ٦١).

وما زال الشافعي ـ رحمه الله ـ يصول ويجول، ويأتي كل يوم بجديد من فهم كلام الله، وفقه حديث رسول الله، حتى أخضع الأعناق لفضله وحمل العلماء على الإقرار بعلمه، وظهر أمره بين الناس، وانفكت أكثر حلقات المخالفين في الجامع الغربي، لم يثبت منها إلّا القليل. قال إبراهيم الحربي[1]: «قدم الشافعي بغداد، وفي الجامع الغربي عشرون حلقة لأصحاب الرأي، فلما كان يوم الجمعة لم يثبت منها إلّا ثلاث حَلَق أو أربع»[2].

وكانت الأقضية كلها بيد أصحاب الرأي، وما كان الناس ـ حتى أصحاب الحديث ـ يجدون مندوحة عن إقرارها والعمل بمقتضاها، ذلك لأن أهل الرأي توسعوا في الفروع فشملت كثيراً من القضايا المرفوعة إلى القضاء، والمحدثون كتفوا أنفسهم في أفهام سطحية للسنة، حتى حضر الشافعي بغداد، وأتاهم بفقه مؤيد بالكتاب مدعوم بالسنة، فاستغنوا به عن غيره. قال أحمد بن حنبل: «كانت أقضيتنا في أيدي أصحاب أبي حنيفة ما تنزع، حتى رأينا الشافعي، فكان أفقه الناس في كتاب الله وفي سنة رسول الله»[3].

---

(١) إبراهيم الحربي: هو إبراهيم بن إبراهيم بن إسحاق البغدادي الحربي من أعلام المحدثين، تفقه على الإمام أحمد، وتوفي سنة ٢٨٥.

(٢) تهذيب الأسماء واللغات (١ : ٦٣).

(٣) توالي التأسيس (٥٦).

وكان أصحاب الحديث يتعلمون كلام أهل الرأي ويكتبون كتبهم اكتساباً لملكة الفقه، واستعانة بها على القضاء، قال أحمد بن حنبل أيضاً ـ وقد سئل عن الشافعي ـ: «لقد منّ الله به علينا، لقد كنا تعلمنا كلام القوم، وكتبنا كتبهم، حتى قدم علينا الشافعي، فلما سمعنا كلامه علمنا أنه أعلم من غيره، وقد جالسناه الأيام والليالي فما رأينا منه إلّا كل خير رحمه الله»[١].

أثره العظيم في أهل الحديث:

ما هو هذا الذي أفاده المحدِّثون من الشافعي في قدومه إلى بغداد في هذه المرّة؟

كان همّ أصحاب الحديث منصرفاً إلى سماع الحديث، والرحلة فيه وجمع طرقه، وطلب الأسانيد العالية، والمتون الغريبة، واستغرقوا في سبيل ذلك أعمارهم، ولو سألتهم عن معنى حديث أو عن فقهه، لأعيى بعضهم الجواب؟ روى ابن الجوزي عن الخطابي قال: «كان بعض مشايخنا يروي الحديث: أن النبي ﷺ نهى عن الحلق قبل الصلاة يوم الجمعة، بإسكان اللام». قال: وأخبرني: «أنه بقي أربعين سنة لا يحلق رأسه قبل الصلاة، قال: فقلت له: إنما الحَلْق جمع حَلْقة، وإنما كره الاجتماع قبل الصلاة للعلم والمذاكرة. وأمر أن يُشتغل بالصلاة وينصت للخطبة. قال:

---

(١) تهذيب الأسماء واللغات (١: ٦٠).

قد فرجت عليّ، وكان من الصالحين»[1] وروى ابن الجوزي أيضاً بسنده إلى البرقاني قال: قال أبو بكر الأبهري الفقيه[2]: «كنت عند يحيى بن محمد بن صاعد[3]، فجاءته امرأة، فقالت: أيها الشيخ، ما تقول في بئر سقطت فيها دجاجة، فماتت، فهل الماء طاهر أو نجس؟ فقال يحيى: كيف سقطت الدجاجة في البئر؟! قالت: لم تكن البئر مغطاة، فقال يحيى: ألا غطيتها حتى لا يقع فيها شيء. قال الأبهري: فقلت: يا هذه، إن كان الماء تغير فهو نجس، وإلاّ فهو طاهر»[4]. هكذا كانت حال كثير من المحدِّثين، انصراف كامل إلى صناعتهم، وإهمال لما سواها، وبهذا نال الطاعنون منهم فقالوا عنهم: زوامل أسفار لا يدرون ما معهم»[5].

---

(١) تلبيس إبليس (١١٤). وابن الجوزي هو: عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي القرشي البغدادي، علامة عصره في التاريخ والحديث، كثير التصانيف، مات في بغداد سنة ٥٩٧ هـ.

(٢) هو أبو بكر محمد بن عبد الله التميمي الأبهري، شيخ المالكية في العراق، سكن بغداد، وتوفي سنة ٣٧٥ هـ.

(٣) يحيى بن صاعد: من أعيان حفاظ الحديث من أهل بغداد، توفي سنة ٣١٨ هـ.

(٤) تلبيس إبليس (١١٥).

(٥) تلبيس إبليس (١١٥) والزوامل جمع زاملة هو: البعير يحمل الرجل متاعه عليه.

وهناك فئة متقدمة منهم، بلغت الذروة في فن الحديث، ولم تهمل الفقه في الدين، والمشاركة في استخراج أحكامه، كيحيى بن معين، وابن المديني، والبخاري، ومسلم، وأمثالهم. وعلى رأس هؤلاء أحمد بن حنبل، وفي عصره كثيرون تفقهوا في السنة، ولكن لم يبلغوا فيها مبلغ مهَرَة الفقهاء، فلما وافاهم الشافعي ببغداد، رأوا عنده غاية غاياتهم: رجل قرشي العقل والفهم، معه نصف عقل أهل الدنيا، يحفظ القرآن، وهو أجلُّ من فهمه، ويحفظ السنة، وقد أخذها عن أكابر المحدثين كسفيان بن عيينة ومالك بن أنس، وله في فهمها وفقهها مدىً عجز القادرون عن الوصول إليه، من غير أن ينهك النص فيخرجه عما وضع له في أصل العربية، ومهما يؤصِّل أو يفرِّع يطرحْه كله عندما تثبت السنة بخلافه[1]، فإنه لا حقّ لأحد بعد الله ورسوله أن يشرع ما لم يأذن به الله. كما رأوا فيه شرفاً ونبلاً، وتقوى وورعاً، واعتدالاً وحكمة، وحلماً وصبراً وإنصافاً للخصم وإصاخة لحجته، وإقراراً بالحق وشجاعة في قبوله، فأقبلوا عليه إقبال الفراش على النور، آخذين منه بنهم ما خفي عليهم من عموم القرآن وخصوصه، ومجمله ومفصّله، وناسخه ومنسوخه، وما غاب عنهم من السنة التي حفظوها واختصوا بها.

---

(١) سيأتي فصل بعنوان: اتباع الشافعي للسنة.

وبالجملة: فقد رأى المحدِّثون في الشافعي خير قائد ناصر للحديث[1]، متمسك بمتواتره وآحاده، يدلهم على المحجة البيضاء، كما رأى فيه المتفقهون المنصفون من يدلهم على الحجة الدامغة، والحق الناصع.

شهادات المحدثين بفضل الشافعي عليهم:

وإليك شهادة بعض من تأثر بالشافعي في بغداد هذه الفترة. قال الحسن بن محمد الزعفراني: «كان أصحاب الحديث رقودا، فأيقظهم الشافعي، فتيقظوا»[2] وقال داود بن علي الظاهري[3]: «كان الشافعي رضي الله عنه سراجاً لحملة الآثار، ونقلة الأخبار، ومن تعلق بشيء من بيانه صار محجاجاً» [4].

وقال الإمام أحمد: «ما زلنا نلعن أصحاب الرأي ويلعنوننا، حتى جاء الشافعي فمزج بيننا»[5].

وقال دبيس[6]: «كنت مع أحمد بن حنبل في المسجد،

(١) قال الشافعي: سميت ببغداد: ناصر الحديث، كما في الشذرات.
(٢) تهذيب الأسماء واللغات (١: ٥٠).
(٣) هو داود بن علي بن خلف الملقب بالظاهري. أحد الأئمة المجتهدين في الإسلام، وهو إمام أهل الظاهر، توفي سنة ٢٧٠ هـ.
(٤) تهذيب الأسماء واللغات (١: ٦٣).
(٥) ترتيب المدارك (١: ٩٥).
(٦) لعله أبو علي دبيس بن سلام القصباني المتوفي سنة ٢٠١ هـ.

فمر حسين ـ يعني الكرابيسي ـ[1]، فقال: هذا ـ يعني الشافعي ـ رحمة من الله لأمة محمد»[2] وقال أيضاً: «ما فهمنا استنباط أكثر السنن إلا بتعليم الشافعي إيانا»[3].

وقال هلال بن العلاء: «أصحاب الحديث عيال على الشافعي، فتح لهم الأقفال»[4].

أما الإمام أحمد بن حنبل، فله أقوال كثيرة في أثر الشافعي على المحدّثين، وما فتحه لهم من مغلق الفقه، ومن معاني أحاديث الرسول ﷺ. من ذلك قوله: «لولا الشافعي ما عرفنا فقه الحديث»[5] ومنه قوله: «ما كان أصحاب الحديث يعرفون معاني أحاديث رسول الله ﷺ، فبيّنها لهم»[6]. ومنه قوله: «كان الفقه قفلاً على أهله، حتى فتحه الله بالشافعي»[7]. ومنه قوله: «لا يستغني ـ أو لا يشبع ـ صاحب الحديث من كتب الشافعي»[8] ومنه قوله: «الشافعي حسن الشرح للحديث، وكان له اختراع حسن، واحتج لخبر الواحد

---

(١) ستأتي ترجمته في صلب الكتاب.

(٢) آداب الشافعي (٥٧).

(٣) تهذيب الأسماء واللغات (١: ٦١).

(٤) تهذيب الأسماء (١: ٦٤).

(٥) توالي التأسيس (٥٧).

(٦)(٧) (٨) تهذيب الأسماء (١: ٦١).

بكلام حسن وحجة بينة»[1] ومما قال في ذلك: «الشافعي فيلسوف في أربعة أشياء: في اللغة، واختلاف الناس، والمعاني، والفقه»[2] ومن ذلك قوله: «قدم علينا نعيم بن حماد[3]، فحضّنا على طلب المسند، فلما قدم الشافعي وضعنا على المحجة البيضاء».

وعن صالح بن أحمد بن حنبل[4]، قال: «جاء الشافعي يوماً إلى أبي يعوده ـ وكان عليلاً ـ فوثب أبي إليه، فقبّل ما بين عينيه، ثم أجلسه في مكانه، وجلس بين يديه. قال فجعل يسائله ساعة، فلما وثب الشافعي ليركب، قام أبي فأخذ بركابه، ومشى معه، فبلغ يحيى بن معين، فوجه إلى أبي: يا أبا عبد الله، يا سبحان الله! آضطرك الأمر إلى أن تمشي إلى جانب بغلة الشافعي؟ فقال له أبي: وأنت يا أبا زكريا لو مشيت من الجانب الآخر لانتفعت به. قال: ثم قال لأبي: من أراد الفقه فليشم ذنب هذه البغلة»[5].

ورحم الله النووي إذ لخص فضل الشافعي على المحدّثين، فقال:

(١) (٢) توالي التأسيس (٥٧).
(٣) نعيم بن حماد بن معاوية بن الحارث الخزاعي المروزي، أول من جمع المسند في الحديث، توفي في العراق سنة ٢٢٨ هـ.
(٤) هو صالح بن الإمام أحمد بن حنبل الشيباني، قاض، ولد ببغداد، أخذ عن أبيه، ثم ولي قضاء إصبهان، وتوفي فيها سنة ٢٦٥ هـ.
(٥) معجم الأدباء (١٧: ٣٠١).

«وهو الذي قلد المنن الجسيمة أهلَ الآثار، وحملةَ الحديث، ونقلة الأخبار، بتوقيفه إياهم على معاني السنن، وتبيينه، وقذفه بالحق على باطل مخالفي السنن وتمويههم، فنعشهم بعد أن كانوا خاملين، وظهرت كلمته على جميع المخالفين، ودمغهم بواضحات البراهين، حتى ظلت أعناقهم لها خاضعين»[1].

ولقد بلغ من تقدير أحمد بن حنبل للشافعي، وثقته بعلمه واجتهاده وفقهه، أنه إذا استُفتي في مسألة لم يجد فيها نصاً أفتى فيها بقول الشافعي. يقول رحمه الله في ذلك: «إذا سئلت في مسألة لا أعلم فيها خبراً قلت فيها: بقول الشافعي؛ لأنه عالم قريش»[2] وذكر الحديث[3]، وتأوله عليه.

وبالجملة: فقد أقبل المحدثون والمتفقهون من أهل العراق على الشافعي إقبالاً منقطع النظير وأحبوه حباً لم ينل

---

(١) تهذيب الأسماء واللغات (١: ٥٠).

(٢) طبقات الشافعية (١: ٢٠٠).

(٣) الحديث: قوله ﷺ: «لا تؤموا قريشاً، وائتموا بها، ولا تقدّموا على قريش وقدموها، ولا تعلموا قريشاً وتعلموا منها، فإن إمامة الأمين من قريش تعدل إمامة الأمين من غيرهم، وإن علم عالم قريش ليسع طباق الأرض» انظر طبقات الشافعية (١: ١٩٨ وبعدها) طبعة البابي.

بعضه عالم، وانتفع به خلق لا يحصيهم إلا الله، وأثنوا عليه بما هو أهله ثناء لم يظفر ببعضه أحد من علماء عصره، وأجمع على ذلك منهم حذاق الفقه والنظر وأهل العربية، قال البويطي: ـ وهو من تلاميذه المصريين ـ:

«ما عرفنا قدر الشافعي حتى رأيت أهل العراق يذكرونه، ويصفونه بوصف ما نحسن نصفه، فقد كان حذاق العراق بالفقه والنظر، وكل صنف من أهل الحديث وأهل العربية والنظار يقولون: إنهم لم يروا مثل الشافعي»[١].

وقال النووي رحمه الله في جملة حال الشافعي في العراق:

«فلما اشتهر جلالة الشافعي ـ رحمه الله ـ في العراق، وسار ذكره في الآفاق، وأذعن بفضله الموافقون والمخالفون، واعترف به العلماء أجمعون، وعظمت عند الخلائق وولاة الأمور مرتبته، واستقرت عندهم جلالته وإمامته، وظهر من فضله في مناظراته أهل العراق وغيرهم ما لم يظهر لسواه، وأظهر من بيان القواعد، ومهمات الأصول ما لم يعرف لمن عداه، وامتحن في مواطن كثيرة مما لا يحصى من المسائل، فكان جوابه فيها من الصواب والسداد بالمحل الأعلى والمقام الأسنى ـ عكف عليه للاستفادة منه الصغار والكبار، والأئمة

---

(١) تهذيب الأسماء واللغات (١: ٦٢).

الأخيار، من أهل الحديث والفقه وغيرهم، ورجع كثير منهم من مذاهب كانوا عليها إلى مذهبه وتمسكوا بطريقته، كأبي ثور، وخلائق من الأئمة، وترك كثير منهم الأخذ عن شيوخهم وكبار الأئمة؛ لانقطاعهم إلى الشافعي، حين رأوا عنده ما لا يجدون عند غيره، وبارك الله الكريم له ولهم في تلك العلوم الباهرة، والمحاسن المتظاهرة، والخيرات المتكاثرة، ولله الحمد على ذلك، وعلى سائر نعمه التي لا تحصى»[1].

حصيلة جهده العلمي في هذه الرحلة:

وبعد: فما هي حصيلة الجهد العلمي الضخم الذي بذله الشافعي في بغداد في هذه الرحلة؟

من عرف بغداد في أواخر المائة الثانية، وما فيها من أجناس وألوان من مختلف الملل والنحل والمذاهب، وما يضطرب فيها من أفكار وآراء في الفلسفة والعلوم والديانات، وما يزخر فيها من مال وترف وسلطان، وما تعج به مساجدها من متكلم بالدين طاعة وزهداً وتقوى، أو متكلم به محدثاً يعتني بالرواية، أو مجتهداً يستنبط الأحكام، ومن متكلم به من أهل الأهواء، ومن عرف أن آلافاً من العلماء والمفكرين والأدباء والشعراء، يفدون إليها من كل صوب، ويغيض أكثرهم في عظمتها وحضارتها، وعرف أن أمضى كل

(١) تهذيب الأسماء واللغات (١ : ٤٨).

هؤلاء نفوذاً في العراق كله بين عامة الناس هم المحدثون، وأن أمنعهم لدى السلطان فقهاء الرأي؛ من عرف ذلك استطاع أن يتخيل قدرة الشافعي وأثره في العراق، وهو خال من كل سلاح وقوة تفرضانه عليهم إلاّ قوة العقل والفهم والعلم والدليل، فقد نظم المحدّثين، وعرَّفهم طريقة فهم السنة، واستنباط الأحكام منها، وكف مغالاة أهل الرأي بمناظرته لهم على ملأ، ونشر مذهبه الذي جمع خير ما في الطريقتين، فقد اعتمد النص أولاً، وضبط القياس وأحكمه، وإذا ثبت النص وأحكم معناه خفض جناحه له وطرح كل ما عداه؛ فليس لأحد دون رسول الله ﷺ حجة. وقد اهتم بأصول اجتهاده، فوضع لذلك كتابه المسمى «الرسالة» التي كتبها لعبد الرحمن بن مهدي، وبث منها على الناس أصوله، فعني فيها العلماء وتدارسوها، وقرأها بعضهم على الشافعي نفسه، وطلب من بعضهم أن يلتمس من يقرؤها بحضرته.

وأما البحث في الفروع وأدلتها، والرد على المخالفين أو مناظرتهم؛ فهذه المباحث كلها جمعها كتاب «الحجة» أو كما سماه ابن النديم «المبسوط» وتسميته «بالحجة» أعرف وأشهر، وهذا الكتاب كما جاء في كشف الظنون: «مجلد ضخم، ألفه بالعراق، وإذا أطلق القديم في مذهبه يراد به هذا التصنيف».

ويقول النووي: «صنف في العراق كتابه القديم المسمى «كتاب الحجة» ويرويه عنه أربعة من كبار أصحابه العراقيين،

وهم: أحمد بن حنبل، وأبو ثور، والزعفراني، والكرابيسي، وأتقنهم له رواية الزعفراني»[1]. وكتاب الحجة ليس كتاباً واحداً فيما يظهر؛ وإنما هو عبارة عن مجموعة كتب، مثل كتاب الأم الذي ألفه بمصر ـ وسيأتي الحديث عنه ـ ولقد روى عنه تلاميذه من العراقيين هذين الكتابين ـ الرسالة والحجة ـ كما رووا عنه الكثير غير هذا، تقرؤها منتثرة في كتب كثيرة. وقد انفرد الإمام أحمد برواية أشياء كثيرة عنه، منها أنه سمع منه موطأ مالك، يروي ذلك صالح بن أحمد ابن حنبل، فيقول: سمعت أبي يقول: «سمعت الموطأ من الشافعي، لأنني رأيته فيه ثبتاً»[2]. ويقول عبد الله بن أحمد بن حنبل[3]: «كان أبي يصف الشافعي فيطنب في وصفه، وقد كتب عنه حديثاً كثيراً، وكتبت أنا من كتبه بخطه بعد موته عدة أحاديث مما سمعه منه»[4].

وكان أحمد بن حنبل يقول: «ما أحد مسّ محبرة وقلماً إلاّ وللشافعي في عنقه منة»[5].

---

(١) تهذيب الأسماء واللغات (١ : ٤٨).

(٢) توالي التأسيس (٥٧).

(٣) الشيباني أبو عبد الرحمن، حافظ، من أهل بغداد. له «الزوائد» على كتاب الزهد وزوائد المسند، توفي سنة ٢٩٠ هـ.

(٤) توالي التأسيس (٥٧).

(٥) توالي التأسيس (٥٧).

وما نقل عن الإمام أحمد[1] أنه استعاذ بالله أن يكون كتب الرسالة، ونفيه كتابة غيرها، وتهوينه من أمرها، ونهيه عن كتابتها، فهو نقل كاذب تافه، اختلقه بعض المتعصبين من الحشوية، ليصرفوا وجوه الناس عن فضل الشافعي الذي لولاه لم يكن لأحمد مذهب. والمستفيض عن أحمد بن حنبل غير ذلك، وأنه لم يُفد أحد من الشافعي ما أفاد أحمد، ولم يرو عنه أحدٌ ما روى عنه، ولكم نصح لغيره أن يكتب كتب الشافعي، وكان يقول: «ما أعلم أحداً أعظم منة على الإسلام في زمن الشافعي من الشافعي»[2].

وقال الفضيل بن زياد: قال أحمد بن حنبل: «هذا الذي ترون كله أو عامته من الشافعي، ما بتّ مدّة أربعين سنة إلا وأدعو الله للشافعي»[3] واسمع هذه الكلمة الرائعة البليغة التي قالها أحمد بن حنبل في قدر شيخه وإمامه الشافعي، فعن عبد الله بن أحمد بن حنبل قال: قلت لأبي: يا أبت، أي رجل كان الشافعي؟! سمعتك تكثر الدعاء له، فقال: «يا بُني، كان الشافعي كالشمس للدنيا، وكالعافية للبدن؛ فانظر، هل لهذين من خلف أو عوض»[4]؟.

وقد مرّ قبل قليل بعضٌ من كلام أحمد في فضل

(١) كما في طبقات الحنابلة، ومناقب ابن الجوزي.
(٢) (٣) تهذيب الأسماء واللغات (١ : ٦٠).
(٤) صفة الصفوة (٢ : ١٤٢).

الشافعي، وخاصة فضله على أرباب الحديث الذين كانوا رقدوا، فأيقظهم، كما قال الزعفراني، وكانت أقضيتهم بيد أصحاب الرأي حتى جاء الشافعي كما قال أحمد، ورحم الله محمد بن الحسن، كان يقول: «إن تكلَّم أصحاب الحديث يوماً فبلسان الشافعي»[1] يعني لما وضعه من كتبه.

بل كان بعض كبار العلماء لا يرى لأحمد بن حنبل مذهباً مستقلاً، إنما هو المذهب الشافعي، مع بعض اجتهاد فيه، ففي كتاب الحاكم: سمعت أبا بكر محمد بن علي ابن إسماعيل الفقيه الأديب الشاشي القفال، إمام عصره بما وراء النهر للشافعيِّين، يقول: دخلت على أبي بكر محمد بن إسحاق بن خزيمة أول ما قدمت نيسابور، وتكلمت بين يديه وأنا شاب حَدَث السن، فقال لي: إلى من اختلفت؟ قلت: إلى أبي الليث، قال: وأبو الليث هذا أي مذهب يعتقد؟ قلت: حنبلي، فقال: يا بني، قل شافعي، وهل كان أحمد بن حنبل إلاّ غلاماً من غلمان الشافعي[2]؟!.

وقال الزعفراني ـ راوي كتب الشافعي القديمة ـ: «ما ذهبت إلى الشافعي قط مجلساً، إلا وجدت أحمد بن حنبل فيه»[3].

بل كان شعار المحدِّثين وأشياعهم وفقهائهم، وذوي

---

(١) توالي التأسيس (٥٥) وتهذيب الأسماء (١ : ٥٠).

(٢) معجم الأدباء (١٧ : ٢٩٨).

(٣) تهذيب الأسماء واللغات (١ : ٦٠).

الملكة والمكانة فيهم: أن الشافعي أفقه من النخَعي شيخ شيوخ أصحاب الرأي وذويه، قال داود: «كنت عند أبي ثور، فدخل رجل فقال: يا أبا ثور، ما ترى هذه المصيبة النازلة بالناس؟! قال: ما هي؟ قال: يقولون: الثوري أفقه من الشافعي، فقال: سبحان الله العظيم! أو قالوها؟! قال: نعم، قال: نحن نقول: الشافعي أفقه من إبراهيم النخَعي وذويه، وجاءنا هذا بالثوري»[1]؟!.

تلاميذه في العراق

لقد خلّف الشافعي في العراق تلاميذ كثيرين، أشهرهم: أحمد بن خالد الخلال[2]، أحمد بن سنان القطّان[3]، أحمد بن سريج النهشلي[4]، أحمد بن حنبل[5]، أحمد بن

(١) تهذيب الأسماء واللغات (١: ٦٣).

(٢) قال الحاكم عن الخلال: كان من جلة الفقهاء والمحدثين، روى عن الشافعي وسفيان بن عيينة، وروى عنه الترمذي والنسائي، توفي سنة ٢٤٧ هـ.

(٣) القطان: هو أبو جعفر الواسطي، روى عن الشافعي ووكيع وعبد الرحمن بن مهدي، روى عنه البخاري ومسلم وأبو داود والنسائي وكثير غيرهم، كان إمام أهل زمانه، توفي سنة ٢٥٦.

(٤) النهشلي: هو أبو جعفر الرازي البغدادي، سمع شعيب بن حرب والشافعي ووكيعاً وجماعة، روى عنه البخاري والنسائي وأبو داود وغيرهم، قال النسائي: ثقة.

(٥) ستأتي ترجمته في أصل الكتاب.

يحيى بن عبد العزيز البغدادي[1] إسحـاق بن راهويـه[2]، الحارث بن سريج النقّال[3]، الحسن بن محمد بن الصباح الـزعفـراني، الحسين بن علي الكـرابيسي[4]، الحسين القـلاس[5]، سليمان بن داود[6]، القـاسم بن سلام أبـو عبيد[7]، وغير هؤلاء كثيرون. وكبار أصحابه الذين مرّ ذكرهم في رواية كتبه القديمة في العراق أربعة، ونتحدث عنهم هنا باختصار.

أولهم: أحمد بن حنبل، أحد الأئمة الأربعة، قال فيه الشافعي: «خرجت من بغداد، وما خلّفت فيها أفقهَ ولا أورع ولا أزهد ولا أعلم من أحمد» وكان يحفظ ـ كما يقول أبو

---

(١) هو أبو عبد الرحمن الشافعي المتكلم، قال الدار قطنى: كان من كبار أصحاب الشافعي الملازمين لـه في بغداد، ثم صـار من أصحاب ابن أبي دؤاد.

(٢) تقدمت ترجمته في الصحيفة ١١٤.

(٣) تقدمت ترجمته في الصحيفة ١١٩.

(٤) انظر ترجمتـه في صلب الكتاب في الصحيفة ١٤٥.

(٥) قال الشيخ أبو إسحاق: كان من علية أصحاب الحديث وحفاظ المذهب الشافعي.

(٦) روى عن الشافعي وغيره، وعن الشافعي: ما رأيت أعقل من هذين الرجلين: سليمان بن داود، وأحمد بن حنبل، توفي سنة ٢١٩ هـ.

(٧) الأديب الفقيه المحدث، سمـع الحديث من كثيـر، وتفقه على الشافعي وتناظر معه في القرء، توفي سنة ٢٢٤ هـ.

زرعة ـ ألف ألف حديث، وقال إبراهيم الحربي: رأيت أحمد كأن الله جمع له علم الأولين والآخرين، وقال قتيبة: إذا رأيت الرجل يحب أحمد فاعلم أنه صاحب سنة. تفقه على الشافعي، وهو الحاكي عنه أنه جوز بيع الباقِلاء في قشرته.

وسجنه المعتصم في محنة خلق القرآن ثمانية وعشرين شهراً، ثم لما ولي المتوكل أكرم الإمامَ أحمد، وتوفي سنة ٢٤١ هـ.

وثانيهم: الإمام الجليل، إبراهيم بن خالد بن أبي اليمان، أبو ثور، روى عن سفيان بن عيينة وابن علية والشافعي وعبد الرحمن بن مهدي ويزيد بن هارون وجماعة، وروى عنه مسلم خارج الصحيح وأبو داود وابن ماجه وأبو القاسم البغوي. سئل عنه أحمد بن حنبل: ما تقول في أبي ثور؟ قال: أعرفه بالسنة منذ خمسين سنة، وهو عندي في مسلاخ سفيان الثوري (والمسلاخ: الجلد. يريد: أنه في مستوى علمه وطريقته).

وقال ابن حبان[١]: كان أحد أئمة الدنيا: فقهاً وعلماً وورعاً وفضلاً وخيراً. توفي سنة ٢٣٧ هـ[٢].

---

(١) هو الحافظ أبو حاتم محمد بن حبان البستي، كان من فقهاء الدين، وحفاظ الآثار عالماً بالطب والنجوم، صنف المسند الصحيح، توفي سنة ٣٥٤ هـ.

(٢) هذه الترجمة ملخصة من كتاب طبقات الشافعية (٢ : ٧٤).

وثالثهم: الحسن بن محمد بن الصباح البغدادي، الإمام أبو علي الزعفراني، كان إماماً جليلاً، فقيهاً، محدِّثاً، فصيحاً، بليغاً، ثقةً، ثبتاً.

قال الماوردي[1]: هو أثبت رواة القديم.

وقد سمع بقراءته الكتب على الشافعي: أحمد وأبو ثور والكرابيسي.

سمع الزعفراني من سفيان بن عيينة، والشافعي، وعبيدة بن حميد[2]، وعبد الوهاب الثقفي[3]، ويزيد بن هارون[4]، وخلق.

---

(١) الماوردي: هو علي بن محمد بن حبيب، أقضى عصره، كان يميل إلى مذهب الاعتزال، شافعي المذهب، وله المكانة الرفيعة عند الخلفاء، وله كتب كثيرة؛ منها الأحكام السلطانية، توفي سنة ٤٥٠ هـ.

(٢) عبيدة بن حميد بن صهيب الكوفي؛ مؤدب الأمين العباسي، ومن حفاظ الحديث، توفي سنة ١٩٠ هـ.

(٣) هو عبد الوهاب بن عبد المجيد الثقفي، محدث البصرة، روى عن أيوب السختياني ومالك بن دينار. قال ابن ناصر الدين: هو ثبت متقن، توفي سنة ١٩٤ هـ.

(٤) هو يزيد بن هارون بن زاذان الواسطي، كان من الحفاظ الثقات، واسع العلم بالدين، ذكيّاً كبير الشأن، توفي سنة ٢٠٦ هـ.

روى عنه البخاري، وأبو داود[١]، والترمذي[٢]، والنسائي[٣]، وابن ماجه[٤].

توفي سنة ستين ومائتين في رمضان.

ورابعهم: الحسين بن علي بن يزيد، أبو علي الكرابيسي. كان إماما جليلاً، جامعاً بين الفقه والحديث، تفقه أولاً على فقه أهل الرأي، ثم تفقه للشافعي وسمع منه الحديث، ومن يزيد بن هارون وإسحاق الأزرق[٥] وغيرهم.

وكان أبو علي هذا من متكلمي أهل السنة، أستاذاً في

---

(١) أبو داود: هو سليمان بن الأشعث السجستاني، إمام الحديث في زمانه، له «السنن» وهو أحد الكتب الستة، توفي سنة ٢٧٥ هـ.

(٢) الترمذي: هو محمد بن عيسى السلمي، أبو عيسى، من أئمة علماء الحديث، من أهل ترمذ، تتلمذ للبخاري، عمي في آخر عمره، له الجامع الكبير، توفي سنة ٢٧٩ هـ.

(٣) النسائي: هو أحمد بن علي بن شعيب، أبو عبد الرحمن، صاحب السنن، القاضي الحافظ، استوطن مصر، ومات ببيت المقدس سنة ٣٠٣ هـ.

(٤) ابن ماجه: هو محمد بن يزيد الربعي القزويني، أحد الأئمة في علم الحديث، من أهل قزوين، له السنن، توفي سنة ٢٧٣ هـ.

(٥) إسحاق الأزرق: هو إسحاق بن يوسف بن يعقوب المخزومي، أبو محمد الأزرق، أحد الأعلام، عن شريك والثوري وخلق، وعنه أحمد وابن معين، قيل لأحمد: أثقة هو؟ قال: إي والله، مات سنة ١٩٥ هـ.

علم الكلام، كما هو أستاذ في الحديث والفقه، وإنما سمي الكرابيسي نسبة إلى الكرابيس، وهي الثياب الغليظة التي كان يبيعها، توفي سنة ٢٨٤ هـ.

هذه خلاصة لفترة إقامته ببغداد المرّة الثانية، وما كان له فيها من آثار، وما نشر من علم، وما أنجب من مجتهدين مطلقين: أحمد بن حنبل وأبي ثور، وغيرهما من فحول العلماء.

* * *

رحلته الثالثة إلى العراق

عرفنا من قبل أن الشافعي لبث في رحلته الثانية ببغداد نحو سنتين، أقام فيها مذهبه، وثبت فيها قواعده، وأسس من تلاميذه أركاناً، ينشرون علمه، ويناضلون عنه.

ثم قفل عائداً إلى مكة، فلزم حلقته، وبشر بمذهبه، وبث علمه، ونادى بأصوله وقواعده، ولم تطل إقامته في مكة حتى نزع به الحنين إلى بغداد.

فعاد إليها سنة ١٩٨ هـ، وقيل سنة ١٩٩، وأقام نحواً من ثمانية أشهر، وقيل: شهراً واحداً، قال الحسن بن محمد الزعفراني: «قدم علينا الشافعي سنة خمس وتسعين ومائة، فأقام عندنا سنتين، ثم خرج إلى مكة، ثم قدم علينا سنة ثمان وتسعين، فأقام عندنا أشهراً، ثم خرج إلى مصر»[1]. فلم تطل إذن إقامته في بغداد هذه المرة، وما كان قدومه ـ فيما يبدو ـ إلا ليتعهد دوحته العظيمة التي غرسها

---

(١) توالي التأسيس (٧٢).

في بغداد، وتفيأها العلماءُ والمحدِّثون، وكانت لهم أمناً من غلبة الرأي والهوى.

ولم يؤثَر عن الشافعي في هذه الرحلة الثالثة شيء جديد غير ما أسَّسه وأحكم أمرَه في رحلته الثانية.

وفي قدومه هذه المرة أراد تلميذه الحسين بن علي الكرابيسي أن يقرأ عليه كتبه، فقال له: أتأذن لي أن أقرأ عليك الكتب؟ فأبى، وقال: خذ كتب الزعفراني فقد أجزتها لك، قال: فأخذتها إجازة.

* * *

رحلته إلى مصر

- سبب هذه الرحلة.
- هذه الرحلة لا تقل قيمة عن رحلته الثانية إلى العراق.
- ما أدخلته هذه الرحلة على مذهبه.
- إقبال الناس عليه وشهادات العلماء به.
- موقفه من مذهب مالك.
- حلقته في مصر وتنوعها في العلوم.
- تلاميذه في مصر.
- خليفته في حلقته في مصر.
- راوية كتبه.
- رباطه في ثغر الإسكندرية.

رحلته إلى مصر[1]

سبب هذه الرحلة:

رجع الشافعي إلى مكة بعد رحلته الثالثة إلى بغداد سنة ثمان وتسعين، وأقام فيها فترة قصيرة، إلى أن هيأ الله له الخروج إلى مصر.

والسبب في قدومه إلى مصر: أن العباس بن عبد الله بن العباس بن موسى بن عبد الله بن عباس استصحبه، فصحبه[1] ـ وكان العباس هذا خليفة لأبيه عبد الله على مصر ـ واختلفوا في السنة التي قدم بها إلى مصر، والأكثر أنها سنة تسع وتسعين ومائة[2]، كما قال حرملة بن يحيى، وقيل[3]: سنة مائتين كما قال الربيع بن سليمان. ويقول النووي: ولعله قدم في آخر سنة تسع وتسعين جمعاً بين

---

(1) معجم الأدباء (١٧: ٣٢١).

(2) كما في تهذيب الأسماء واللغات (١: ٤٨) والمجموع (١: ١٦) ووفيات الأعيان (١: ٥٦٦).

(3) الانتقاء هامش (٦٧).

الروايتين[1]، وقيل: إحدى ومائتين[2].

ونزل على أخواله من الأزد؛ روي عن ياسين بن عبد الأحد، قال: لما قدم الشافعي مصر أتاه جدي، وأنا معه، فسأله أن ينزل عليه فأبى، وقال: إني أريد أن أنزل على أخوالي الأزد[3].

وقيل نزل على عبد الله بن عبد الحكم، ولعله نزل أولاً على الأزد ثم دعاه إلى النزول عنده عبدالله بن عبدالحكم فاستجاب له، ففي سيرة عمر بن عبدالعزيز، في ترجمة عبدالله بن عبدالحكم راوي الكتاب: كان عبدالله بن عبد الحكم صديقاً للإمام الشافعي، وعليه نزل حين قدومه إلى مصر، فأحسن إليه، وأكرم مثواه، وبلغ الغاية في بره، وأعطاه من ماله ألف دينار، وأخذ له من ابن عمِّه التاجر ألف دينار، ومن رجلين آخرين من أصحابه ألف دينار، وكتب كتبه لنفسه وابنه، وضم ابنه محمداً إليه، ولم يزل على إلطافه وإكرامه إلى أن توفي الإمام الشافعي رضي الله عنه عنده، فدفنه في تربتهم المعروفة حينئذٍ بتربة بني عبد الحكم[4].

---

(١) تهذيب الأسماء واللغات (١: ٥٦٦).

(٢) وفيات الأعيان (١: ٥٦٦).

(٣) توالي التأسيس (٧٧).

(٤) سيرة عمر بن عبدالعزيز، تحقيق أحمد عبيد (ص ١٩).

هذه الرحلة لا تقل قيمة عن رحلته الثانية إلى العراق:

ولئن كانت رحلة الشافعي الثانية إلى العراق أخصب رحلاته وأنفعها، إن رحلته إلى مصر لا تقل عنها، إن لم تكن أجدى وأغزر وأبقى، ولكن الفضل للمتقدم. ففي العراق ظهر له في أصوله كتاب «الرسالة» وفي الفروع وأدلتها، والمناظرات حولها، ألف كتاب «الحجة». فلما جاء مصر أعاد النظر في الرسالة فجدّد تأليفها، والرسالة التي بأيدي الناس هي الرسالة المؤلفة في مصر، وسيأتي بحثها، كما أعاد النظر في كتاب الحجة، فألف بدله كتاب «الأم» وهو مجموع لكتب كثيرة جديدة ألفها الشافعي في مصر، وهو المعروف والمشهور في أيامنا. وإذا قيل في المذهب الشافعي: (القديم) فإنما يراد به أقواله في العراق المجموعة في كتابه (الحجة) وإذا قيل (الجديد) فيراد به أقواله في مصر المجموعة في كتاب (الأم) وابتكر كتباً ـ كما يقول النووي: ـ لم يسبق إليها، منها: أصول الفقه، كتاب القسامة، كتاب الجزية، كتاب قتال أهل البغي وغيرها.

ما أدخلته هذه الرحلة على مذهبه:

وليس صحيحاً أنه بدّل جميع أقواله أو أكثرها، وإنما بدل بعضها، وليس عليه في ذلك جناح، فالعالم المجتهد المتجرد لطلب الحق يدور مع الحق حيث دار، ومن الطبيعي

لإمام مثل الشافعي، له ذكاؤه وعقله وفهمه، وله الثروة الضخمة من الأدلة وأقوال الصحابة ومن بعدهم وفتاوى العلماء وأدلة أولئك وهؤلاء - أن يقارن ويوازن، ويهمل رأياً كان يراه، ويعود إلى ما لم يكن يراه، أو يأتي برأي جديد. وليس الشافعي في هذا بدعاً من المجتهدين، فالأئمة الثلاثة: أبو حنيفة ومالك وأحمد، وغيرهم، كثيراً ما رأوا رأياً، فثبت لديهم غيره بالأثر أو النظر، فرجعوا عن الأول، وكثيراً ما ينقل رواة المذهب روايتين أو أكثر في مسألة واحدة عن إمامهم.

إقبال الناس عليه وشهادات العلماء به:

وحين قدم الشافعي مصر، كان السائد فيها مذهب مالك، والقليل من العلماء على مذهب أبي حنيفة، فما لبث أن أقبل عليه الناس، فاستمعوا إليه، وأحبوه، وافتتنوا به. يقول هارون بن سعيد الأيلي[1]:

«ما رأيت مثل الشافعي، قدم علينا مصر، فقيل: قدم رجل من قريش، فجئناه وهو يصلي، فما رأينا أحسن صلاة منه، ولا أحسن وجهاً، فلما تكلم ما رأيناه أحسن كلاماً منه، فافتتنا به»[2].

---

(١) هارون بن سعيد بن الهيثم التميمي السعدي مولاهم، روى عن ابن وهب وأنس بن عياض وطائفة، وعنه مسلم وأبو داود والنسائي ووثقه، توفي سنة ٢٥٣ هـ.

(٢) توالي التأسيس (٥٩).

ثم ما زال فيهم ينشر أصـوله وآراءه وفقهـه، ويستنبط الأحكام ويؤيدها بالأدلة؛ حتى اجتمع الناس عليه وأخذوا بقوله، وتمذهبوا بمذهبه، وأمه العلماء فكتبوا عنه، وتحولوا إلى اجتهاده. والمنصفون من المخالفين لمذهبه شهدوا له بالعلم وبراعة الاستنباط، فهذا عبد الله بن عبد الحكم[١] شيخ المالكية في مصر يقول: «ما رأيت مثل الشافعي، وما رأيت رجلاً أحسن استنباطاً منه»[٢].

وقال ابنه محمد بن عبد الله بن عبد الحكم: قال لي أبي: «يا بني، الزم هذا الرجل، فما رأيت أبصر منه بأصول الفقه، أو قال: بأصول العلم»[٣]. ولقد لزمه بالفعل، وسابق العلماء إليه، وتربّى على يديه، فنما به عوده، وقويت حجته[٤]، وقال في ذلك: «لولا الشافعي ما عرفت كيف أرد على أحد، وبه عرفت ما عرفت، وهو الذي علمني القياس رحمه الله، فقد كان صاحب سنة وأثر وفضل وخير؛ مع لسان فصيح طويل، وعقل صحيح رصين»[٥].

وقال فيه أيضاً: «ليس فلان عندنا بفقيه لأنه يجمع أقوال

---

(١) عبد الله بن عبد الحكم بن أعين، من جلّة أصحاب مالك، انتهت إليه الرياسة بمصر بعد أشهب، توفي في القاهرة سنة ٢١٤ هـ.

(٢) تهذيب الأسماء واللغات (١: ٦١).

(٣) توالي التأسيس (٥٦).

(٤) وبعد وفاة الشافعي ترك مذهبه ورجع إلى مذهب مالك كما سيأتي.

(٥) الانتقاء (٧٣).

الناس ويختار بعضها، قيل: فمن الفقيه؟ قال: الذي يستنبط أصلاً من كتاب أو سنة لم يسبق إليه، ثم يشعِّب في ذلك الأصل مائة شعب. قيل: فمن يقوى على هذا؟ قال محمد بن إدريس»[1].

وقال علي بن معبد المصري[2]: «ما عرفنا الحديث حتى جاءنا الشافعي»[3].

ولقد شاع ذكره، وملأ البقاع، وقصد من كل قطر للتفقيه عليه، والرواية عنه، وسماع كتبه منه، يقول النووي: «وسار ذكره في البلدان، وقصده الناس من الشام واليمن والعراق وسائر النواحي والأقطار؛ للتفقه عليه، والرواية عنه، وسماع كتبه منه، وأخذها عنه، وساد أهل مصر وغيرهم»[4].

وقال الحميدي: «لما خرج الشافعي من مكة إلى مصر، وفاتنا بنفسه؛ خرجنا خلفه إلى مصر»[5].

وقال أحمد بن حنبل لمحمد بن مسلم بن وارة[6] حين قدم

---

(١) تهذيب الأسماء واللغات (١ : ٦٢).

(٢) هو: علي بن معبد بن نوح البغدادي، نزيل مصر، روى عنه النسائي، وقال العجلي: ثقة. مات سنة ٢٥٩ هـ.

(٣) تهذيب الأسماء واللغات (١ : ٦٢).

(٤) تهذيب الأسماء واللغات (١ : ٤٨).

(٥) الانتقاء (٨٩).

(٦) هو محمد بن مسلم بن عثمان الرازي الحافظ، روى عنه النسائي =

من مصر: «كتبت كتب الشافعي؟ قال: لا، قال: فرطت»[1].

وعن محمد بن مسلم بن وارة الرازي قال:

«سألت أحمد بن حنبل، قلت: ما ترى لي من الكتب أن أنظر فيه ليفتح لي الآثار: رأيَ مالك، أو الثوري[2]، أو الأوزاعي[3]؟ فقال لي قولاً أجلهم أن أذكره لك. وقال: عليك بالشافعي فإنه أكثرهم صواباً، أو أتبعهم للآثار «الشك مني».

وقلت لأحمد: فما ترى في كتب الشافعي، التي عند العراقيين أحب إليك؟ أو التي بمصر؟ قال: عليك بالكتب التي وضعها بمصر؛ فإنه وضع هذه الكتب بالعراق، ولم يحكمها، ثم رجع إلى مصر، فأحكم تلك الكتب.

فلما سمعت ذلك من أحمد بن حنبل ـ وكنت قبل ذلك ـ قد عزمت على الخروج إلى البلد، وتحدث الناس بذلك ـ

= ووثقه، توفي سنة ٢٧٠ هـ.

(١) تهذيب الأسماء واللغات (١: ٦١).

(٢) هو: سفيان بن سعيد بن مسروق الثوري، أبو عبد الله، أمير المؤمنين في الحديث، كان سيد أهل زمانه، ولد ونشأ في الكوفة، راوده المنصور على أن يلي الحكم، فأبى وسكن مكة والمدينة، ثم طلبه المهدي فتوارى، وانتقل إلى البصرة، فمات فيها مستخفياً سنة ١٦١ هـ.

(٣) هو: عبد الرحمن بن عمرو بن يحمد الأوزاعي، من قبيلة الأوزاع،

تركت ذلك، وعزمت على الرجوع إلى مصر»[1].

موقفه من مذهب مالك

لقد بلغ الإقبال على الشافعي ذروته، من البلاد عامة ومن مصر خاصة، فماذا كان موقف المالكيين من الشافعي؟ وهم الكثرة من فقهاء مصر، أو نقول: ما هو موقف الشافعي من مذهب مالك السائد في مصر؟

نحن نعلم أن الشافعي ما عَظُم في نفسه أحد من شيوخه كما عظم الإمام مالك، وبعده سفيان بن عيينة، ولا يرى لأحد عليه منة مثل ما لمالك، وكان يقول معترفاً بفضله: «مالك بن أنس معلمي، منه تعلمنا العلم، وإذا ذكر العلماء فمالك النجم، وما أحد أمنَّ عليّ من مالك، وعنه أخذت العلم»[2] وقال: «إنما أنا غلام من غلمان مالك»[3] وقال: «جعلت مالكاً حجة فيما بيني وبين الله». وقد تقدم بعض ذلك. والشافعي في بغداد خالف أصحاب الرأي وناظر أئمتهم، وألف في نقض كتبهم، ولكن موقفه من مالك كان موقف التلميذ المجل، ويقال: إن أقوال الشافعي القديمة

= إمام الديار الشامية في الفقه والزهد، ولد في بعلبك، وسكن بيروت، وتوفي بها سنة ١٥٧ هـ.

(١) آداب الشافعي ومناقبه (٦٠).

(٢) (٣) (٤) ترتيب المدارك (٣٨٥).

كلها مذهب مالك[1]. وفي هذا مبالغة لا شك فيها، فالشافعي في بغداد كان مجتهداً مطلقاً، لا يتقيد بقول أحد، لكنه لم يصرح بمخالفة الإمام مالك.

فلما قدم مصر، ورأى من أتباع مالك أنه لا يقنعهم إلاّ قوله؛ وإن وهنت في بعض قوله الحجة؛ صرح بمخالفته، ورد على المالكية، وكان يقول: «قدمت مصر، ولا أعرف أن مالكاً يخالف من أحاديثه إلاّ ستة عشر حديثاً، فنظرت، فإذا هو يقول بالأصل ويدع الفرع، ويقول بالفرع ويدع الأصل»[2].

وقال محمد بن عبد الحكم: «لم يزل الشافعي يقول بقول مالك، ولا يخالفه إلا كما يخالف بعض أصحابه، حتى أكثر فتيان[3] عليه، فحمله ذلك على ما وضعه على مالك، وإلاّ فإنه كان ـ الدهر كله ـ إذا سئل عن الشيء قال: هذا قول الأستاذ»[4].

---

(١) الوافي بالوفيات.
(٢) توالي التأسيس (٧٦).
(٣) هو: فتيان بن أبي السمح ـ واسمه عبد الله بن أبي السمح ـ أبو الخيار، كان من كبراء أصحاب مالك المتعصبين لمذهبه، وكان بينه وبين الشافعي مناظرة، وكانت فيه عجلة، وإغلاظ بالقول، ولعصبيته لمالك وإفراطه فيها، نشأت العداوة بين المالكيّين والشافعيين بمصر، توفي سنة ٢٠٥ هـ.
(٤) ترتيب المدارك (٣٨٥).

وقيل: إنه قال[1]: «إنما رجعت إلى أقوالي الجديدة، لأني لما دخلت مصر، بلغني أن بالمغرب قلنسوة من قلانس مالك يستسقى بها الغيث، فخفت أن يتمادى الزمان، ويعتقد فيه ما اعتقد في المسيح، فأظهرت خلافه؛ ليعلم الناس أنه إمام مجتهد، يخطىء ويصيب»[2]. وكان يقول: «استخرت الله تعالى في ذلك سنة». والحق أن الشافعي لم يخالف شيخه مالكاً لهذا السبب أو لذاك، وإنما خالفه وألف في نقض بعض أقواله كتاباً، سعياً وراء الحق، واتباعاً للحجة الأقوى والدليل الأوضح، ولكن أخشى ما كان يخشاه المالكية أن يسيطر الشافعي ببيانه وحجته وفقهه على مصر، وينشر فيها مذهبه، وبذلك يقضي فيها على مذهب مالك. وهذا الذي أغاظ تصوره أشهب[3] ـ وهو من كبار شيوخ المالكية في مصر ـ فجعل يدعو على الشافعي في سجوده، ويقول:

---

(١) الوافي بالوفيات (١ : ١٧٧).

(٢) فانظر ـ رحمك الله ـ إلى هذا المقصد العظيم، الذي خشي فيه الشافعي من أن تمس فيه جوهرة التوحيد، وأن تتحول من الإيمان بالله وحده وأنه بيده الأمر كله، إلى الإيمان بالأشخاص، ولو كان أئمة يقتدي الناس بهم.

(٣) هو: أشهب بن عبد العزيز بن داود القيسي العامري، فقيه الديار المصرية في عصره. وكان صاحب الإمام مالك، قال الشافعي: ما أخرجت مصر أفقه من أشهب، لولا طيش فيه، مات بمصر سنة ٢٠٤ هـ.

«اللهم أمت الشافعي وإلا ذهب علم مالك»[1] فبلغ ذلك الشافعي فأنشأ يقول:

تمنّى رجال أن أموت وإن أمت
فتلك سبيل لست فيها بأوحد
فقل للذي يبغي خلاف الذي مضى:
تهيأ لأخرى مثلها فكأنْ قدِ

فمات الشافعي، واشترى أشهب من تركته غلاماً طباخاً فمات بعده بثمانية عشر يوماً.

وغيظ أشهب الذي جعله يدعو في سجوده على الشافعي، كاف في الدلالة على بالغ تأثير الشافعي حتى على المالكيين بما أوتي من علم وبرهان وبيان، ملك بها على الناس عقولهم، وشغلهم بفقهه عن فقه غيره.

قال الربيع: وسألني ـ أي الشافعي ـ عن أهل مصر ـ أي قبل أن يدخل مصر ـ فقلت: هم فرقتان: فرقة مالت إلى قول مالك وناضلت عليه، وفرقة مالت إلى قول أبي حنيفة وناضلت عليه، فقال: أرجو أن أقدم مصر إن شاء الله، فآتيهم بشيء أشغلهم به عن القولين جميعاً. قال الربيع: ففعل ذلك ـ والله ـ حين دخل مصر.

---

(١) ترتيب المدارك (٤٥٣).

وما يدري إلا الله ماذا يكون لو أن الله أطال في عمر الشافعي أكثر من أربع سنوات في مصر؟

ويجب أن نوقن أن ليست غاية الشافعي إشغالَ الناس عن القولين جميعاً، وإنما الغاية أن يسير بـالناس في طـريق واضحة المعالم، قوية الدلائل؛ ولهذا كله سكت المالكيون عنه ما دام لم يصرح بمخالفة مالك فلما ألف بمخالفته ونقض أقواله، سعوا به عند السلطان، وقالوا له: أخرجه عنا، وإلا افتتن البلد، فهمَّ بذلك، فأتاه الشافعي والهاشميون، فكلموه فامتنع[1]، وقال: إن هؤلاء كرهوه، وأخشى الفتنة، فقال له الشافعي: أجلني ثلاثة أيام، فأجله ثلاثة أيام، فمات الوالي فجأة في الليلة الثالثة، وكفي الشافعي أمره، فأقام الشافعي إلى أن مات[2].

ولم يكف المالكيون عن السعي بأصحاب الشافعي عند السلطان حتى بعد موته. يقول البويطي:

«لما مات الشافعي اجتمعنا[3] في موضعه جماعة من أصحابه، فجعل أصحاب مالك يسعون بنا عند السلطان،

(١) أي أصر على إخراجه.
(٢) توالي التأسيس (٨٤) هذا هو الصواب: الوالي هو الذي توفي، في غضون الأجل لا الشافعي، كما ذكر ذلك كتاب ترتيب المدارك في ترجمة فتيان.
(٣) هكذا في الأصل، ولعلها: اجتمع في موضعه جماعة من أصحابه.

حتى بقيت أنا ومولى للشافعي، ثم صرنا بعد نجتمع ونتألف، ثم يسعون علينا حتى نفترق، فلقد غرمت نحواً من ألف دينار، حتى تراجع أصحابنا وتألفنا»[1].

حلقته في مصر وتنوعها في العلوم

كان الشافعي يصلي الفجر في المسجد، ثم ينصرف إلى مجلسه فيه، ويختلف إليه التلاميذ من كل صنف! وتعقد بهم الحلقة من حوله، يبدؤه أهل القرآن، فإذا طلعت الشمس جاء أهل الحديث، وهكذا لا يزالون هم وأهل النظر والعربية إلى قرب انتصاف النهار، ثم ينصرف، كما حدّث بذلك الربيع بن سليمان قال:

«كان الشافعي ـ رحمه الله ـ يجلس في حلقته إذا صلى الصبح، فيجيئه أهل القرآن، فإذا طلعت الشمس قاموا وجاء أهل الحديث، فيسألونه تفسيره ومعانيه، فإذا ارتفعت الشمس قاموا، فاستوت الحلقة للمذاكرة والنظر، فإذا ارتفع الضحى تفرقوا، وجاء أهل العربية والعروض والنحو والشعر، فلا يزالون إلى قرب انتصاف النهار، ثم ينصرف رضي الله عنه»[2].

وقال ابن عبد الحكم: «ما رأينا مثل الشافعي، فإن

---

(١) توالي التأسيس (٨٤).
(٢) معجم الأدباء (١٧ : ٣٠٤).

أصحاب الحديث ونقاده يجيئون إليه فيعرضون عليه، فربما أعلّ نقد النقاد منهم ووقفهم على غوامض من نقل الحديث لم يقفوا عليها، فيقومون وهم يتعجبون، ويأتيه أصحاب الفقه المخالفون والموافقون، فلا يقومون إلّا وهم مذعنون له بالحِذق والدراية، ويجيئه أصحاب الأدب فيقرؤون عليه الشعر فيفسره، ولقد كان يحفظ عشرة آلاف بيت من شعر هذيل بإعرابها وغريبها ومعانيها، وكان من أضبط الناس للتاريخ، وكان يعينه شيئان: وفور عقل، وصحة ذِهْن، وملاك أمره: إخلاص العمل لله»[1].

وقال الكرابيسي: «ما رأيت مجلساً قط أنبل من مجلس الشافعي، كان يحضره أهل الحديث وأهل الفقه وأهل الشعر، وكان يأتيه كبار أهل اللغة والشعر، فكل يتكلم منه»[2].

تلاميذُهُ في مِصرَ

المنتفِعون بعلم الشافعي لا يحصى عددهم، فإنه لا يكاد يوجد في مصر مكانٌ لم يدخله علم الشافعي، ولكن الذين لازموه فأخذوا فقهه وذهبوا مذهبه، وارتضوا طريقته مشهورون، ذكرهم علماء الرجال والمؤرخون والمترجمون،

(١) توالي التأسيس (٥٩).

(٢) تهذيب الأسماء واللغات (١ : ٦١).

والمشتغلون بالطبقات، وأتى على ذكرهم كثير من كتب الفقه في معرض الخلاف والرواية.

ونذكر منهم هنا أربعة: البويطي، والمزني، والربيع المرادي، ومحمد بن عبد الله بن عبد الحكم، فلكل منهم شأن ينبغي أن يذكر به في حياة الشافعي.

قال الربيع بن سليمان: «دخلنا على الشافعي رضي الله عنه عند وفاته، أنا والبويطي والمزني ومحمد بن عبد الله بن عبد الحكم، قال: فنظر إلينا الشافعي ساعة، فأطال، ثم التفت إلينا، فقال: «أما أنت يا أبا يعقوب فستموت في حديد لك، وأما أنت يا مزني فسيكون لك بمصر هَنات وهنَات، ولتدركنَّ زماناً تكون أقيس أهل ذلك الزمان، وأما أنت يا محمد فسترجع إلى مذهب أبيك، وأما أنت يا ربيع، فأنت أنفعهم لي في نشر الكتب، قم يا أبا يعقوب فتسلم الحلقة» قال الربيع: فكان كما قال[1].

فأما البويطي: فهو[2] أبو يعقوب يوسف بن يحيى، من بويط من صعيد مصر، وهو أكبر أصحاب الشافعي المصريين، كان إماماً جليلاً، عابداً زاهداً، فقيهاً عظيماً، مناظراً، جليلاً من جبال العلم والدين، تفقه على الشافعي،

---

(١) طبقات الشافعية لابن السبكي (٢ : ٩٤).
(٢) لخصنا هذه التراجم للأربعة من طبقات الشافعية لابن السبكي.

واختص بصحبته، قال أبو عاصم: كان الشافعي رضي الله عنه يعتمد البويطي في الفتيا، قال: واستخلفه على أصحابه بعد موته[1]، فتخـرج على يديه أئمة تفرقوا في البلاد، ونشروا علم الشافعي في الآفاق.

وقال الربيع: كان أبو يعقوب من الشافعي بمكان مكين، وكان الرجل ربما يسأله عن المسألة، فيقـول: «سل أبـا يعقوب» فإذا أجاب أخبره، فيقول: هو كما قال، وله من الكتب «المختصر» اختصره من كلام الشافعي رضي الله عنه، قال أبو عاصم: هو في غاية الحسن، وأصيب بمحنة هلك بها وهو في السجن، إذ سعى به من يحسده، وكتب فيه إلى ابن أبي دؤاد بالعراق، فكتب إلى والي مصر أن يمتحنه، - أي بالقول بخلق القرآن - فامتحنه فلم يجب، وكان الوالي حسن الرأي فيه، فقال له: فيما بيني وبينك، قال: إنه يقتدي بي مائة ألف، ولا يدرون المعنى، وأمر أن يحمل إلى بغداد في أربعين رطل حديـد، ومات في سجن بغداد في القيد والغل سنة إحدى وثلاثين ومائتين.

وأما المزني: فهو أبو إبراهيم إسماعيل بن يحيى، ناصر المذهب، وبدر سمائه، وكان جبل علم، مناظراً، محجاجاً، قال الشافعي رضي الله عنه في وصفه: «لو ناظره الشيطان لغلبه» وكان زاهداً ورعاً، متقللاً من الدنيا، وقال الشافعي:

---

(١) ستأتي قصة استخلافه، وما أصابه بسببها بعنوان مستقل.

«المزني ناصر مذهبي».

صنف كتباً كثيرة منها «الجامع الكبير» «الجامع الصغير» «المختصر» «المنثور» «المسائل المعتبرة» وغيرها.

أخذ عن المزني خلائق من علماء خراسان والعراق والشام، وتوفي لست بقين من رمضان سنة أربع وستين ومائتين.

وأما الربيع: فهو أبو محمد الربيع بن سليمان المرادي مولاهم، المؤذن، ولد سنة أربع وسبعين ومائة، واتصل بخدمة الشافعي، وحمل عنه الكثير وحدّث عنه به، وكان ثقة ثبتاً فيما يرويه، وكان مؤذناً بالمسجد الجامع بفسطاط مصر، المعروف بجامع عمرو بن العاص، وكان الشافعي يحبه، وهو راوية كتبه، توفي لعشرين ليلة خلت من شوال سنة سبعين ومائتين.

وأما ابن عبد الحكم: فهو أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن عبد الحكم، ولد سنة اثنتين وثمانين ومائة، على أبيه نزل الشافعي حين أتى مصر، وكان عالماً جليلاً وجيهاً، من شيوخ المالكية في مصر، وألحق ابنه محمداً بالشافعي ليتفقه به، ولكنه ترك المذهب، وعاد إلى مالكيته بسبب خلاف مع البويطي فيمن يخلف الشافعي، وسيأتي بحث ذلك فيمن يخلفه، وتوفي في النصف من ذي القعدة سنة ثمان وستين ومائتين.

خَلِيفَتُهُ في حَلقتِـه في مِصر

خلَف الشافعي في مصر تلاميذ بلغ بعضهم من العلم مبلغ الإمامة، وخصوصاً الأربعة الذين سبق ذكرهم، وكل واحد من أولئك يستحق أن يكون خليفته، ولكن الشافعي كان يخصّ أبا يعقوب البويطي بمزيد من العناية والثقة، ويعتمده في الفتيا، ويحيل عليه إذا جاءته مسألة، وكان منه بمكان مكين، قال الربيع: وربما جاء إلى الشافعي رسول صاحب الشرطة يستفتيه، فيوجه الشافعي أبا يعقوب البويطي، ويقول: «هذا لساني» فلما مرض الشافعي مرض موته، أراد أن يكون له وللمذهب خليفة، يعلم الناس، وينشر المذهب، ويدافع عنه، فوجه إلى الحلقة زميله وتلميذه المكي أبا بكر الحميدي، ليعلن أن: «الحلقة لأبي يعقوب البويطي، فمن شاء فليجلس، ومن شاء فليذهب»[1] وعن الربيع: أن البويطي وابن عبد الحكم تنازعا الحلقة في مرض الشافعي، فأخبر بذلك، فقال: «الحلقة للبويطي»[2].

ولم تمر خلافة البويطي حلقة الشافعي بسلام، فقد أعقبت تنازعاً ووحشة بينه وبين ابن عبدالحكم بعد موت الشافعي، فابن عبدالحكم الذي فاق أقرانه ذكاءً وعلماً ووجاهة وغنى، والذي كان أبوه أنزل الشافعي عنده، وأكرمه ومنحه حبه واحترامه ـ

---

(١) توالي التأسيس (٨٤).

(٢) طبقات الشافعية (٢: ١٦٤).

يرى أنه أحق بخلافة الشافعي من كل من سواه. حدّث أبو جعفر السكري قال: تنازع ابن عبد الحكم والبويطي مجلس الشافعي، فقال البويطي: أنا أحق به منك، وقال الآخر: كذلك، فجاء الحميدي ـ وكان تلك الأيام بمصر ـ فقال: قال الشافعي: «ليس أحد أحق بمجلسي من يوسف ـ يعني البويطي ـ وليس أحد من أصحابي أعلم منه».

فقال له ابن عبد الحكم: كذبت
قال له: كذبت أنت وأبوك وأمك.

وغضب ابن عبد الحكم، وجلس البويطي في مجلس الشافعي، وجلس ابن عبد الحكم في الطاق الثالث[1].

ولم يلبث أن ترك المذهب الشافعي، وعاد إلى مذهب مالك مذهب أبيه، ثم انتهت به الحال إلى أن صنف كتاباً سماه «الرد على الشافعي فيما خالف فيه الكتاب والسنة» ولئن كان له أن يرد على من شاء إذا رأى أنه أخطأ، ما كان له أن يسمي كتابه هذه التسمية القبيحة، والشافعي أستاذه، ومنه تعلم القياس والحجة والدليل ومجادلة المخالفين.

أعلمه الرماية كل يوم
فلما اشتدَّ ساعده رماني
وكم علمته نظم القوافي
فلما قال قافية هجاني

---

(١) طبقات الشافعية (٢: ١٦٣) والطاق: ما عطف من الأبنية.

ولقد نالته بعد هذا التصنيف محنة صعبة في دعوته إلى القول بخلق القرآن، ولم تدعه إلّا بشر عظيم[1].

ولكم كان الشافعي حكيماً باستخلافه البويطي، فقد تخرجت على يديه أئمة تفرقوا في البلاد، ونشروا علم الشافعي في الآفاق.

رَاوِيَةُ كُتُبِهِ

أجمع أصحاب الشافعي ـ رحمه الله ـ على أن أوثق من روى كتب الشافعي صاحبه وخادمه الربيع بن سليمان المرادي المؤذن[2]، حتى لقد تعارض هو وأبو إبراهيم المزني في رواية، فقدَّم الأصحاب روايته، مع علو قدر أبي إبراهيم علماً وديناً، وموافقة ما رواه للقواعد[3].

قال يحيى بن معين[4]ـ وقد سئل عمن يكتب كتب الشافعي فقال: الربيع.

(١) اقرأ ـ إن شئت ـ هذه المحنة في كتاب ترتيب المدارك للقاضي عياض.

(٢) سلف الحديث عنه في تلاميذ الشافعي في الصحيفة ١٥١.

(٣) طبقات الشافعية (٢ : ١٣٢).

(٤) هو: يحيى ين معين بن عون: من أئمة الحديث، نعته الذهبي بسيد الحفاظ، وقال العسقلاني: إمام الجرح والتعديل، توفي سنة ٢٣٣ هـ.

ولهذه الثقة التي نالها كانت الرحلة في كتب الشافعي إليه من الآفاق. يقول محمد بن أحمد بن سفيان الطرائفي البغدادي[1]: حضرت الربيع بن سليمان يوماً، وقد حط على باب داره تسعمائه راحلة في سماع كتب الشافعي، رحمه الله ورضي عنه[2].

وقد صدقت فيه نبوءة الشافعي، حيث قال له فيما روي عنه: «أنت راوية كتبي».

ورغم ما فيه من سلامة صدر وغفلة، فإنه باتفاقهم: ثقة، ثبت، خرج له إمام الأئمة ابن خزيمة في صحيحه، وكذلك ابن حبان، والحاكم[3].

قال ابن أبي حاتم: سمعنا منه، وهو صدوق، وسئل أبي عنه، فقال: صدوق[3].

وقال الخليل في «الإرشاد»: ثقة متفق عليه[3].

رِبَاطُهُ فِي ثَغْرِ الإِسْكَنْدَرِيَّة

سنّة العلماء العاملين، والأئمة المقتدى بهم، أن يبادروا

---

(١) هو: محمد بن أحمد الطرائفي، روى عن الحسن بن عرفة ومحمد ابن عبد الملك زنجويه، وروى جميع كتب الشافعي عن الربيع بن سليمان، الأم وغيره، وكان فاضلاً خيراً.

(٢) تهذيب الأسماء واللغات (١ : ٤٨).

(٣) طبقات الشافعية (٢ : ١٣٤).

قبل غيرهم إلى القيام بفروض الكفاية، ومن هذه: المرابطة في الثغور ـ وهي المواضع التي يخاف هجوم العدو منها على بلد مسلم ـ والمرابطة: جهاد في سبيل الله إن لم يكن جهاد، ويشعر المؤمن أن الجهاد فريضة لا يجوز أن يتوانى عنها، لذلك كانت المرابطة في سبيل الله شعار العلماء والأتقياء والأولياء والصالحين. وقد أدى هذه الفريضة ـ كما أداها قبله كثير من أحبار الأمة ـ الإمام الشافعي، فقد خرج إلى الإسكندرية مرابطاً مع ما فيه من سقم وضعف. يقول الربيع: «خرجت مع الشافعي من الفسطاط إلى الإسكندرية مرابطاً، فكان يصلي الصلوات الخمس في المسجد الجامع، ثم يصير إلى المحرس، فيستقبل البحر بوجهه، وهو جالس يقرأ القرآن، حتى أحصيت عليه في يوم وليلة ستين ختمة في شهر رمضان»[١].

* * *

---

(١) توالي التأسيس (٥٩).

مَرَضُ الشّافِعيّ ﷺ وَوَفاته

- علته التي مات بها.
- في حال احتضاره.
- تاريخ وفاته.
- قصة طريفة في محاولة نقل جثمانه.
- حزن الناس على وفاته.
- رؤى الناس في حقه.

مَرَضُ الشَّافِعيِّ وَوَفَاته

علّته التي مات بها:

ظهرت علّة البواسير في الشافعي ـ رحمه الله ـ وهو بمصر، وكان يظن أن هذه العلة إنما نشأت بسبب استعماله اللُّبان[1] ـ وكان يستعمله للحفظ ـ يقول الشافعي: «استعملت اللبان للحفظ فأعقبني صب الدم سنة»[2]، وبسبب هذه العلّة ما انقطع عنه النزيف، وربما ركب فسال الدم من عقبيه. وكان لا يبرح الطست تحته وفيه لبدة محشوة، وما لقي أحد من السقم ما لقي[3]، فالنزيف أنهكه وأعنته، قال يونس بن عبد الأعلى: «ما رأيت أحداً لقي من السقم ما لقي الشافعي»[4] والعجيب في الأمر، بل يكاد يكون معجزاً أن تكون هذه حال

---

(١) اللبان: ضرب من الصمغ يقال له: الكندر. وقال أبو حنيفة الدينوري: اللبان شجيرة شوكه لا تسمو أكثر من ذراعين، ولها ورقة مثل ورقة الآس، وثمرة مثل ثمرته، وله حرارة في الفم.

(٢) شذرات الذهب (٢: ٩).

(٣) الوافي بالوفيات (٢: ٢٧٦).

(٤) تهذيب الأسماء واللغات (١: ٦٥).

الشافعي، ويترك - في مدة أربع سنوات كلها سقم - من اجتهاده الجديد ما يملأ آلاف الورق، مع مواصلة الدروس والأبحاث والمناظرات والمطالعات في الليل والنهار، وكأن هذا الدأب والنشاط في العلم والبحث هو دواؤه الوحيد الشافي!!.

وقيل في سبب وفاته: إنه[1] كان بمصر رجل من أصحاب مالك بن أنس، يقال له فتيان[2]، فيه حدّة وطيش، وكان يناظر الشافعي كثيراً، ويجتمع الناس عليهما، فتناظرا يوماً في مسألة بيع الحر - وهو العبد المرهون إذا أعتقه الراهن ولا مال له غيره - فأجاب الشافعي بجواز بيعه على أحد أقواله، ومنع فتيان منه، لأنه يمضي عتقه بكل وجه وهو أحد أقوال الشافعي، فظهر عليه الشافعي في الحجاج، فضاق فتيان بذلك ذرعاً، فشتم الشافعي شتماً قبيحاً، فلم يرد عليه الشافعي حرفاً، ومضى في كلامه في المسألة، فرفع ذلك رافع إلى السري[3]، فدعا الشافعي وسأله عن ذلك وعزم عليه، فأخبره بما جرى، وشهد الشهود على فتيان بذلك،

---

(١) معجم الأدباء (١٧ : ٣٢٢).

(٢) هو: فتيان بن أبي السمح وقد تقدمت ترجمته في الصحيفة ١٥٩.

(٣) هو: السري بن الحكم بن يوسف، أمير من الولاة، كان مقداماً فاتكاً، فيه دهاء، أصله من خراسان، ولي مصر سنة ٢٠٠، وخلعه بعض قواد الجند سنة ٢٠١، فأعاده المأمون وأقام في ولايته إلى أن توفي سنة ٢٠٥ هـ. وكان يكرم الشافعي ويقدمه، ولا يؤثر عليه أحداً.

فقال السري: لو شهد آخر مثل الشافعي على فتيان لضربت عنقه، وأمر فتيان فضرب بالسياط، وطيف بـه على جمل، وبين يديه منادٍ ينادي: هذا جزاء من سب آل رسول الله ﷺ، ثم إن قوماً تعصبوا لفتيان من سفهاء الناس، وقصدوا حلقة الشافعي حتى خلت من أصحابه وبقي وحده، فهجموا عليه وضربوه، فحمل إلى منزله، فلم يزل فيه عليلاً حتى مات.

ويقول ابن حجر:

وقد اشتهر أن سبب موت الشافعي أن فتيان بن أبي السمح المصري، وقعت بينه وبين الشافعي مناظرة، فبدرت من فتيان بادرة، فرفعت إلى أمير مصر، فطلبه وعزره فحقد لذلك، فلقي الشافعي ليلاً، فضربه بمفتاح حديد فشجه، فتمرض الشافعي منها إلى أن مات، يقول ابن حجر: ولم أر ذلك من وجه يعتمد[١].

وفي هذه الحادثة ـ إن صحت ـ يظهر سوء التعصب المذهبي، الذي لا يبالي صاحبه أن يزهق نفساً لا يعدلها ملء الأرض من النفوس الكريمة. أما النفوس اللئيمة فهي ونفايات الأرض سواء، وبودنا ألا تكون هذه الحادثة صحيحة، وإلا فهي عار التعصب الأعمى، ويؤنسنا أن ابن حجر ـ رحمه الله ـ لم يثق بهذه الرواية، ولم يرها واردة من وجه يعتمد كما تقدم.

---

(١) توالي التأسيس (٨٦).

في حال احتضاره:

ومهما يكن السبب، فإن الشافعي ألحَّ عليه المرض، وتخوَّفه النزيف، وأذابه السقم ووقف الموت ببابه ينتظر انتهاء الأجل. وفي هذه الحال عند آخر عهده بالدنيا، وأول عهده بالآخرة، دخل عليه تلميذه المزني فقال: كيف أصبحت؟ قال: «أصبحت من الدنيا راحلًا، وللإخوان مفارقاً، ولكأس المنية شارباً، وعلى الله جلّ ذكره وارداً، ولا والله ما أدري روحي تصير إلى الجنة فأهنئها، أو إلى النار فأعزيها» ثم بكى وأنشأ يقول:

ولـمـا قسـى قلبـي وضـاقت مـذاهبـي
جعلت الـرجـا مني لـعفـوك سُـلَّمـا

تـعـاظـمـني ذنـبي فـلمـا قـرنتـه
بـعفـوك ربـي كـان عـفـوك أعـظمـا

ومـا زلت ذا عفـو عن الـذنب لم تـزل
تـجـود وتـعـفـو مـنـةً وتـكـرمـا[1]

وفي هذه الحال أيضاً دخل عليه يونس بن عبد الأعلى، فقال الشافعي له: «يا أبا موسى، اقرأ عليَّ ما بعد العشرين والمائة من آل عمران، وأخفِ القراءة، ولا تثقل. فقرأت عليه؛ فلما أردت القيام، قال: لا تغفل عني، فإني مكروب»[2].

---

(١) صفة الصفوة (٢: ١٤٦).

(٢) آداب الشافعي ومناقبه (٧٦).

قال يونس: عنى الشافعي في قراءتي ما بعد العشرين والمائة، ما لقي النبي ﷺ وأصحابه، أو نحوه[١].

وقال حرملة: قال لي الشافعي: «اذهب إلى إدريس العابد، فقل له: يدعو الله عزّ وجلّ لي»[٢].

وقال الربيع: لما كان مع المغرب، قال له ابن عمه: ننزل حتى نصلي، قال: «تجلسون تنظرون خروج نفسي» فنزلنا، ثم صعدنا، فقلنا: أصليت؟ قال: نعم، واستسقى ـ وكان الوقت شتاءً ـ فقال ابن عمه: امزجوه بماء مسخن، فقال الشافعي: «لا، بل بِرُبِّ السفرجل» وتوفي بعد عشاء الآخرة[٣].

تاريخ وفاته:

قال الربيع بن سليمان: توفي الشافعي ليلة الجمعة بعد العشاء الآخرة، آخر يوم من رجب[٤]، ودفناه يوم الجمعة، فانصرفنا فرأينا هلال شعبان سنة أربع ومائتين[٥]، عن أربع وخمسين سنة، وهذا هو المشهور عند أكثر الرواة في عمره،

---

(١) آداب الشافعي ومناقبه (٧٦).

(٢) توالي التأسيس (٨٣).

(٣) توالي التأسيس (٨٤).

(٤) وقال ابن حبان: آخر ربيع الأول، وما ذكرناه أصح، كما في آداب الشافعي.

(٥) صفة الصفوة (٢: ١٤٧) وآداب الشافعي (٢٦).

وقال أبو عثمان ابن الشافعي: مات أبي وهو ابن ثمان وخمسين سنة[1].

تشييعه ودفنه:

ولما أُخذ ـ رحمه الله ـ إلى مثواه الأخير، حمل على الأعناق من فسطاط مصر حتى مقبرة بني زهرة، وتعرف أيضاً بتربة ابن عبد الحكم[2].

وفي معجم الأدباء: دفن غربي الخندق في مقابر قريش، وحوله جماعة من بني زهرة، من ولد عبد الرحمن بن عوف الزهري وغيرهم.

وقبره مشهور هناك، مجمع على صحته، ينقل الخلف عن السلف، في كل عصر إلى وقتنا هذا، وهو البحري من القبور الثلاثة التي تجمعها مصطبة واحدة، غربي الخندق، بينه وبين المشهد، والقبران الآخران اللذان إلى جنب قبر الشافعي: قبر عبد الله بن عبد الحكم المتوفى سنة ٢١٤، وقبر ولده عبد الرحمن بن عبد الله بن عبد الحكم المتوفى سنة ٢٥٧[3].

ويقول النووي عن قبره: «وقبره ـ رحمه الله ـ بمصر عليه

---

(١) الانتقاء لابن عبد البر (١٠٢).

(٢) تاج العروس، مادة «شفع».

(٣) معجم الأدباء (١٧: ٣٢١).

من الجلالة، وله من الاحترام ما هو لائق بمنصب ذلك الإمام»[١].

قصة طريفة في محاولة نقل جثمانه:

وإليك أطرف قصة عن محاولة نقل جثمان الإمام الشافعي رضي الله عنه إلى بغداد، ساقها المقريزي في خططه، فقال ما نصه[٢]:

ومن أبدع ما حكي في مناقبه: أن الوزير نظام الملك أبا علي الحسن بن علي بن إسحاق[٣]، لما بنى المدرسة النظامية ببغداد في سنة أربع وسبعين وأربعمائة، أحب أن ينقل جثمان الإمام الشافعي من مقبرته بمصر إلى مدرسته، وكتب إلى أمير الجيوش بدر الجمالي[٤]، وزير الإمام المستنصر

---

(١) تهذيب الأسماء واللغات (١: ٤٦).

(٢) خطط المقريزي (٢: ٤٦٢) والمقريزي: هو: أحمد بن علي بن عبد القادر أبو العباس الحسيني العبيدي، مؤرخ الديار المصرية. أصله من بعلبك، ونسبته إلى حارة المقارزة في بعلبك، ولد ونشأ ومات في القاهرة سنة ٨٤٥ هـ.

(٣) كان نظام الملك وزيراً للسلطان ألب أرسلان؛ وبقي في خدمته عشر سنين، وصار الأمر كله له أيام ولده السلطان ملك شاه، وأقام على هذا عشرين سنة، وكان من حسنات الدهر، وكانت أيامه دولة أهل العلم. اغتاله ديلمي على مقربة من نهاوند، ودفن في إصبهان سنة ٤٨٥ هـ.

(٤) هو: بدر بن عبد الله الجمالي: أمير الجيوش المصرية ووالد الملك =

بالله معد[3] يسأله في ذلك، وجهز له هدية جليلة، فركب أمير الجيوش في موكبه، ومعه أعيان الدولة، ووجوه المصريين من العلماء وغيرهم، وقد اجتمع الناس لرؤيته، فلما نبش القبر شقّ ذلك على الناس، وماجوا وكثر اللغط، وارتفعت الأصوات، وهمّوا برجم أمير الجيوش، والثورة به، فسكتهم، وبعث يعلم الخليفة أمير المؤمنين المستنصر بصورة الحال، فأعاد جوابه: بإمضاء ما أراد نظام الملك، فقرىء كتابه بذلك على الناس عند القبر، وطردت العامة والغوغاء من حوله، ووقع الحفر، حتى انتهوا إلى اللحد، فعندما أرادوا قلع ما عليه من اللبن، خرج من اللحد رائحة عطرة أسكرت من حضر فوق القبر، حتى وقعوا صرعى، فما أفاقوا إلّا بعد ساعة، فاستغفروا مما كان منهم، وأعادوا رد القبر كما كان، وانصرفوا، وكان يوماً من الأيام المذكورة، وتزاحم الناس على قبر الشافعي يزورونه مدّة أربعين يوماً بلياليها، حتى كان من شدّة الازدحام لا يتوصل إليه إلا بعناء ومشقة زائدة، وكتب أمير الجيوش محضراً بما وقع، وبعث به

= الأفضل شاهنشاه، أصله من أرمينية، اشتراه جمال الدولة بن عمار غلاماً؛ فتربى عنده ونسب إليه، تقلد وزارة السيف والقلم، وأصبح الحاكم في دولة المستنصر، توفي سنة ٤٨٧ هـ.

(١) هو: معد بن علي بن الحاكم بأمر الله، من خلفاء الدولة الفاطمية، بويع وهو طفل، وتغلبت أمه على الدولة، وجرى في أيامه غلاء وشدّة ودام سبع سنين، توفي سنة ٤٨٧ هـ.

وبهدية عظيمة مع كتابه إلى نظام الملك، فقرىء هذا المحضر والكتاب بالنظامية ببغداد، وقد اجتمع العالم على اختلاف طبقاتهم لسماع ذلك، فكان يوماً مشهوداً ببغداد.

وكتب نظام الملك إلى عامة بلدان المشرق من حدود الفرات إلى ما وراء النهر بذلك، وبعث مع كتبه بالمحضر، وكتاب أمير الجيوش، فقرئت في تلك الممالك بأسرها. فزاد قدر الإمام الشافعي عند كافة أهل الأقطار، وعامة جميع أهل الأمصار بذلك.

ثم قال المقريزي: ولم يزل قبر الشافعي يزار ويتبرك به إلى أن كان يوم الأحد لسبع خلت من جمادى الأول سنة ٦٠٨ هـ، فانتهى بناء هذه القبة التي على ضريحه، وقد أنشأها الملك الكامل المظفر المنصور، أبو المعالي ناصر الدين محمد ظهير، أمير المؤمنين ابن السلطان الملك العادل سيف الدين أبي بكر بن أيوب، وبلغت النفقة عليها خمسين ألف دينار مصرية.

قال: وقيل فيها: (أي في القبة) عدة أشعار، منها قول الأديب الكاتب ضياء الدين أبي الفتح موسى بن ملهم:

مررت على قبة الشافعي
فعاين طرفي عليها العشاري
فقلت لصحبي: لا تعجبوا
فإن المراكب فوق البحار

وقال علاء الدين أبو علي عثمان بن إبراهيم النابلسي:

لـقـد أصـبـح الـشـافـعـي الإمـا
م فـيـنـا لـه مـذهـبُ
ولـو لـم يـكـن بـحـر عـلـم لـمـا
غـدا وعـلـى قـبـره مـركـبُ

وإشارة إلى قبره، قال الشاعر:

أتـيـت لـقـبـر الـشـافـعـي أزوره
تـعـرضـنـا فـلـك ومـا عـنـده بـحـر
فـقـلـت: تـعـالـى الله تـلـك إشـارة
تشيـر بـأن البحـر قـد ضمـه القبـر

انتهى ما أورده المقريزي.

وفي التاج[1]: قال الشاعر مشيراً إلى قبر الشافعي:

أكـرم به رجلاً مـا مـثـلـه رجـل
مـشـارك لـرسـول الله فـي نـسـبـه
أضحى بمصـر دفيـنـاً في مقـطـمـهـا
نعم المقـطَّم والمـدفـون في تـربـه

وقال البوصيري[2]:

---

(١) مادة: شفع.

(٢) البوصيري: هو محمد بن سعيد بن حماد الصنهاجي المصري، =

بقبة قبر الشافعي سفينة
رست من بناء محكم فوق جلمود

وإذْ غاض طوفان العلوم بقبره
استوى الفلك من ذاك الضريح على الجودي

حزن الناس على وفاته:

ذهل الناس بوفاة الشافعي، وخيمت الكآبة على وجوه العلماء، وهِيضت أجنحة تلاميذه، وأقفر مجلسه من العَلَم الشامخ الذي يصول ويجول ويبحث ويناظر، وأبلغ من عبَّر عن لوعة الناس بفقده: أعرابي وقف على حلقة الشافعي بعد موته بيسير، فقال:

«أين قمر هذه الحلقة وشمسها؟ قلنا: توفي. فبكى بكاءً شديداً وقال: رحمه الله وغفر له؛ فقد كان يفتح ببيانه مُغلق الحجة، ويسد على خصمه واضح المَحجة، ويغسل من العار وجوهاً مسودة، ويوسِّع بالرأي أبواباً منسدّة» ثم انصرف[1].

رؤى الناس في حقه:

ولقد كانت الرؤى الصادقة التي رآها كثير من العباد

= شاعر مجيد، حسن الديباجة؛ نسبته إلى بوصير ـ من أعمال بني سويف بمصر ـ وهو صاحب البردة، توفي سنة ٦٩٦ هـ.

(١) الوافي بالوفيات (١ : ١٧٧).

والصالحين والعلماء، تدل على جليل الخطب، وفداحة المصاب، بفقد من كان يمثِّل شريعة المصطفى ﷺ، ويدني الناس من مفاهيمها، ويدافع عن السنة، ويسلك مسالكها، وقد روي كثير من الرؤى نجتزىء ببعضها، ومنها ما هو كفَلَق الصبح.

قال العزيزي ـ وكان متعبداً ـ: «رأيت ليلة مات الشافعي ـ في المنام ـ كأنه يقال: مات النبي ﷺ في هذه الليلة، وكأني رأيته يغسل في مجلس عبد الرحمن الزهري في المسجد، وكأنه يقال لي: يخرج به بعد العصر، فأصبحت فقيل لي: مات الشافعي، وقيل لي: يخرج به بعد الجمعة، فقلت الذي رأيته في المنام، قيل لي: يخرج به بعد العصر، وكأني رأيت في النوم ـ حين أخرج به ـ كأن معه سرير امرأة رثة السرير، فأرسل أمير مصر: أن لا يخرج به إلا بعد العصر، فجلس إليّ بعد العصر، قال العزيزي: فشهدت جنازته، فلما صرت إلى الموضع الواسع؛ رأيت سريراً ـ مثل سرير تلك المرأة الرثّة السرير ـ مع سريره»[1].

وقال سفيان بن وكيع[2]: «رأيت فيما يرى النائم: كأن

---

(١) آداب الشافعي ومناقبه (٧٣).

(٢) هو: سفيان بن وكيع بن الجراح الرؤاسي أبو محمد الكوفي؛ عن مطلب بن زياد، وعنه الترمذي وابن ماجه، قال البخاري: يتكلمون فيه؛ مات سنة ٢٤٧ هـ.

القيامة قد قامت، والناس في أمر عظيم، إذا بدر لي أخي، فقلت: ما حالكم؟ قال: عرضنا على ربنا، قلت: فما حال أبي؟ قال: غفر له، وأمر به إلى الجنة، قلت: فمحمد بن إدريس؟ قال: حشر إلى الرحمن وفداً، وألبس حلل الكرامة، وتوّج بتاج البهاء»[1].

وقال الربيع: «رأيت في المنام أن آدم ﷺ مات، فسألت عن ذلك، فقيل: هذا موت أعلم أهل الأرض؛ لأن الله تعالى علم آدم الأسماء كلها، فما كان إلّا يسير، فمات الشافعي»[2].

وقال أيضاً: «رأيت الشافعي بعد وفاته بالمنام، فقلت: يا أبا عبد الله، ما صنع الله بك؟ قال: أجلسني على كرسي من ذهب، ونثر عليَّ اللؤلؤ الرطب»[3].

* * *

---

(١) الوافي بالوفيات (٢ : ١٧٦).

(٢) المجموع (١ : ١٥).

(٣) صفة الصفوة (٢ : ١٤٧).

عِلْمُ الشافِعي

- حبه البالغ للعلم.
- تنوع علومه.
- القرآن وعلومه.
- علم الحديث.
- فقه الشافعي.
- رفضه التقليد.
- مناظرات الشافعي.
- الشافعي وعلم الكلام.
- لغته وأدبه وشعره.
- علمه بأيام الناس.
- علمه بالأنساب.
- فراسته ونظره في النجوم.
- الشافعي يتطير.
- الشافعي والطب.
- مؤلفات الشافعي.
- شيوخ الشافعي.
- تلاميذ الشافعي.
- ثناء العلماء عليه.
- ثناؤه على بعض العلماء.
- من كان يدعو له.

عِلْمُ الشافِعي

حبه البالغ للعلم وحرصه عليه:

لا يستطيع أن يكتنه علم الشافعي إلّا من كان عديلاً له، في فهمه وعقله واطلاعه، وهيهات أن يتاح ذلك أو بعضه إلّا للنادرين من عظماء الرجال وعلمائهم، ومن أمثال هؤلاء نغترف، وبهم نستعين على التحدث عن بعض فضله وعلمه.

ولقد وضح لنا ونحن نقرأ حياته ـ منذ كان في السابعة من عمره حين حفظ القرآن إلى أن وافته منيته ـ كيف كان زاهداً في كل شيء من متاع الدنيا، ومقبلاً بوجوده كله ـ جسمه وروحه وعقله وذكائه ـ على العلم والعمل به. وما يستطيع أحد أن يصف شغف الشافعي بالعلم وشهوته له كما وصفه نفسه حين قيل له مرّة: كيف شهوتك للعلم؟ قال: «اسمع بالحرف مما لم أسمعه، فتود أعضائي أن لها أسماعاً تتنعم به، مثل ما تنعمت به الأذنان، فقيل له: فكيف حرصك عليه؟ قال: حرص الجموع المنوع في بلوغ لذته للمال،

فقيل له: فكيف طلبك له؟ قال: طلب المرأة المضلّة ولدها ليس لها غيره»[1].

فكيف لا ينال من العلم ـ وهذه شهوته له ـ ما لم ينله إلاّ القلّة، وما به أضحى أحد بضعة رجال هم أشهر من في العالم، يتردد ذكره على لسان الألوف المؤلفة في كل عصر ومصر.

يقول الشافعي ـ فيما يجب على طلبة العلم من بذل لأقصى الجهد، ومن تمسك بالصبر، ومن إخلاص لله ـ:

«فحق على طلبة العلم بلوغ غاية جهدهم في الاستكثار من علمه، والصبر على كل عارض دون طلبه، وإخلاص النية لله في استدراك علمه: نصاً واستنباطاً، والرغبة إلى الله في العون عليه، فإنه لا يُدرك خير إلاّ بعونه»[2].

ويقول ـ رحمه الله ـ في ثمرة إدراك العلم بأحكام الله والعمل بما علم:

«فإن من أدرك علم أحكام الله في كتابه: نصاً واستدلالاً، ووفقه الله للقول والعمل بما علم منه، فاز بالفضيلة في دينه ودنياه، وانتفت عنه الريب، ونوَّرت في قلبه الحكمة، واستوجب في الدين موضع الإمامة»[3].

---

(١) توالي التأسيس (٦٢).

(٢) (٣) الرسالة (١٩).

هذه رسالة السلف: علم يبلغ الغاية الممكنة، وعمل لا ينفك عن العلم، فالعالم كما ينفع الناس بعلمه؛ ينفعهم بسمته وسلوكه بل هو أسوة أنفع منه عالماً، وما كانوا يتصورون علماً بلا عمل؛ إلا عند المنحرفين الذين يقولون ما لا يفعلون، والذين لا يعبأ الله بعلمهم.

المراد بعلمه: معارفه كلها

وإذا قلنا: علم الشافعي، فما نريد له: «فقهه واجتهاده» وحدهما؛ وإن كان بهما شهرته وإمامته، ودان أتباعه له بهما، وحبس مواهبه في كهولته وما بعدها ـ عما سواهما ـ وإنما نريد: معارفه كلها، وسنتحدث عنها كلها بإيجاز، قدرَ ما يتسع له هذا التصنيف الصغير.

وتتناول علوم الشافعي: علوم الدين ومنها: القرآن: تفسيره وقراءته. الحديث وأصوله. الفقه وأصوله. اجتهاده واتباعه للسنة، علوم العربية من: شعر ونثر ولغة ونحو وما إلى ذلك. علمه بالأنساب. معرفته بالنجوم. معرفته بالطب.

القرآن وَعُلومُه

الركن الأول في فهم الشريعة والاجتهاد فيها، حفظ كتاب الله وفهمه، ثم معرفة علومه، والغوص على دقائقه. ومن المستحيل أن يفهم أحد القرآن فهماً صحيحاً إلّا بإتقان لغة العرب، وفهم أسرارها بمفرداتها وأساليبها، ولهجات قبائلها،

وتذوق بلاغتها، فإن سار المتعلم في هذه الطريق فقد وصل إلى مقصده، وإلاّ تفرقت به السبل، وضلّ عن الصراط السوي. والشافعي ـ رحمه الله ـ من ذلك في درجة لم يسمُ إليها أحد من أولي هذا الشأن، فقد مرّ ـ في البحث عن نشأته ـ أنه رحل إلى البادية، فعاش في قبيلة هذيل ـ وكانت أفصح العرب ـ نحواً من سبع عشر سنة يرحل برحيلها، ويقيم بإقامتها، ويسمع كلامها ويحفظ شعرها، حتى صار كأنه أحد أفرادها؛ مما سهل عليه كثيراً أن يستوعب معاني القرآن، ويفهم مقاصده، وصار في ذلك مرجعاً وحجة.

واقرأ هذا النص من كتاب الرسالة ـ ومثله كثير ـ تدرك شيئاً من دقته في فهم ألفاظ القرآن، والاستشهاد على ذلك من شعر العرب. يقول ـ رحمه الله ـ[1]: «قال الله تبارك وتعالى: ﴿ ومن حيث خرجت فول وجهك شطر المسجد الحرام، وحيث ما كنتم فولوا وجوهكم شطره ﴾[2].

ففرض عليهم حيثما كانوا أن يولوا وجوههم شطره، «وشطره» جهته في كلام العرب. إذا قلت: «أقصد شطر كذا» معروف أنك تقول: أقصد قصد عين كذا، يعني قصد نفس كذا. وكذلك تلقاءه: جهته، أي أستقبل تلقاءه وجهته، وإن

(١) الرسالة (٣٤).

(٢) الآية ١٥٠ من سورة البقرة.

كلها معنى واحد وإن كانت بألفاظ مختلفة. وقال خُفَافُ بن نُدْبة(١):

ألا مــن مُــبــلــغٌ عَــمْــراً رســولاً
وما تـغـنـي الـرســالـة شـطـر عـمـرو

وقال ساعدة بن جُؤية(٢):

أقــول لأم زنــبــاع أقــيــمــي
صـــدور الـعـيس شَـطْـر بـنـي تـمـيـم(٣)

وقال لقيط الإيادي(٤):

---

(١) هو: خفاف بن عمير بن الحارث السلمي، وأمه ندبة، وكانت سوداء حبشية، وإليها ينسب، وهو ابن عم الخنساء الشاعرة المشهورة، وهو من فرسان العرب المعدودين، أدرك الإسلام، وحسن إسلامه، وشهد غزوة الفتح، وكان أحد أغربة العرب الثلاثة، والآخران: عنترة، والسليك، توفي سنة ٢٠ هـ.

(٢) هو: ساعدة بن جؤية الهذلي، من سعد هذيل، شاعر من مخضرمي الجاهلية والإسلام، أسلم وليست له صحبة.

(٣) نسب صاحب اللسان هذا البيت لأبي زنباع الجذامي، والشافعي أعلم الناس بشعر هذيل.

(٤) هو: لقيط بن يعمر بن خارجة الإيادي: شاعر جاهلي فحل، من أهل الحيرة، اتصل بكسرى سابور ذي الأكتاف، والبيت من قصيدة شهيرة بعث بها إلى قومه، ينذرهم بأن كسرى وجه جيشاً لغزوهم وأولها:

ودار عـــمـــرة مـــن مـــحـــتـــلـــهـــا الـــجـــرعـــا
هـــاجـــت لـــي الـــهـــم والأحـــزان والـــوجـــعـــا

وقـد أظـلَّكُـمُ مـن شَـطرِ ثـغـركـم
هَـول لـه ظُـلم تـغـشـاكُـمُ قِـطعَـا

وقال الشاعر[1]:

إن الـعـسـيـر بـهـا داء مـخـامـرهـا
فشـطرهـا بصـر الـعـينين محسـور[2]

قال الشافعي: يريد: تلقاءها بصر العينين، ونحوها: تلقاء جهتها.

وهذا كله ـ مع غيره من أشعارهم ـ يبين أن شطر الشيء قصد عين الشيء: إذا كان معايناً فبالصواب، وإن كان مغيباً فبالاجتهاد بالتوجه إليه، وذلك أكثر ما يمكنه فيه»[3].

هذه الملكة في العربية جعلت فهمه لكتاب الله كأنه شهد التنزيل، يقول يونس بن عبد الأعلى: «كنت أولاً أجالس أصحاب التفسير وأناظر عليه، وكان الشافعي إذا ذكر التفسير كأنه شهد التنزيل»[4]. ولهذا كان شيخه في الحديث

---

(١) ذكر هذا البيت صاحب اللسان في مادة «حسر» ونسبه إلى قيس بن خويلد الهذلي يصف ناقة، ونسبه السكري إلى قيس بن العيزارة.

(٢) في الأصل: مسحور. وما ها هنا أكثر الروايات عليه، والمحسور: من حسر بصره يحسر حسوراً: أي كل وانقطع نظره من طول مدى وما أشبه ذلك، كما في اللسان.

(٣) الرسالة (٣٥).

(٤) توالي التأسيس (٥٨).

سفيان بن عيينة إذا جاءه شيء من التفسير والفتيا، التفت إلى الشافعي وقال: سلوا هذا[1].

وقال أبو حسان الزيادي: ما رأيت أحداً أقدر على انتزاع المعاني من القرآن، والاستشهاد على ذلك من اللغة من الشافعي[2].

وقال داود بن علي إمام أهل الظاهر في مناقب الشافعي له: قال لي إسحاق بن راهويه: ذهبت أنا وأحمد بن حنبل إلى الشافعي بمكة، فسألته عن أشياء فوجدته فصيحاً، حسن الأدب، فلما فارقناه أعلمني جماعة من أهل الفهم بالقرآن، أنه كان أعلم الناس في زمانه بمعاني القرآن[3].

ومن يرجع إلى كتاب «الرسالة» للشافعي؛ يرَ من الأصول التي استخرجها من كتاب الله ما يُذهل وما كان الشافعي - يرحمه الله - يعتمد في التفسير على الرواية إلاّ ما كان ثابتاً، ذلك لأن روايات كثير من المفسرين ينقصها التوثيق، وإنما كان يعتمد كما اعتمد البخاري من بعده على مجاهد لأنه من أوثقهم، ومن أقلهم رواية عن ابن عباس، فمعظم الرواية عن ابن عباس ليست بثابتة، قال ابن عبد الحكم: سمعت

(١) الانتقاء (٧٠).
(٢) توالي التأسيس (٥٨).
(٣) توالي التأسيس (٥٨).

الشافعي يقول: «لم يثبت عن ابن عباس في التفسير إلاّ شبيه بمائة حديث»[1].

قراءة الشافعي:

أما قراءة الشافعي فقد كانت على قراءة ابن كثير، قرأها على شيخه المكي إسماعيل بن عبد الله بن قسطنطين[2]. قال محمد بن عبد الله بن عبد الحكَم، أخبرنا الشافعي، حدثنا إسماعيل بن عبد الله بن قسطنطين ـ يعني قارىء مكة ـ قال: قرأت على شبل[3] ـ يعني ابن عباد ـ وأخبر شبل: أنه قرأ على عبد الله بن كثير[4] وأخبر عبد الله بن كثير: أنه قرأ على مجاهد[5] أنه قرأ على ابن عباس، وأخبر ابن عباس، أنه قرأ

---

(١) فجر الإسلام عن الإتقان (٢٤٠).

(٢) هو: إسماعيل بن عبد الله المخزومي مولاهم، المعروف بالقسط، قارىء مكة في زمنه وهو آخر أصحاب ابن كثير وفاة، قرأ عليه الشافعي وغيره، توفي سنة ١٩٠ هـ وله من العمر تسعون سنة.

(٣) هو: شبل بن عباد، قارىء أهل مكة، وحدث عن أبي الطفيل وطائفة، قرأ على ابن كثير، توفي سنة ١٤٨ هـ.

(٤) هو: أبو معبد عبد الله بن كثير الكناني مولاهم، الفارسي الأصل، الداري العطار، قرأ على عبد الله بن السائب المخزومي، وعلى مجاهد، توفي سنة ١٢٠ هـ.

(٥) هو: الإمام أبو الحجاج مجاهد بن جبر، الإمام الحبر المكي، قال =

على أبي بن كعب[١]، وقرأ أبي بن كعب على رسول الله ﷺ.

قال الشافعي: وقرأت على إسماعيل بن عبد الله بن قسطنطين، وكان يقول: (القرآن) اسم، وليس بمهموز، ولم يؤخذ من قرأت، ولو أخذ من قرأت كان كل ما قرىء قرآناً، ولكنه اسم القرآن، مثل التوراة والإنجيل، وكان يهمز (قرأت) ولا يهمز (القران)؛ كان يقول: (وإذا قرأت القُران[٢]).

علمُ الحَدِيث

لم يبلغ الشافعي العاشرة من عمرة حين أمّ الحرم المكي، يحضر مجلس شيخ الحرم: محدث مكة الأكبر، سفيان ابن عيينة، وكان حينذاك يكتب ما يسمعه على العظام، وكرب النخل، وظهور أوراق الدواوين، لشدة فاقته، كما قرأتَ ذلك في صدر حياته، ثم حفظ الموطأ، ورحل إلى مالك في سن مبكرة لم تتجاوز الثالثة عشرة على قول كثير من الرواة، ولبث

= خصيف: كان أعلمهم بالتفسير. وقال مجاهد: عرضت القرآن على ابن عباس ثلاثين مرة، توفي مجاهد بمكة وهو ساجد سنة ١٠٣ هـ.

(١) هو: أبي بن كعب بن قيس، من بني النجار، من الخزرج، أبو المنذر: صحابي أنصاري، كان من كتاب الوحي، وشهد بدراً وأحداً والمشاهد كلها، أمره عثمان بجمع القرآن فاشترك في جمعه. وفي الحديث: «أقرأ أمتي أبيّ بن كعب» مات بالمدينة سنة ٢١ هـ.

(٢) آداب الشافعي ومناقبه (١٤٢).

في المدينة حتى وفاة مالـك ـ رحمه الله ـ فكتب حـديثه وحديث غيره من الشيوخ، وحفظ كثيراً من أقوال الصحابة وفتاواهم، كما أتقن فقه أهل المدينة.

لقد كان حظ الشافعي من الحديث كبيراً، وحفظه له لا يباريه فيه إلاّ أهل الصناعة فيه؛ ولكن لم يكن استيعابه وحفظه للحديث على طـريقة المحـدثين، يستكثرون من الرواية كما يستكثرون من الشيـوخ، ويبحثون عن السنـد العالي ما أمكنهم ذلك.

يقول ابن حجر: كان ـ أي الشافعي ـ مكثراً من الحديث، ولم يكثر من الشيوخ كعادة أهل الحديث، لإقبالـه على الاشتغال بالفقه حتى حصّل منه ما حصّل[1]. ويقول ابن حجر: وكان معظم أحاديث الأحكام حاصلةً عنده، لا يشذّ منها إلاّ النادر، ويكفي في الدلالة على ذلك قول الإمام أبي بكر بن خزيمة، وسئل هل يعرف للنبي ﷺ سنة صحيحة لم يودعها الشافعي كتبه، قال: لا[2].

وقال أحمد بن حنبل: وكان ـ أي الشافعي ـ أفقه الناس في كتاب الله عزّ وجلّ، وفي سنة رسول الله ﷺ، ما كان يكفيه قليل الطلب في الحديث[3]. وعن المزني: سمعت

(١) توالي التأسيس (٥٣).

(٢) تهذيب الأسماء واللغات (١: ٥١).

(٣) آداب الشافعي ومناقبه (٥٥).

الشافعي يقول: «إني كنت لأسير الليالي في طلب الحديث الواحد»[1].

ولم يكن ـ رحمه الله ـ في طلبه للحديث حاطب ليل؛ يحرص على جمعه صحيحاً كان أو ضعيفاً، كما يحرص على ذلك كثير من أهل صناعة الحديث، إنما كان دأبه أن يظفر بالأحاديث الصحيحة. يقول أحمد بن حنبل: قال لي الشافعي: «إذا صحّ الحديث فقل لي: أذهب إليه، حجازياً كان أو عراقياً، شامياً كان أو مصرياً»[2].

ويقول النووي: ومن ذلك ـ أي من فضائله ـ تمسكه بالأحاديث الصحيحة، وإعراضه عن الأخبار الواهية والضعيفة، ولا أعلم أحداً من الفقهاء اعتنى في الاحتجاج بالتمييز بين الصحيح والضعيف كاعتنائه، ولا قريباً منه، فرضي الله عنه، وهذا واضح جلي في كتبه، وإن كان أكثر أصحابنا لم يسلكوا طريقته في هذا[3].

ومع حرصه على الصحيح من السنة، لم يكن يطمئن حتى لما يسمى بالصحيح؛ لكثرة الضعيف والواهي، وغلبته على ألْسن المحدثين. وحسبك أن تعلم: أن البخاري استخرج صحيحه الذي لا يجاوز الألْفين من غير المكرر من

---

(١) توالي التأسيس (٥٢).

(٢) توالي التأسيس (٦٣).

(٣) تهذيب الأسماء واللغات (١ : ٥١).

ثلاثمائة ألف حديث، وقريب من ذلك صحيح مسلم، ومسند أحمد ـ مع أن فيه ضعيفاً ـ جمعه من أكثر من سبعمائة وخمسين ألفاً من الأحاديث.

لذلك كان الشافعي ـ أحياناً ـ يتشكك في بعض ما يرويه، ويخشى أن يكون مصاباً بضعف، قال الربيع: كان ابن هرم يلزم الشافعي، فقال له: يا أبا عبد الله، تملي علينا السنن التي صحت عن رسول الله ﷺ فقال الشافعي: السنن التي تصح قليلة، هذا أبو بكر لا يصح له تسعة أحاديث، وعمر لا يصح له خمسون حديثاً، وعثمان فأقل، وعليّ مع ما كان يحض الناس على الأخذ عنه لا يصح له حديث كثير، والصحيح عند أهل المعرفة قليل(١).

وما كان يرى أن من الممكن أن تجمع السنة النبوية لأحد من العلماء أو المحدثين، مهما يحرص أحدهم على تحصيلها أو يرحل لجمعها، وإنما يتفاوت أهل العلم بها: فمنهم الجامع لأكثرها، ومنهم من هو أقل من ذلك. يقول ـ رحمه الله ـ في كتاب الرسالة: «والعلم به ـ أي لسان العرب ـ عند العرب كالعلم بالسنة عند أهل الفقه: لا نعلم رجلاً جمع السنن فلم يذهب منها عليه شيء. فإذا جمع علم عامة أهل العلم بها أتى على السنن، وإذا فرّق علم كل

---

(١) الطبقات الكبرى لابن السبكي (٢: ٨١).

واحد منهم، ذهب عليه الشيء منها، ثم كان ما ذهب عليه موجوداً عند غيره.

وهم في العلم طبقات: منهم الجامع لأكثره وإن ذهب عليه بعضه، ومنهم الجامع لأقل مما جمع غيره»[1].

---

(١) الرسالة (٤٣) ويقول أحمد شاكر محقق الرسالة ـ تعليقاً على قول الشافعي هذا ـ: هذا الذي قاله الشافعي في شأن السنن، نظر بعيد، وتحقيق دقيق واطلاع واسع على ما جمع الشيوخ والعلماء من السنن في عصره، ولم تكن دواوين السنة جمعت إذ ذاك، إلا قليلاً مما جمع الشيوخ مما رووا. ثم اشتغل العلماء الحفاظ بجمع السنن في كتب كبار وصغار، فصنف أحمد بن حنبل ـ تلميذ الشافعي ـ مسنده الكبير المعروف، وقال يصفه: «إن هذا الكتاب قد جمعته وأتقنته من أكثر من سبعمائة وخمسين ألفاً، فما اختلف المسلمون فيه من حديث رسول الله ﷺ فارجعوا إليه، فإن كان فيه وإلاّ فليس بحجة» ومع ذلك فقد فاته شيء كثير من صحيح الحديث، وفي الصحيحين أحاديث ليست في المسند. وجمع العلماء الحفاظ الكتب الستة وفيها كثير مما ليس في المسند، ومجموعها مع المسند يحيط بأكثر السنة ولا يستوعبها كلها، ولكنا إذا جمعنا ما فيها من الأحاديث التي في الكتب الأخرى المشهورة، كمستدرك الحاكم، والسنن الكبرى للبيهقي، والمنتقى لابن الجارود، وسنن الدارمي، ومعاجم الطبراني الثلاثة، ومسندي أبي يعلى والبزار ـ: إذا جمعنا الأحاديث التي في هذه الكتب، استوعبنا السنن كلها إن شاء الله، وغلب على الظن أنه لم يذهب علينا شيء منها، بل نكاد نقطع به، وهذا معنى قول الشافعي: =

ولهذه الفكرة كان الشافعي أشدّ الأئمة احتياطاً لأحكامه، فهو الذي يقول لتلاميذه؛ بل لكل ساع للحق من أهل العلم: «إذا صحّ الحديث فهو مذهبي» وقد روي عنه من هذا القبيل ما لم يرو عن أحد من العلماء كثرة، كأنه يقول لهم: هذا اجتهادي فيما اطلعت عليه من السنة، ومن وجد من السنة ما يخالف ما قلته فرأيي ثَمَّ. وستجد ذلك مستوفى في بحث «اتباعه للسنّة».

عدالة الشافعي وأمانته:

الجرح والتعديل في رواة السنة ركن من أركانها، فبه وبالاتصال والانقطاع؛ عرف المحدثون صحيح الحديث وحسنه وضعيفه وموضوعه، ولم يدع علماء هذا الشأن أحداً لم يضعوه في ميزان الجرح والتعديل. وقد نقبوا ودققوا حتى ليعجب المرء من إيغالهم في ذلك، كل هذا لئلا يدخل على سنة رسول الله ما ليس منها، ولتطمئن القلوب بما تدين به. والأساس في تعديل رجل ما: أن يكون ديِّناً، صادقاً، ليس من أهل الأهواء.

ومن فضول القول أن يتحدث متحدث عن دين الشافعي وصدقه وطريقته، وقد أجمع العلماء على ذلك، بل أجمعوا على ـ أنه في ذلك ـ من القلّة النادرين. يقول ابن خلكان:

= «فإذا جمع علم عامة أهل العلم بها أتى على السنن» وكان الشافعي قد قاله نظراً، قبل أن يتحقق عملاً. لله دره!!

«اتفق العلماء قاطبةً من أهل الحديث والفقه والأصول واللغة والنحو وغير ذلك: على ثقته، وأمانته، وعدالته، وزهده، وورعه، ونزاهة عرضه، وعفة نفسه، وحسن سيرته، وعلو قدره، وسخائه»[1].

وروى حرملة بن يحيى عن الشافعي قال: «ما كذبت قط، وما حلفت قط بالله صادقاً ولا كاذباً»[2].

ويروي عبد الرحمن بن أبي حاتم بسنده عن أبي محمد عن أبيه قوله: محمد بن إدريس: فقيه البدن، صدوق اللسان[3].

ويقول أبو زرعة[4]: «ما عند الشافعي حديث فيه غلط»[5]

ويقول أبو داود: «ما أعلم للشافعي حديثاً خطأ»[6].

ويقول أبو حاتم الرازي[7]: صدوق.

---

(١) وفيات الأعيان (١ : ٥٦٦).

(٢) توالي التأسيس (٦٧).

(٣) آداب الشافعي ومناقبه (٨٩) والمعنى: أنه يراقب الله سبحانه ويراعي آدابه وأحكامه في سائر أفعاله وأقواله.

(٤) هو: عبيد الله بن يزيد، المخزومي بالولاء، أبو زرعا الرازي، من كبار الحفاظ، كان يحفظ مائة ألف حديث، توفي بالري سنة ٢٦٤ هـ.

(٥) الوافي للصفدي (٢ : ١٧٣).

(٦) شذرات الذهب (٢ : ٩).

(٧) هو: محمد بن إدريس بن المنذر، أحد الأعلام، الإمام الحافظ الكبير، توفي سنة ٢٧٧ هـ.

أما الإمام أحمد بن حنبل فهو في ثقته بالشافعي حدّث عنه ولا حرج؛ كيف لا، وقد روى عنه موطأ مالك، وسمع منه الحديث الكثير كما حدث بذلك ابنه عبد الله، وقد سلف الكلام في ذلك.

وأما يحيى بن معين، فقد رويت عنه في حق الشافعي كلمات مختلفة. سأله الزعفراني مرّة - وكان في جنازة - يا أبا زكريا، ما تقول في الشافعي؟ فقال: دعنا. لو كان الكذب له مطلقاً، لكانت مروءته تمنعه أن يكذب[1]. وقال مرّة: ليس به بأس[2]، وليّنه مرّة أخرى، ولقد انبرى في الرد عليه الإمام أحمد بن حنبل، وكان مما قاله: «ومن أين يعرف يحيى بن معين الشافعي؟! هو لا يعرف الشافعي، ومن جهل شيئاً عاداه»[3].

وقال الشيخ شمس الدين في كتاب «من تكلم فيه وهو موثّق»: «الإمام الشافعي ثقة، لا عبرة بقول من ليّنه، فإنه تكلم فيه بهوى»[4].

السلسلة الذهبية:

اختلفت أئمة الحديث في أصح الأسانيد، واشتهر عن

(١) معجم الأدباء (١٧ : ٣١٣).
(٢) الوافي بالوفيات (٢ : ١٧٣).
(٣) طبقات الشافعية (١ : ١٠).
(٤) الوافي بالوفيات (١ : ١٧٧).

البخاري أنه قال: أصح الأسانيد كلها: مالك عن نافع[1] عن ابن عمر، وجاء من بعده فقال: ينبغي أن يضم إلى هذه الترجمة الشافعي؛ لإطباقهم على أنه أجل من أخذ عن مالك، فيقال: الشافعي عن مالك عن نافع عن ابن عمر. ثم جاء بعض المتأخرين، فقالوا: أخصّ من هذا أن يكون من رواية أحمد بن حنبل، عن الشافعي، عن مالك، عن نافع، عن ابن عمر اهـ[2].

أصول الحديث:

المعروف الذي أطبق عليه علماء الإسلام أن الشافعي ـ رحمه الله ـ أول من وضع علم أصول الفقه، ولكن القليل من يعلم أنه أول من وضع ما يسمى بأصول الحديث، أو ما يسميه المتأخرون: «مصطلح الحديث».

فقد وضع في هذا الفن مصطلحات كثيرة لم يسبق إليها، كقوله: «إذا اتصل الحديث عن رسول الله ﷺ وصحّ الإسناد به؛ فهو سنة»[3] وكقوله: «ليس الشاذّ ـ من الحديث ـ أن يروي الثقة حديثاً لم يروه غيره، إنما الشاذ من الحديث: أن

(١) هو: نافع المدني، من أئمة التابعين بالمدينة، ثقة، وهو ديلمي الأصل أصابه ابن عمر صغيراً، توفي سنة ١١٧ هـ.
(٢) ملخص من توالي التأسيس (٢١).
(٣) آداب الشافعي ومناقبه (٢٣٢).

يروي الثقات حديثاً، فيشذّ عنهم واحد فيخالفهم»[١].

وكقوله: «إذا قرأ عليك المحدث، فقل: حدَّثنا، وإذا قرأت على المحدِّث، فقل: أخبرَنا»[٢]. وكقوله: «وليس المنقطع بشيء ما عدا منقطع ابن المسيِّب»[٣].

وله في التعديل والجرح صراحة نادرة وقوة دين، لا يبالي بمن رضي أو بمن غضب. عن أحمد بن سريج قال: سمعت الشافعي يقول: «يقولون: يحابي فلو حابينا لحابينا الزهري[٤]، وإرسال الزهري ليس بشيء؛ وذلك: أنا نجده روى عن سليمان بن أرقم»[٥].

وحدَّث ابن عبد الحكم: سمعت الشافعي، وذكر له حرام بن عثمان، فقال: «الحديث عن حرام بن عثمان حرام»[٦].

---

(١) آداب الشافعي ومناقبه (٣٢٣).

(٢) آداب الشافعي ومناقبه (٩٩).

(٣) آداب الشافعي ومناقبه (٢٣٢). والمراد من المنقطع هنا: المرسل، وهو أن يقول غير الصحابي: قال النبي ﷺ... كذا وإنما استثنى ابن المسيب لأنه عدل ولا يروي إلاّ عن عدل.

(٤) هو: محمد بن مسلم بن شهاب، من بني زهرة، أول من دون الحديث وأحد أكابر الحفاظ، تابعي، مات سنة ١٢٤ هـ.

(٥) آداب الشافعي (٨٢) وسليمان بن أرقم هو: أبو معاذ البصري، المجمع على ضعفه.

(٦) آداب الشافعي (٢١٨) وحرام هذا: هو حرام بن عثمان الأنصاري المدني، قال مالك ويحيى: ليس بثقة، وقال ابن حبان: كان غالياً في التشيع، يقلب الأسانيد.

وحدّث ابن عبد الحكم قال: قال الشافعي: «كتب الواقدي كذب»[1] وعنه أيضاً قال: قال الشافعي: «لا تثبت الرواية عن بشير بن نهيك»[2].

وحدَّث حرملة: سمعت الشافعي يقول: «حديث أبي العالية الرياحي رِياح»[3].

وحدَّث أيضاً قال: سمعت الشافعي يقول: «أبو عبد الله الجدلي[4] جيد الضرب بالسيف، وكان داود بن شابور[5] من الثقات، وكان الربيع[6] بن صبيح غزّاءً، وإذا مدح الرجل

---

(١) آداب الشافعي (٢٢٠) وقال الذهبي: وقد استقر الإجماع على وهنه.

(٢) آداب الشافعي (٢٢٠) وبشير بن نهيك هو: أبو الشعثاء السلولي البصري، التابعي، أحد الرواة عن أبي هريرة، لم يحتج أبو حاتم بحديثه، ووثقه أحمد والنسائي والعجلي.

(٣) آداب الشافعي (٢٢٢) وأبو العالية هو: رفيع بن مهران المخضرم التابعي، وهو ثقة، وأما قول الشافعي: «حديث أبي العالية رياح» فإنما أراد حديثه المرسل في القهقهة فقط، ومذهب الشافعي أن المراسيل ليست بحجة.

(٤) كان صاحب راية المختار، شيعي بغيض، وقد وثقه أحمد.

(٥) هو داود بن شابور بن سليمان المكي، عن سويد بن حجير وطاووس، وعنه: شعبة وابن عيينة، وثقه أبو زرعة الرازي وابن معين.

(٦) هو: الربيع بن صبيح السعدي، أبو بكر البصري، عن الحسن وابن =

بغير صناعته فقد وُهِص»[1].

وبالجملة: «فقد كان أكابر المحدثين يأتونه، فيذاكرون بأحاديث أشكلت عليهم، فيبين لهم ما أشكل، ويوقفهم على علل غامضه، فيقومون وهم يتعجبون. وهذا لا ينازع فيه إلاّ جاهل أو متغافل»[2].

براعته في فهم السنّة:

السنة النبوية: رواية ودراية. فالرواية علم يشتمل على أقوال النبي ﷺ وأفعاله، وروايتها وضبطها وتحرير ألفاظها. والدارية: علم يعرف منه حقيقة الرواية وشروطها وأنواعها وأحكامها، وحال الرواة وشروطهم، وأصناف المرويات وما يتعلق بها.

وقد أتقن الشافعي ـ رحمه الله ـ فن الرواية وتقدمت الإشارة إلى ذلك. وأما فن الدراية فلا يوازيه فيها أحد ممن عاصره، وما فقهه واجتهاده وعلمه، إلاّ فرع عن درايته، ونريد هنا من درايته: براعته في فهم نصوص السنّة وما ترمي إليه، ومعرفته غريب الحديث وغريب الكلام، وغوصه على

= سيرين، وعنه: الثوري ووكيع، قال أحمد: لا بأس به، توفي سنة ١٦٠ هـ. ومعنى غزاء: كثير الغزو.

(١) آداب الشافعي (٢٢٣) ومعنى وهص: دق عنقه.

(٢) هذا نص كلام السيوطي في كتابه «تدريب الراوي» في حق الشافعي.

ما خفي من المعاني، واستنباطه الحكم مما دق من دلالة السنّة، ونبشه الحجة من سياقها في اللفظ والأسلوب، ولربما اهتدى إلى ما لم يفطن إليه كبار العلماء والحفاظ. ففي مناظرة لإسحاق بن راهويه مع الشافعي يقول إسحاق: فلربما تدبرت ما قال رسول الله ﷺ: «هل ترك لنا عقيل من رباع أو دار؟» علمت أنه قد فهم ما ذهب عنا. قال إسحاق: ولو كنت قد أدركني هذا الفهم وأنا بحضرته لعرَّفته ذاك، ثم نظرنا في كتبه، فوجدنا الرجل من علماء الأمة[1].

ولتمكن الشافعي من العربية وحذقه بها، وعيشه بين أهلها، ومعرفته عاداتهم وأحوالهم؛ كان أبصر الناس في إدراك دلالات النصوص، وكان يقول ـ رحمه الله ـ: «أصحاب العربية جن الإنس، يبصرون ما لم يبصر غيرهم»[2] ومن هذا القبيل شرحه لقول النبي ﷺ: «أقروا الطيور على مكناتها».

قال[3]: «إن علم العرب كان في: زجر الطير والبوارح، والخط، والاعتياف[4]؛ فكان أحدهم إذا غدا من منزله يريد أمراً، نظر أول طائر يراه، فإن سنح عن يساره، فاجتاز عن

---

(١) معجم الأدباء (١٧ : ٢٩٧).

(٢) (٣) آداب الشافعي ومناقبه (١٥٠).

(٤) الخط: ضرب من الكهانة، والاعتياف: زجر الطير، والتفاؤل بأسمائها وأصواتها وممرها.

يمينه، قال: هذا طير الأيامن، فمضى في حاجته، ورأى أنه مستنجحها. وإن سنح عن يمينه فمر عن يساره، قال: هذا طير الأشائم، فرجع وقال: هذه حاجة مشؤومة، قال الحطيئة[1] يمدح أبا موسى الأشعري:

لا يزجر الطير سُنْحاً إن عَرَضن له
ولا يُفيض على قِسْم بأزلام[2]

قال الشافعي: «وكانت العرب في الجاهلية إذا لم ير طائراً سانحاً[3]، فرأى طيراً في وكره، حركه من وكره ليطير، فينظر أيسلك طريق الأشائم أو طريق الأيامن».

فيشبه قول النبي ﷺ: «أقروا الطير على مَكناتها» أي لا تحركوها؛ فإن تحريكها، وما تعملونه من الطِّيرَة لا يصنع شيئاً، إنما يصنع فيما توجَّهون به قضاءُ الله تعالى.

---

(١) شاعر مخضرم اسمه جرول بن أوس العبسي، توفي سنة ٤٥ هـ.

(٢) قال عبد الرحمن الرازي مؤلف كتاب «آداب الشافعي»: قلت أنا: يعني: أنه سلك طريق الإسلام في التوكل على الله عز وجل، وترك زجر الطير. وقال بعض شعراء العرب (هو الكميت بن زيد):

ولا أنا ممن يزجر الطير همه
أصاح غراب، أم تعرض ثعلب

(٣) السانح: ما ولى ميامنة، بأن يمر عن يسارك إلى يمينك، والبارح بالعكس.

وسئل النبي ﷺ عن الطِّيَرَة، فقال: «إنما ذلك شيء يجده أحدكم في نفسه؛ فلا يصدنكم»[1].

ومثل ذلك شرحه قول النبي ﷺ: «نُهِي أن تُصبَر البهائم» فقال: «هي أن تُرمى بعدما تؤخذ»[2] وفي كتاب الأم: «وقد نهى رسول الله ﷺ عن الشاة المصبورة» الشاة تربط ثم ترمى بالنبل.

وعن إبراهيم بن محمد بن العباس قال: كنت في مجلس ابن عيينة والشافعي حاضر، فحدث ابن عيينة عن الزهري بحديث صفية، وهو «أن رسول الله ﷺ كان معتكفاً، فأتته صفية، فلما ذهبت ترجع، مشى النبي ﷺ معها، فأبصره رجل من الأنصار، فقال له رسول الله ﷺ: «إنها صفية، وإن الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم».

فقال ابن عيينة ـ وهو من كبار شيوخه في مكة ـ للشافعي: ما فقه هذا الحديث يا أبا عبد الله؟ قال: «لو كان القوم اتهموا رسول الله ﷺ؛ لكانوا بتهمتهم إياه كفاراً، ولكن رسول الله ﷺ أدب من بعده قال: إذا كنتم هكذا، فافعلوا هكذا، حتى لا يظن بكم، لا أن النبي ﷺ ـ وهو أمين الله في وحيه ـ يتهم.

---

(١) آداب الشافعي ومناقبه (١٥١) والصد: الصرف والمنع.

(٢) آداب الشافعي ومناقبه (١٣٨).

فقال ابن عيينة: جزاك الله خيراً يا أبا عبد الله، ما يجيئنا منك إلّا ما نحبه[1].

وما سقنا إلّا نموذجات قليلة تدل على براعة الشافعي في فهم السنة بمعانيها ومفرداتها ومقاصدها، ومن أراد الاستزادة فليرجع إلى الأم والرسالة وغيرهما من كتب الشافعي، ففيها من ذلك المعجب المدهش.

ورحم الله محمد بن الحسن يقول: «إن تكلم أصحاب الحديث يوماً فبلسان الشافعي»[2] وقال هلال بن العلاء: «رحم الله الشافعي؛ هو الذي فتح لأصحاب الحديث الأقفال»[3].

اتباعه للسنة:

لقد أُثر عن الشافعي أقوال كثيرة تبين تمسكه بالآثار، وتعلقه بها واعتماده عليها، وجعلها أسس اجتهاده. بل لا يرى الحجة في غيرها إن ثبتت، فما لأحد من دون رسول الله رأي أو اجتهاد أو حجة، فإذا جاء الأثر وصح ووضحت دلالته وليس له ناسخ أو مخالف، فهو الشرع لا شرع سواه، قال الربيع:

---

(١) توالي التأسيس (٥٤) وآداب الشافعي ومناقبه (١٤٧).

(٢) توالي التأسيس (٥٥).

(٣) تهذيب الأسماء واللغات (١ : ٦٤).

قال لي الشافعي: «وأعطيتك جملة تغنيك إن شاء الله تعالى: لا تدع لرسول الله ﷺ حديثاً، إلّا أن يأتي عنه خلافه، فتعمل بما قدرت لك من الأحاديث إذا اختلفت»[١].

وقال المزني: قال الشافعي: «إذا وجدتم سنة صحيحة فاتبعوها ولا تلتفتوا إلى قول أحد»[٢].

ولهذا لقب بالعراق «ناصرَ السنة» قال الخطيب البغدادي: «الإمام الشافعي: زينُ الفقهاء، وتاج العلماء» ثم قال: قدم بغداد مرتين[٣]، وحدّث بها، وسموه ناصر السنة»[٤].

وقد شهد له بنصرة الحديث واتباع السنة إمام المحدثين أحمد بن حنبل، قال عبدالملك بن عبدالحميد بن مهران[٥]: قال لي أحمد بن حنبل: «ما لك لا تنظر في كتب الشافعي؟! فما من أحد وضع الكتب منذ ظهرت أتبع للسنة من الشافعي»[٦]، وقال الإمام أحمد: «كان الشافعي إذا ثبت

---

(١) (٢) توالي التأسيس (٦٣).
(٣)تاريخ بغداد ٢/٥٦ وتقدم: أن التحقيق أنه قدم بغداد ثلاث مرات.
(٤) الوافي بالوفيات (١: ١٧٨).
(٥)هو: عبد الملك بن عبد الحميد، أبو الحسن الرقي، الحافظ الفقيه، صاحب أحمد، عن إسحاق الأزرق وروح بن عبادة وخلق، وعنه النسائي، ووثقه. مات سنة ٢٧٤ هـ.
(٦) آداب الشافعي ومناقبه (٦١) وتوالي التأسيس (٥٧).

عنده الحديث قال به»[1]. وقال: «كان أحسن أمر الشافعي أنه كان إذا سمع الخبر لم يكن عنده، قال به، وترك قوله»[2]. ويقول الترمذي: «سمعت أحمد بن حنبل يقول: رحم الله الشافعي؛ لقد كان يذب عن الآثار»[3].

وقال عبد الرحمن بن مهدي ـ وهو الذي كتب له الشافعي الرسالة ـ: «مات الثوري ومات الورع، ومات الشافعي وماتت السنن، ويموت أحمد وتظهر البدع»[4].

وقال حوثرة بن محمد المنقري[5]: تتبين السنة في الرجل في اثنين: في حبه أحمد بن حنبل، وكتابة كتب الشافعي[6].

وأما أقوال الشافعي في إيثار السنة، والاعتداد بحجيتها وطرح كل أصل إن جانبه الدليل من الكتاب والسنة، فهي أقوال كثيرة مشهورة معروفة، ذلك أنه ـ رضي الله عنه ـ يعتقد أنه ليس بقدرة أحد أن يجمع السنة كلّها، كما لا يمكن لأحد أن يبرأ من الخطأ في فهمها أو تصحيحها، لذلك كان يقول ـ

(١) (٢) توالي التأسيس (٦٣).
(٣) توالي التأسيس (٥٧).
(٤) طبقات الشافعية (٢: ٢٩).
(٥) هو: حوثرة بن محمد المنقري؛ أبو الأزهر البصري الورّاق؛ عن القطان وابن مهدي؛ وعنه ابن ماجه؛ وثقه ابن حبان؛ توفي سنة ٢٥٦ هـ.
(٦) الانتقاء (٨٩).

على ما رواه الربيع ـ :

«ما من أحدٍ إلاّ وتذهب عنه سنة لرسول الله ﷺ، وتعزب عنه، فمهما قلتُ من قول، أو أصلتُ من أصل، فيه عن رسول الله خلاف ما قلت، فالقول ما قال رسول الله ﷺ، وهو قولي» وجعل يردد هذا الكلام[1].

ويقول: أيضاً ـ على ما رواه أبو ثور ـ : «كل حديث عن النبي ﷺ فهو قولي، وإن لم تسمعوه مني»[2] ويقول ـ على ما وراه الحسين الكرابيسي ـ : «إن أصبتم الحجة في الطريق مطروحة؛ فاحكوها عني، فإني قائل بها»[3].

وقال أحمد بن حنبل: قال لنا الشافعي: «أنتم أعلم بالحديث والرجال مني، فإذا كان الحديث صحيحاً، فأعلموني ـ كوفياً كان، أو بصرياً، أو شامياً ـ حتى أذهب إليه إذا كان صحيحاً»[4].

وظاهر أنه لم يقل: مكياً أو مدنياً، يقول البيهقي: إنما أراد: أحاديث العراق، أما أحاديث الحجاز، فالشافعي أعلم بها من غيره، والمراد: أنه سيحتج بكل ما يصح لديه.

ويقول ـ على ما رواه الربيع ـ : «إذا وجدتم في كتابي

---

(١) معجم الأدباء (١٧ : ٣١١).

(٢) (٣) (٤) آداب الشافعي (٩٤).

خلاف سنة رسول الله ﷺ، فقولوا بها، ودعوا ما قلته»[1].

وقال الربيع: وسمعته يقول: «متى رويت عن رسول الله ﷺ حديثاً صحيحاً، ولم آخذ به؛ فأشهدكم أن عقلي ذهب»[2].

ويقول ـ على ما رواه الربيع أيضاً ـ: «كل مسألة تكلمت فيها، وصح الخبر فيها عن رسول الله ﷺ، عند أهل الفقه بخلاف ما قلت؛ فأنا راجع عنها في حياتي وبعد موتي»[3].

واشتهر عنه قوله: «إذا صحّ الحديث فهو مذهبي»[4] وقوله ـ على ما رواه المزني ـ: «إذا وجدتم سنة صحيحة فاتبعوها، ولا تلتفتوا إلى قول أحد»[5] وقوله: «إذا صح الحديث، فاضربوا بقولي عرض الحائط»[6].

وهذا منه ـ رحمه الله ـ احتياط لدين الله، خشية أن يدخل فيه ما ليس منه، وللناس ثقة في دينه وورعه واجتهاده، فبرىء إلى العلماء أمام الله أن يعترف على قول قاله؛ إن لم تدعمه الحجة من كتاب أو سنة صحيحة، ويعلن أنه رجع عنه، فقد روى البويطي عن الشافعي قوله: «ألفت هذه الكتب، ولم آل[7] فيها، ولا بد أن يوجد فيها الخطأ؛ لأن الله تعالى

---

(١) (٢) (٣) (٤) (٥) توالي التأسيس (٦٣).
(٦) الوافي بالوفيات (٢: ١٧٣).
(٧) لم آل: لم أقصر.

يقول: ﴿ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً﴾[٢] فما وجدتم في كتبي هذه مما يخالف الكتاب والسنة فقد رجعت عنه»[٢].

وقد كان يشتد غضبه إن عرض حجته من السنة على أحد العلماء، فطرحها، والتمس لتأييد قوله رأي غير المعصوم، ولو كان من كبار الأئمة المجتهدين. ففي مناظرة لإسحاق بن راهويه مع الشافعي، سأل الشافعي بعض من عرفه: من هذا؟ فقال: هذا إسحاق بن إبراهيم بن الحنظلي بن راهويه الخراساني. فقال له الشافعي: «أنت الذي يزعم أهل خراسان أنك فقيههم»؟ قال إسحاق: هكذا يزعمون، قال الشافعي: «ما أحوجني أن يكون غيرك في موضعك، فكنت آمر بعرك أذنيه. أنا أقول لك: قال رسول الله ﷺ، وأنت تقول: عطاء، وطاووس، ومنصور، وإبراهيم، والحسن، وهؤلاء لا يرون ذلك؟! هل لأحد مع رسول الله ﷺ حجة»[٣]؟!.

ويغضب في سخرية حين يدلي بحجة من السنة، فيقول له القائل: أتأخذ بها؟. يقول الزعفراني:

---

(١) الآية ٨٢ من سورة النساء.

(٢) توالي التأسيس (٦٢).

(٣) معجم الأدباء (١٧ : ٢٩٥).

سمعت الشافعي يقول ـ لمن قال له: أتأخذ بهذا الحديث ـ «تراني في بيعة؟! تراني في كنيسة؟! ترى عليَّ زي الكفار؟؟ هو ذا تراني في مسجد المسلمين، عليَّ زيّ المسلمين، مستقبل قبلتهم، أروي حديثاً عن النبي ﷺ، ثم لا أقول به»(١)؟!

ولشدة تعلقه بالسنة وإخلاصه في ذلك، كان يرتعد ويصفر لونه ويتغير؛ إذا قيل له ـ وهو يحتج بالسنة ـ أتقول به؟ فعن الربيع بن سليمان قال:

سمعت الشافعي، وسأله رجل عن مسألة، فقال: يروى عن النبي ﷺ أنه قال كذا وكذا.. فقال له السائل: يا أبا عبد الله، أتقول بهذا؟ فارتعد الشافعي، واصفر لونه، وحال وتغيَّر وقال: «ويحك أي أرض تقلُّني، وأي سماء تظلُّني، إذا رويت عن رسول الله ﷺ ولم أقبل به! نعم، على الرأس والعينين»(٢).

وكثيراً ما أعلن أنه ما يخالف إلا من خالف سنة رسول الله ﷺ، ولصراحته في ذلك اتهمه بعضهم أنه إنما يخالف بعض الأئمة للدنيا، فقال: «يقولون: إني أخالفهم للدنيا، وكيف يكون ذلك والدنيا معهم؟! وإنما يريد الإنسان الدنيا لبطنه وفرجه، وقد منعت ما لذ من المطاعم، ولا سبيل إلى النكاح ـ يعني لما كان به من البواسير ـ ولكن لست أخالف إلّا من

(١) طبقات الشافعية (٢: ١٣٨).
(٢) معجم الأدباء (١٧: ٣١١) وصفة الصفوة (٢: ١٤٥).

خالف سنة رسول الله ﷺ»[1].

ولكم ضاق الشافعي بأولئك المقلدين، يسمعون حديث رسول الله ﷺ صريحاً، لا لبس فيه، ويصدون عن العمل بمقتضاه[2]، قال في ذلك مرّة: «لا يحل لأحد سمع حديث

---

(١) توالي التأسيس (٧٦).

(٢) رأيت فيما سلف من أقوال الشافعي ـ وهي قليل من كثير ـ أنه يلح ويصر على أن يبادر متبع مذهبه، بل كل مسلم ذي ملكة وقدرة على الفهم؛ أن يبادر إلى السنة الثابتة حيثما وجدت، ويدين بها، ويعمل عليها، فهي حقاً شرع الله، فاه به من لا ينطق عن الهوى، وأن يطرح قول غير المعصوم إن لم يتفق مع صريح السنة وصحيحها، فإن الله لم يتعبدنا بقول أحد مهما يبلغ من الدين والعلم والورع، إنما تعبدنا بأوامره ونواهيه، ما جاء منها بكتابه الكريم، وما أتى منها على لسان نبيه ﷺ، والأئمة ـ رحمهم الله ـ اجتهدوا ولم يألوا، والحق لا يتعدد؛ فهو مع أحدهم إن اختلفوا، مع من يملك الحجة، وقد تكون الحجة في خبايا الزوايا، والناس عنها في معزل.

هذا ويقول ابن حجر ـ رحمه الله ـ في توالي التأسيس (ص ٦٣) ما نصه: قرأت بخط الشيخ تقي الدين السبكي في مصنف له في هذه المسألة (مسألة عمل المقلد بالحديث) ما ملخصه: إذا وجد شافعي حديثاً صحيحاً يخالف مذهبه، إن كملت فيه آلة الاجتهاد في تلك المسألة فليعمل بالحديث، بشرط ألا يكون الإمام اطلع عليه وأجاب عنه، وإن لم يكمل ووجد إماماً من أصحاب المذاهب عمل به؛ فله أن يقلده فيه، وإن لم يجد ـ وكانت المسألة حيث لا =

رسول الله ﷺ في رفع اليدين في افتتاح الصلاة، وعند الركوع، والرفع من الركوع؛ أن يترك الاقتداء بفعله ﷺ»[1].

وقد التزم هذا المبدأ ـ مبدأ القول بالسنة ـ منذ أن كان فتىً يدرس في الحرم المكي، فكان مما يقوله حينئذٍ ما رواه محمد بن عبد الرحمن الجوهري، قال: كنت عند سفيان بن عيينة، فقيل له: ههنا فتى ـ يعنون الشافعي ـ يقول: «عليكم بحديث رسول الله ﷺ، ودعوا الرأي» فقال سفيان: جزى الله هذا من فتىً خيراً، ثم قال: قال الله عز وجل: وجل: ﴿إنا

= إجماع ـ قال السبكي: فالعمل بالحديث أولى، وإن فرض الإجماع فلا. يقول ابن حجر: قلت: ويتأكد ذلك إذا وجد الإمام بنى المسألة على حديث ظنه صحيحاً، وتبين أنه غير صحيح، ووجد خبراً صحيحاً يخالفه، وكذا إذا اطلع الإمام عليه، ولكن لم يثبت عنده مخالفة، ووجد له طريق ثابتة، وقد أكثر الشافعي من تعليق القول بالحكم على ثبوت الحديث عند أهله كما قال في البويطي: إن صحّ الحديث في الغسل من غسل الميت، قلت به، وفي الأم: إن صحّ حديث ضباعة في الاشتراط قلت به إلى غير ذلك. يقول ابن حجر: وقد جمعت من ذلك كتاباً سميته: «المنحة فيما علق الشافعي القول به على الصحة» وأرجو الله تيسير تكملته بعونه وقوته.

(١) الطبقات الكبرى (٢: ١٠٠).

فتى يذكرهم يقال له إبراهيم﴾[1] وقال الله تعالى: ﴿ إنهم فتية آمنوا بربهم وزدناهم هدى[2]﴾.

ويرمز إلى اتباع الشافعي للسنة ودعوته إليها، رؤيا لأبي جعفر محمد بن أحمد بن نصر الترمذي، قال: «رأيت في المنام النبي ﷺ في مسجده بالمدينة، كأني جئت إليه، وقلت يا رسول الله: أكتب رأي أبي حنيفة؟ قال: لا، قلت: أكتب رأي مالك؟ قال: لا تكتب منه إلاّ ما وافق حديثي، قلت: أكتب رأي الشافعي، فقال بيده: هكذا؛ كأنه انتهرني، وقال: رأي الشافعي إنه ليس برأيي؟! ولكنه رد على من خالف سنتي»[3].

ورؤيا أخرى لمحمد بن الحسن البلخي قال:

«رأيت رسول الله ﷺ في النوم، فقلت: يا رسول الله، ما تقول في قول مالك وأهل الحجاز؟ قال: ليس قول إلاّ قولي، قلت: ما تقول في قول أبي حنيفة وأصحابه؟ قال: ليس قول إلاّ قولي. قلت: ما تقول في قول الشافعي؟ قال: ليس قول إلاّ قولي؛ ولكن قوله ضد قول أهل البدع»[4].

---

(١) الآية ٦٠ من سورة الأنبياء.

(٢) الانتقاء (٧١) وبعض الآية من سورة الكهف من الآية ١٣.

(٣) الوافي بالوفيات (٢ : ١٧٦).

(٤) آداب الشافعي ومناقبه (ص ٧٢).

فِقهُ الشّافعي

الفقه لغة: فهم الشيء، وكل علم لشيء فهو فقه[1]، والفقه اصطلاحاً: «عبارة عن العلم بالأحكام الشرعية العملية الثابتة لأفعال المكلفين خاصة»[2].

وقد يطلق اصطلاحاً على «معرفة الأحكام الشرعية التي طريقها الاجتهاد» [3].

لم يعلم أكثر علماء الشريعة ـ بعد القرن الرابع ـ الفقه إلّا أنه عبارة عن أحكام فُرغ من الاجتهاد فيها، فهم علماء مقلدون، تقيدوا باجتهاد إمام المذهب أو خلفائه، ولكن المتقدمين من هؤلاء امتازوا بتلقي الأحكام ومعها أدلتها مع إتقانهم لعلم الخلاف، وبذلك دنوا من الاجتهاد. وضعف في المتأخرين منهم الاستناد إلى الدليل وتقيدوا بأصول المذهب، وامتازوا بكثرة التفريع؛ ولو بالفرض والتقدير لما يمكن أن يقع، وأحياناً لما لا يمكن أن يقع.

أما علماء السلف فلم يدرسوا الفقه إلّا على أنه اجتهاد، وقد يأخذ بعضهم عن بعض؛ ولكن أن يقنع بدليله ويوقن أنه الأرجح والأقوى.

---

(١) المصباح المنير.

(٢) المستصفى (١: ٤).

(٣) دستور العلماء مادة (الفقه).

وهم فئتان: فئة تفقهت وغلب عليها الأثر، كسفيان الثوري، وابن عيينة، ومالك، وأحمد بن حنبل. والأخرى: عرفت الأثر وغلب عليها الرأي ـ وهو القياس ـ كالنخعي وحماد، وربيعة الرأي، وأبي حنيفة.

والشافعي ـ رحمه الله ـ كما قرأت قبل ـ أخذ علم هؤلاء وأولئك وعرف حقيقة ما عندهم، وفقه خلافهم، ثم اجتهد فأصَّل الأصول، وقعَّد القواعد، وخرج على الناس بمدرسة ثالثة، هي بين مدرسة الحديث ومدرسة الرأي: أي أنه تمسك بصحيح السنة واستعملها، ولم يهمل صحيح القياس الذي هو فرع للنص، وأوضح ما يشير إلى ذلك كلمة لأحمد بن حنبل يقول فيها: «ما زلنا نلعن أهل الرأي ويلعنوننا حتى جاء الشافعي فمزج بيننا»[١].

يقول القاضي عياض ـ تعليقاً على هذه الكلمة ـ: «يريد أنه تمسك بصحيح الآثار واستعملها، ثم أراهم أن من الرأي ما يحتاج إليه، وتنبني أحكام الشرع عليه، وأنه قياس على أصولها ومُنتَزع منها. وأراهم كيفية انتزاعها، والتعلق بعللها وتنبيهاتها، فعلَّم أصحاب الحديث أن صحيح الرأي فرع للأصل، وعلَّم أصحاب الرأي أنه لا فرع إلا بعد الأصل، وأنه لا غنى عن تقديم السنن وصحيح الآثار أولاً»[٢] إ هـ.

---

(١) ترتيب المدارك (١ : ٩٥).

(٢) ترتيب المدارك (١ : ٩٥).

وهكذا كان الشافعي بالفعل، فإنه مهما يؤصل من أصل، ويحكم من قياس، وينتزع مِن عِلَّة، يطرح ذلك كله إن اطَّلع على حديث ثابت يخالف أصوله، أو يجعله ـ إن أمكن ذلك ـ خاصاً مستخرجاً من عام.

قال الربيع بن سليمان: «قلت للشافعي: إن علي بن معبد[1] أخبرنا بإسناده عن النبي ﷺ: أنه أجاز بيع القمح في سنبله إذا ابيضَّ. فقال: «أما هذا فغرر؛ لأنه يحول دونه، فلا يُرى. فإن ثبت الخبر عن النبي ﷺ، قلنا به، وكان خاصاً مستخرجاً من عام. كما منعنا بيع الصُّبرة[2] بعضها فوق بعض، لأنها غرر. فلما أجازها النبي ﷺ أجزناها كما أجازها، وكان خاصاً مستخرجاً من عام، لأن رسول الله ﷺ نهى عن بيع الغرر، وأجاز هذا[3].

وكذلك أجاز بيع الشِّقص[4] من الدار، وجعل فيه الشفعة[5] لصاحب الشفعة؛ وإن كان الأساس منها مَغيباً لا

---

(١) هو: علي بن معبد بن شداد العبدي الرقي، نزيل مصر، عن الليث ومالك وابن المبارك وخلق، وعنه دحيم وأبو حاتم، ووثقه، مات سنة ٢١٨.

(٢) الصبرة: الطعام المجتمِع ـ كالقمح وغيره ـ كالكومة، وجمعها: صبُر.

(٣) كان القفال يمنع بيع الصبرة، ويفتي فيه بمذهب الشافعي.

(٤) الشقص: القطعة من الأرض، والطائفة من الشيء.

(٥) الشفعة لغة: من الشفع، وهو الضم. وشرعاً: حق تملك قهري يثبت للشريك القديم، على الشريك الحادث، فيما ملك بعوض ـ بما ملك به.

يرى، وخشباً في الحائط لا يرى، فلما أجاز ذلك أجزناه كما أجازه ـ وإن كان فيه غرر ـ وكان خاصاً مستخرجاً من عام»[1].

ولسنا نستطيع هنا أن نستفيض في البحث عن فقه الشافعي. فهذا يحتاج إلى كتاب كبير مستقل، على أن القارىء سيشعر أنا لم ندع مناسبة تستدعي الحديث عن فقهه إلّا وتحدثنا فيها على قدر ما يتسع المقام.

الشافعي أول واضع لعلم الأصول، وكتابه الرسالة:

أجمع العلماء والفقهاء: أن أول من ابتدع علم الأصول الشافعي. قال الفخر الرازي: «كانوا قبل الإمام الشافعي يتكلمون في مسائل أصول الفقه، ويستدلون ويعترضون، ولكن ما كان لهم قانون كلي مرجوع إليه في معرفة الشريعة، وفي كيفية معارضاتها وترجيحاتها، فاستنبط الشافعي علم أصول الفقه، ووضع للخلق قانوناً كلياً يرجع إليه في معرفة مراتب أدلة الشرع، فثبت أن نسبة الشافعي إلى علم الشرع كنسبة أرسطاطاليس إلى علم العقل»[2].

---

(١) آداب الشافعي ومناقبه (٨٧ ـ ٨٨).

(٢) مناقب الشافعي (٥٧).

وقال بدر الدين الزركشي[1] في كتاب «البحر المحيط في الأصول ـ مخطوط ـ» : «الشافعي أول من صنَّفَ في أصول الفقه، صنف فيه كتاب الرسالة، وكتاب أحكام القران، واختلاف الحديث، وإبطال الاستحسان، وكتاب جماع العلم، وكتاب القياس»[2]. ويقول ابن خلكان[3]: «الشافعي أول من تكلم في أصول الفقه، وهو الذي استنبطه»[4] ويقول العلامة الأسنوي[5]: «الشافعي أول من صنف في أصول الفقه بإجماع، وأول من قرر ناسخ الحديث من منسوخه».

ويقول دبيس[6]: جئت إلى حسين ـ يعني الكرابيسي ـ فقلت: ما تقول في الشافعي؟ فقال: «ما أقول في رجل ابتدأ في أفواه الناس: الكتاب والسنة والاتفاق؟! ما كنا ندري ما

---

(١) الزركشي: هو محمد بن عبد الله الزركشي، تركي الأصل، مصري المولد والوفاة، من علماء الشافعية والأصول، توفي سنة ٧٩٤ هـ.

(٢) مقدمة الرسالة لأحمد محمد شاكر (١٣).

(٣) ابن خلكان: هو أحمد بن محمد بن إبراهيم الإربلي، المؤرخ الحجة، صاحب وفيات الأعيان، توفي سنة ٦٨١ هـ.

(٤) وفيات الأعيان (١: ٥٦٦).

(٥) الأسنوي: هو عبد الرحيم بن الحسن بن علي الأسنوي: فقيه أصولي من علماء العربية، انتهت إليه رياسة الشافعية، وولي الحسبة ووكالة بيت المال، توفي سنة ٧٧٢ هـ.

(٦) ولعله: دبيس بن سلام القباني كما في التاج، والقصباني كما في الميزان. روى عن علي بن عاصم.

الكتاب والسنة ـ نحن ولا الأولون ـ حتى سمعنا من الشافعي: الكتاب والسنة والإجماع»[1].

وقال محمد بن مسلم بن وارة: لما قدمت من مصر، أتيت أبا عبد الله أحمد بن حنبل أسلم عليه فقال لي: كتبت كتب الشافعي؟ فقلت: لا، فقال لي: «فرطت! ما عرفنا العموم من الخصوص، وناسخ حديث رسول الله ﷺ من منسوخه، حتى جالسنا الشافعي»[2].

وهذا يؤكد بما لا مجال للشك فيه: أن الشافعي واضع أصول الفقه عامة، لا أن ذلك بالنسبة إلى مذهبه خاصة، وأنه أول من أنشأ هذا العلم وابتدعه، وما من أحد ألف في هذا العلم بعده إلا وهو عالة عليه.

والذي أثار فكرة هذا العلم عند الشافعي ـ وكان شاباً ـ رسالة جاءته من إمام أهل الحديث في عصره عبد الرحمن بن مهدي ـ وكان في العراق ـ يطلب فيها منه: «أن يضع له كتاباً فيه معاني القرآن، ويجمع مقبول الأخبار فيه، وبيان الناسخ والمنسوخ من القرآن والسنة، فوضع له كتاب الرسالة»[3].

وإنما هي رسالته إلى عبد الرحمن بن مهدي، أرسلها مه الحارث ابن سريج النقَّال، وبسبب ذلك سمي النقال.

---

(١) آداب الشافعي ومناقبه (٥٧).

(٢) معجم الأدباء (١٧: ٣١٣) وانظر الحلية (٩: ٩٧).

(٣) تاريخ بغداد (٢: ٦٤) والمجموع (١: ١٦).

وهكذا أشتهر اسمها بين العلماء في عصره وما بعده، أما الشافعي نفسه فلم يسم «الرسالة» بهذا الاسم، إنما كان يسميها الكتاب، أو يقول: «كتابي».

والذي يدعو إلى الإعجاب أن يكون الشافعي كتب هذه الرسالة في أصول الفقه، وهو شاب طلبها منه إمام في بغداد في الحديث، ومعنى هذا أن للشافعي الشاب شهرة في العلم والعقل، حملت إمام المحدثين أن يطلب منه أن يفيده بأصول العلم والفقه، ولما وصلت إليه الرسالة جعل يتعجب ويقول: «لو كان أقل لنفهم! لو كان أقلّ لنفهم!»[1] وقال: «لما نظرت الرسالة للشافعي أذهلتني لأنني رأيت كلام رجل عاقل فصيح ناصح، فإني لأكثر له الدعاء»[2]. وقال: «ما ظننت أن الله خلق مثل هذا الرجل»[3] فأي نبوغ هذا؟! وأي مجد علمي ارتقى إليه الشافعي في سن مبكرة؟!.

وليس ابن مهدي وحده المذهول بكتاب «الرسالة» وإنما أئمة كثيرون، استبدَّ بهم الإعجاب بها، وبما تضمنته من علم جديد كل الجدّة، جدير بالعناية والدرس، فهذا المزني يقول: «قرأت الرسالة خمسمائة مرّة، ما من مرّة إلاّ واستفدت منها فائدة جديدة» وفي رواية عنه قال: «أنا أنظر في الرسالة من

---

(١) طبقات الشافعية (٢ : ١١٢).

(٢) توالي التأسيس (٥٥).

(٣) مرآة الجنان (٢ : ١٨).

خمسين سنة، ما أعلم أني نظرت فيها مرّة إلّا واستفدت شيئاً لم أكن عرفته»[1].

وهذا يحيى بن سعيد القطّان[2] قال حين عرض عليه كتاب الرسالة: «ما رأيت أعقل أو أفقه منه»[3]. وقال عبد الملك الميموني: «قال لي أحمد بن حنبل: لم أنظر في كتاب أحد ممن وضع كتب الفقه غير الشافعي. وإنه قال لي: لم لا تنظر فيها؟ وذكر لي كتاب «الرسالة» فقدَّمه من كتبه، فقلت: يا أبا عبد الله؛ بم ذاك الكلام بالاحتجاج، ونحن مشاغيل بالحديث»[4]؟!.

والمؤكد أن الشافعي ألف «الرسالة» مرتين: «الرسالة القديمة» وألفها في مكة أو في بغداد، ولعل الراجح أنه ألفها

---

(١) المجموع (١: ١٦).

(٢) هو: يحيى بن سعيد بن فروخ القطان التميمي، من الحفاظ ثقة حجة، من أقران مالك وشعبة، كان يفتي بقول أبي حنيفة، توفي سنة ١٩٨ هـ.

(٣) تهذيب الأسماء واللغات (١: ٥٩).

(٤) آداب الشافعي ومناقبه (٦١) ويريد الميموني: بأي عدة نفهم ذلك الكلام الاستدلالي، وقد قصرنا همتنا على جمع الحديث وروايته؟! كأنه يعتذر عن قراءته بعدم أهليته، وليس مراده الحط من قيمته، وهذا يذكرنا بقول الشافعي لابن مقلاص: «يا أبا علي، أتريد أن تحفظ الحديث وتكون فقيهاً؟ هيهات ما أبعدك من ذلك؟!».

بمكة، إذ كتب إليه عبد الرحمن بن مهدي، وأجابه الشافعي وأرسلها إليه، فمن ثَمَّ سميت الرسالة، وقد سلف قريباً القول فيها. ولما ارتحل إلى مصر أعاد تأليف الرسالة القديمة فيوجد منها بعض النصوص في كتب المتأخرين: كابن الصلاح والنووي وابن القيم(١).

يقول الفخر الرازي: «اعلم أن الشافعي رضي الله عنه، صنف كتاب الرسالة ببغداد، ولما رجع إلى مصر أعاد تصنيف كتاب الرسالة، وفي كل واحد منهما علم كثير»(٢) وعن فوران قال: سمعت كتب أحمد بن حنبل بين ولديه: صالح، وعبد الله، فوجدت فيها رسالة الشافعي القديمة والجديدة: العراقية، والمصرية»(٣).

الشافعي يرفض أن يقلّده أحد

التقليد: «اتباع الإنسان غيره فيما يقول، بقول أو بفعل، معتقداً فيه، من غير نظر، وتأمل في الدليل، كأن هذا المتبع جعل قول الغير أو فعله قلادة في عنقه»(٤).

(١) هو: محمد بن أبي بكر بن أيوب الزرعي الدمشقي، أحد كبار العلماء، تتلمذ لشيخ الإسلام ابن تيمية وسجن معه في قلعة دمشق، مولده ووفاته في دمشق سنة ٧٥١ هـ.

(٢) مناقب الشافعي (٥٧).

(٣) توالي التأسيس (٧٧).

(٤) دستور العلماء (١ : ٣٤١).

والتقليد نوعان: إما أن يكون في أصول الإيمان والعقائد، وإما أن يكون في فروع الأحكام المستنبطة من الأصول الأربعة: الكتاب، والسنة، والإجماع، والقياس.

أما التقليد في الإيمان والعقائد، فأقل ما يقال في إيمان المقلد فيهما: إنه مشكوك فيه، وأمّا التقليد في الأحكام ـ وهو المقصود هنا ـ فلا جناح فيه على فاقد الأهلية، أو فاقد الملكة، من عوام الناس أو أشباههم من الذين لم يدعوا فرجة في عقولهم أو في حياتهم يشغلونها بالبحث عن الدليل، ومن هؤلاء كثيرون في كل عصر ومصر. حتى في عهد الصحابة والتابعين، فأكثر الصحابة والتابعين، ومن بعدهم يستفتون في قضاياهم وواقعاتهم المختصين من أهل العلم بذلك، وما أقلَّ من توفر له من الذكاء والعقل والعلم والفضل ما يجعله أهلاً للاجتهاد المطلق.

لا جناح على غير هؤلاء وأمثالهم في أن يقلدوا؛ بشرط أن يعتقدوا بجزم ويقين: أن ليس لأحد ـ مهما يبلغ مقامه في ذروة الاجتهاد ـ دون الله ورسوله حجة، وليس لأحد دون الله ورسوله أن يَشرعَ.

وما لهؤلاء المجتهدين، إلاّ الأمانة في تبليغ الناس دين الله، والاجتهاد فيما يمكن في مثله أن يختلف فيه.

أما أولئك الذين لهم استعداد واطلاع وملكة، يستطيعون بها تمييز الباطل من الحق والموازنة بين الأدلة، ومعرفة قويها

من ضعيفها، فلا يعذرون عند الله، أن يدعوا النظر في النص ـ من كلام الله أو سنّة رسوله ـ ويتشبثوا بقول مجتهد، فالله تعالى يقول لأمثال هؤلاء: ﴿ولا تَقْفُ ما ليس لك به علم﴾[1] والمعنى: لا تتبع ما لا تعلم، ويقول تعالى: ﴿اتبعوا ما أنزل إليكم من ربكم، ولا تتبعوا من دونه أولياء، قليلاً ما تذكرون﴾[2] ويقول تعالى: ﴿فإن لم يستجيبوا لك فاعلم: أنما يتبعون أهواءهم، ومن أضلّ ممن اتبع هواه بغير هدىً من الله، إن الله لا يهدي القوم الظالمين﴾[3].

يقول ابن القيم: «فقسم الأمر إلى أمرين لا ثالث لهما: إما الاستجابة لله والرسول وما جاء به، وإما اتباع الهوى، فكل ما لم يأت به الرسول فهو من الهوى».

ولسنا بسبيل الخوض في بحث «الاجتهاد والتقليد» فهذا يحتاج إلى بحث ضافٍ مستقل.

والذي نريد قوله هنا: إن الأئمة كلهم ـ وخصوصاً منهم الأربعة أصحاب المذاهب المدونة المنتشرة ـ يأبون بإصرار أن يقلدهم أحد، وما يعد مقلداً من التزم أقوالاً عرف أدلتها، وأيقن ثبوتها، وقنع بها بقليل من التجرد؛ فإذا لم يتوفر له ذلك؛ اتجه إلى حيث يطمئن ويوقن ويقنع.

---

(١) الآية ٣٦ من سورة الإسراء.

(٢) الآية ٣ من سورة الأعراف.

(٣) الآية ٥٠ من سورة القصص.

وهذا ما كان سائداً عند اتباع المذاهب، وخصوصاً منهم أصحاب الأئمة، ولأمر ما سُموا أصحاباً ولم يُسموا تلاميذ، فيقولون في أبي يوسف ومحمد بن الحسن: الصاحبان، ويقولون: أصحاب مالك، وأصحاب الشافعي.

ولعل ذلك كان لمشاركتهم أئمتهم فيما استدلوا به ومشاركتهم فيما قالوا به، وكثيراً ما خالفوهم في حياتهم وبعد مماتهم؛ لاعتقادهم أن الله سبحانه لم يتعبد أحداً بقول أحد، وإنما تعبدنا بقوله سبحانه، ثم بقول رسوله، وكل واحد ـ سواهما ـ يؤخذ منه ويرد عليه، واستجابة لطلبهم حين أجمعوا على الشعار الذي نسب إلى الإمام أبي حنيفة، كما صحّ عن الإمام الشافعي: «إذا صحّ الحديث فهو مذهبي».

بل لقد كانوا أصرح من ذلك، فقد قال أبو حنيفة ـ رحمه الله ـ لأصحابه: «إن توجه لكم دليل فقولوا به» وبناء على هذا القول نقل ابن عابدين صاحب الحاشية عن شرح الهداية لابن الشحنة ما نصه: «إذا صحّ الحديث وكان على خلاف المذهب، عمل بالحديث، ويكون ذلك مذهبه»[1] والشافعي ـ رحمه الله ـ كغيره من الأئمة ينهى أن يقلده أحد فيما يقول. يقول المزني ـ وكان من أبرز تلاميذ الشافعي وأقيسهم ـ في أول كتابه المختصر: «هذا الكتاب من علم محمد بن إدريس الشافعي ـ رحمه الله ـ ومن معنى قوله، لأقربه على من

(١) رد المحتار على الدر المختار (١ : ٤٨).

أراده، مع إعلاميه نهيه عن تقليده وتقليد غيره، لينظر فيه لدينه، ويحتاط فيه لنفسه»[1] وقال الشافعي في الرسالة: «وبالتقليد أغفل من أغفل منهم، والله يغفر لنا ولهم»[2].

وقال حرملة: سمعت الشافعي يقول: «كل ما قلت لكم، فلم تشهد عليه عقولكم وتقبله، وتره حقاً؛ فلا تقبلوه، فإن العقل مضطر إلى قبول الحق»[3].

وقد تقدم ـ في باب اتباع الشافعي للسنة ـ كثير من أقوال الشافعي في الحض على طرح قوله واجتهاده؛ إذا ثبتت السنة بخلافه، وحاشا لأحد من الأئمة وعلماء السلف أن يدَّعي: أن قوله أو مذهبه شرع بذاته، من غير أن يكون له مستند من كتاب أو سنة.

مُناظرات الشّافِعي

قدرته على المناظرة:

لم يعرف في عصر الشافعي من له قدرة الشافعي على المناظرة وإفحام الخصم، في جميع المسائل الاجتهادية، وهذا ما شهر به بين العلماء، وما من أحد في عصره كملت

---

(١) المختصر، على هامش الأم (١: ٢).

(٢) الفقرة (١٣٦).

(٣) آداب الشافعي ومناقبه (٩٢).

فيه أدوات المناظرة وأسباب الفَلج كما كملت فيه، ومن أعظم هذه الأدوات: حدة ذكائه، وسرعة خاطره، وتوثب الحجج إلى ذهنه، ولمح الوهن في أدلة خصمه، وبيانه الذي لا يجارى فيه، وثروته اللفظية والتعبيرية الهائلة، مع قوة جنانه، وثباته عند اصطراع العقول، ورمق العيون للعيون.

يقول الربيع: قلت للشافعي: من أقدر الناس على المناظرة؟ فقال: من عوَّد لسانه الركض في ميدان الألفاظ، ولم يتلعثم إذا رمقته العيون بالألحاظ [١].

وكان هارون بن سعيد يصور اقتدار الشافعي على كسب الظفر، حين يناظر العلماء فيقول: «لو أن الشافعي ناظر على هذا العمود الذي من حجارة، بأنه من خشب لغلب، لاقتداره على المناظرة» [٢].

ولهذه القوة كان كثير ممن شهده يناظر يرثي لحال مناظره، ويرحمه ويشفق عليه، قال محمد بن عبد الله بن عبد الحكم: «ما رأيت الشافعي ناظر أحداً إلاّ رحمته، ولو رأيت الشافعي يناظرك لظننت أنه سبع يأكلك، وهو الذي علم الناس الحجج» [٣]. وقال الربيع للمزني: «لو ناظر ـ أي الشافعي ـ الشيطان قطعه وجدّله» [٤].

(١) طبقات الشافعية (٢: ١٣٩).
(٢) توالي التأسيس (٥٩).
(٣) الوافي بالوفيات (٢: ١٧٣) وتوالي التأسيس (٦٠).
(٤) الوافي بالوفيات (٢: ١٧٥) ومعنى جدله: صرعه.

وهذه الحال والقدرة كانت تكون حتى مع كبار العلماء، ممن يجلهم الشافعي ويقدرهم. فهـذا محمد بن الحسن العالم الجليل، شيخ أصحاب الرأي وأحد الصاحبين وأستاذ الشافعي، أراد مرة أن يناظـره، وقد كان يناظر أصحابه، فأبى الشافعي إجلالاً له، وأصرّ إلّا أن يدخل معه في المناظرة، فما إن حمي وطيسها، حتى بدا على محمد بن الحسن أمـارات الضيق والاضـطراب في وجهـه وهيئتـه، يقـول الشافعي: «ناظرت محمد بن الحسن يوماً، فاشتدت مناظرتي إياه، فجعلت أوداجه تنتفخ، وأزراره تنقطع زراً زراً»[1]. واضطرب مرّة أصبغ بن الفرج[2] حتى هَذَى، لا يدري ما يقول، حين اشتد عليه الشافعي في المناظرة، قال الربيع: «جاء أصبغ بن الفرج فناظر الشافعي في مسألة، فلما ضغطه الشـافعي، قال أصبـغ: الموت يعمـل عمله، فقال لـه الشافعي: وإيش هذا مما نحن فيه، ومتى شككنا أن الموت يعمل عمله»[3]؟!.

حلم الشافعي وخفض صوته في المناظرة:

لا يربح الجولة في المناظرة إلّا من حلم، ولا يحلم إلا

---

(١) آداب الشافعي ومناقبه (١٦٠).

(٢) هو: أصبغ بن الفرج بن سعيد، فقيه من كبار المالكية في مصر، توفي سنة ٢٢٥ هـ.

(٣) توالي التأسيس (٦٤).

الواثق من قدرته، والمطمئن إلى نفاذ حجته، ومن دلائل الثقة خفض الصوت، أما من يخف، فيطيش ويجهل؛ يعتاض هذا من العلم والبرهان، فمستحيل أن يكسب الفلج في المناظرة، والسفه والطيش والخفة من نتاج الإخفاق. يقول أبو عثمان ابن الشافعي: «ما سمعت أبي يناظر أحداً قط، فيرفع صوته»[1].

ومن حلمه ـ رحمه الله ورضي عنه ـ صبره على الأحداث من طلبة العلم، ولو أساؤا الأدب، فقد جلس الشافعي يوماً في حلقته، فجاء غلام حَدَث، فسأله عن مسألة، فأجابه، ثم سأله عن أخرى، فقال: أخطأتَ، فقال له الشافعي: «أخطأت يا ابن أخي ما في كتابك، وأما الحق فلا»[2].

نبله في المناظرة وسمو روحه:

ندر في البشر من يدع نزوعه إلى بشريته في حب السيطرة والغلب ويتعلق بمثل من دينه وشرفه ومروءته، أما الشافعي في مناظراته؛ فقد سما عن ذلك، فما ناظر أحداً ليظهر عليه، أو ليعتد بحجته وقوته، بل كان يريد أن يهدي مناظره إلى طريق الحق ويعينه عليه، يقول الحسين بن علي الكرابيسي:

سمعت الشافعي يقول: «ما ناظرت أحداً قط إلّا أحببت

---

(١) تهذيب الأسماء واللغات (٦٦).

(٢) توالي التأسيس (٦٤).

أن يوفق أو يسدّد أو يعان، ويكون له رعاية من الله وحفظ، وما ناظرت أحداً إلاّ ولم أبال بيّن الله الحق على لساني أو لسانه»[1]. وعن أحمد بن خالد الخلال: سمعت الشافعي يقول: «ما ناظرت أحداً فأحببت أن يخطىء»[2] ويقول الشافعي: «ما ناظرت أحداً على الغلبة»[3] وإنما كان يناظر على النصيحة. يقول الشافعي: «ما ناظرت أحداً قط إلاّ على النصيحة»[4] يريد بذلك الإخلاص في تعليم غيره، وهدايته للصواب ودلالته على الحق.

ومقياس تقديره لمناظره ليس بحيله وأحابيله، ولا بوفرة علمه ولا بجهارة صوته، وشططه في القول، وإنما بإنصافه ورغبته بالحق، واستجابته للحجة والدليل، فكان يقول: «ما عرضت الحجة على أحد فقبلها؛ إلاّ عظم في عيني، ولا عرضتها على أحد فردها، إلاّ سقط من عيني»[5].

أمثلة من مناظراته:

يقول النووي: «وفي كتاب الأم للشافعي ـ رحمه الله ـ من هذه المناظرات، جمل من العجائب والنفائس الجليلات، والقواعد المستفادات، وكم من مناظرة واقعة فيه يقطع كل

---

(١) (٢) توالي التأسيس (٦٥).

(٣) تهذيب الأسماء واللغات (١: ٦٦).

(٤) توالي التأسيس (٦٥).

(٥) توالي التأسيس (٦٤).

من وقف عليها، وأنصف، وصدق أنه لم يسبق إليها»[1].

بل أقول: من استطاع أن يتجرد عن دوافع العصبية، وقدر أن يتحرر من التقليد إلى الدليل، وعرف قطعاً أن الحق لا يعرف بالرجال، لا يجد بداً - في نتيجة كل مناظرة - إلاّ أن يسلِّم له قوله، ويقر له بحجته. وتكاد المناظرات والمحاورات تملأ معظم كتب الشافعي، وفيها كلها تمحيص الأدلة، واختيار أصحها وأوضحها وأقواها، وليس بوسعنا في هذا الكتاب الصغير أن نأتي إلاّ بأمثلة قصيرة من مناظراته، ومن أراد أن يتعلم أصول البحث والمناظرة، واستثارة الحجة ودفع إيرادات الخصم، فليرجع إلى مناظراته في كتبه كلها، وخصوصاً منها: الرسالة، واختلاف الحديث، والأم.

وإليك نماذج من صغار مناظراته:

من تلك المناظرات ما روي من أن أحمد بن حنبل ناظر الشافعي في ترك الصلاة، فقال له الشافعي:

يا أحمد، أتقول: إنه يكفر؟

قال أحمد: نعم.

قال الشافعي: إذا كان كافراً فبم يسلم؟

قال أحمد: يقول: لا إله إلا الله محمد رسول الله.

قال الشافعي: فالرجل مستديم لهذا القول لم يتركه.

قال أحمد: يُسلِم بأن يصلي.

(١) تهذيب الأسماء واللغات (١: ٥٠).

قال الشافعي: صلاة الكافر لا تصح، ولا يحكم بالإسلام بها.

فانقطع أحمد وسكت[1].

ومناظراته لمحمد بن الحسن وردوده عليه كثيرة، تجد معظمها في الرسالة وفي الأم، وخصوصاً الجزء السابع، ومن هذه المناظرات ما رواه عبد الله بن الزبير بن عيسى القرشي الحميدي قال: قال الشافعي:

كتبت كتب محمد بن الحسن، وعرفت قولهم، وكان إذا قام ناظرت أصحابه. فقال لي ـ ذات يوم ـ في الغضب: بلغني أنك تخالفنا. قلت: إنما ذلك شيء أقوله على المناظرة، فقال: قد بلغني غير هذا، فناظرني، فقلت: إني أجلك وأرفعك عن المناظرة، فقال: لا بد من ذلك، فلما أبى قلت: هات.. قال: ما تقول في رجل غصب من رجل ساجة[2]، فبنى عليها بناءً، أنفق عليها[3] ألف دينار؛ فجاء صاحب الساجة، فثبّت بشاهدين عدلين: أن هذا اغتصبه هذه الساجة، وبنى عليها هذا البناء، ما كنت تحكم فيها؟.

قلت: أقول لصاحب الساجة: يجب أن تأخذ قيمتها، فإن

---

(١) طبقات الشافعية (٢ : ٦١).

(٢) الساج: خشب يجلب من الهند، واحدته: ساجة . إ هـ لسان.

(٣) هكذا في الأصل: ولعلها «عليه» بدل عليها.

رضي حكمت له بالقيمة؛ وإن أبى إلا ساجته قلعت البناء ورددت ساجته.

فقال لي: ما تقول في رجل غصب من رجل خيط إبْرَيْسَم[1]، فخاط به بطنه؛ فجاء صاحب الخيط، فثبّت بشاهدين عدلين: أن هذا اغتصبه هذا الخيط، فخاط به بطنه، أكنت تنزع الخيط من بطنه؟

فقلت: لا.

قال: الله أكبر، تركت قولك، وقال أصحابه: تركت قولك!

فقلت: لا تعجلوا، أخبروني: لو أنه لم يغصب الساجة من أحد، وأراد أن يقلع هذا البناء عنها، ويبني غيره ـ أمباح له؟ أم محرم عليه؟.

قالوا: بل مباح له.

قلت: أفرأيت: لو كان الخيط خيط نفسه، فأراد أن ينزع هذا الخيط من بطنه ـ أمباح ذلك له؟ أم محرم عليه؟.

قالوا: بل محرم عليه.

قلت: فكيف تقيس مباحاً على محرم؟!

ثم قال: أرأيت لو أن رجلاً اغتصب من رجل لوح ساجة،

---

(١) الإبريسم: الحرير، وقيل: معرب.

أدخله في سفينته، ولجج في البحر، فثبّت صاحب اللوح بشاهدين عدلين أن هذا اغتصبه هذا اللوح وأدخله في سفينته ـ أكنت تنزع اللوح من السفينة؟.

قلت: لا.

قال: الله أكبر؛ تركت قولك! وقال أصحابه: تركت قولك!

فقلت: أرأيت: لو كان اللوح لوح نفسه، ثم أراد أن ينزع ذلك اللوح من السفينة ـ حال كونها في لجة البحر ـ أمباح ذلك له؟ أم محرم عليه؟

قال: محرم عليه.

قال: وكيف يصنع صاحب السفينة؟.

قلت: آمره أن يقرب سفينته إلى أقرب المراسي، مرسى لا يهلك فيه هو ولا أصحابه، ثم أنزع اللوح، وأدفعه إلى صاحبه، وأقول له: أصلح سفينتك واذهب.

قال محمد بن الحسن ـ فيما يحتج به ـ أليس قد قال النبي ﷺ: «لا ضرر ولا إضرار»[1].

قلت: هو أضر بنفسه، لم يُضر به أحد.

ثم قلت له: ما تقول في رجل اغتصب من رجل جارية،

---

(١) في أكثر المراجع «ضرار» بدل «إضرار» وهو المشهور، وورد هذا اللفظ من بعض روايات الموطأ، وسنن ابن ماجه والدار قطني.

فأولدها عشرة، كلهم قد قرأوا القرآن، وخطبوا على المنابر، وقضوا بين المسلمين، فثبّت صاحب الجارية بشاهدين عدلين أن هذا اغتصبه هذه الجارية، وأولدها هؤلاء الأولاد ـ فنشدتك؛ ما كنت تحكم؟

قال: كنت أحكم بأولاده رقيقاً لصاحب الجارية، وأرد الجارية عليه.

فقلت: رحمك الله؛ أيهما أعظم ضرراً: إن رددت أولاده رقيقاً، أو إن قلعت البناء عن الساجة؟!

ومن طريف ما روي في مناظرات الشافعي: أنه تناظر مع أبي عبيد ـ وهو القاسم بن سلّام ـ في معنى «القرء» في القرآن ـ والقرء أصلاً من الأضداد، يطلق على الطهر وعلى الحيض ـ فلم يزل كل منهما يقرر قوله، حتى تفرقا وقد انتحل كل منهما مذهب صاحبه، وتأثر بما أورده من الحجج والشواهد.

يقول السبكي: وإن صحت هذه الحكاية، ففيها دلالة على عظمة أبي عبيد، فلم يبلغنا عن أحد أنه ناظر الشافعي، ثم رجع الشافعي إلى مذهبه.

الشافعي وَعلمُ الكلام

كان المسلمون ـ ورسول الله بين أظهرهم ـ يداً واحدة

على من سواهم، قد فقهوا روح الإسلام؛ وجعلوا كلمة الله هي العليا، فإذا اختلفوا في شيء حكموا رسول الله فيما شجر بينهم، وأذعنوا لقوله، ولم يجدوا حرجاً مما قضى. فما انتقل رسول الله ﷺ حتى حاول الشيطان بكل ما أوتي من قوة أن يزرع الفتنة في طريق المسلمين، ويبث بينهم الخلاف والفرقة، ولكن المسلمين باعتصامهم بحبـل الله، أحبطوا كيده، وسدوا ثغرة كادت تنفتح لولا أن وقى الله شرها، وتمت مبايعة أبي بكر رضي الله عنه خليفة لرسول الله.

ولكن بقيت جرثومة للخلاف خامدة، نفثها الشيطان في صدور أولئك الذين لا يريدون وجه الله والدار الآخرة، حتى كان آخر عهد عثمان رضي الله عنه، وهناك ذر قرن الخلاف، وانقسم الناس شيعاً، وعظم ذلك في عهد علي رضي الله عنه، ونجحت الآراء والأهواء، ثم نمت واتسعت بالمحاجة والخصومة، حتى كان لكل هـوى أشياع يـدافعون عنـه، ويؤيدونه بما استطاعوا من قوة ودليل، فاستعانوا بفلسفة يونان وبمنطق أرسطو على تأييد عقائدهم، وخشيت فئة من علماء المؤمنين الصادقين أن يدخل على إيمان الناس شيء من آراء أهل الأهواء، فاستعملت أساليبهم، فكان بذلك «علم الكلام» أو «علم أصول الدين» وهو ـ كما عرَّفوه ـ: «علم يقتدر على إثبات العقائد الدينية، بإيراد الحجج عليها، ورفع الشبـه عنها»[1].

---

(١) مفتاح السعادة (٢ : ٢٠).

والكثرة الكاثرة من أئمة المسلمين وعلمائهم لم تأبه لهذا الاتجاه، ولزمت أقرب ما كان عليه العقيدة والدين زمن رسول الله ﷺ، فورث علماء التابعين علم الكتاب والسنّة في أصول الإيمان وفروع الدين من علماء الصحابة، وورث تابعوهم هذا العلم منه، وحرصوا جميعاً على أن يستمسكوا بفطرة الإسلام، ولم يسمحوا أن يدب إلى قلوبهم وعقولهم في دين الله شيء من هذه الفلسفات، التي تنقض اليوم ما أبرمت أمس، وربط دين خالد موحىً به بفلسفة اصطنعها البشر، يجعله عرضة للمحو والإثبات والتغيير والتبديل، وما يزعم أحد أنه قد قيل في الفلسفة الكلمة الأخيرة، وكذلك كان يكون شأن الدين لو ارتبط بالفلسفة، ولا يستوي ما صنع الله وما صنع البشر. هكذا كان صراط أئمة الدين ومنهم الشافعي، انصرفوا إلى التفقه في دين الله، مصدرهم الكتاب والسنة، لا يعبأون بما سواهما. يقول الحسين بن علي الكرابيسي: قال الشافعي: «كل متكلم من الكتاب والسنة فهو الحق، وما سواهما هذيان»[1] وقال الإمام أحمد: «كان الشافعي إذا ثبت عنده الحديث قال به، وخير خصاله أنه لم يكن يشتهي الكلام، إنما همته الفقه»[2]. ولكم صرح الشافعي ـ كالأئمة كلهم ـ بكره «علم الكلام» ونفوره من المتكلمين، لا يريد أن يجالسهم، ولا أن يسمع مقالاتهم،

(١) توالي التأسيس (٦٤).

(٢) توالي التأسيس (٦٣).

قال الشافعي: «ما شيء أبغض إليَّ من الكلام وأهله»[1]. وكان يقول: «ما تردَّى أحد بالكلام فأفلح»[2]. وقال الربيع بن سليمان المرادي: رأيت الشافعي وهو نازل من الدرجة، وقوم في المجلس يتكلمون بشيء من الكلام، فصاح بهم فقال: «إما أن تجاورونا بخير، وإما أن تقوموا عنا»[3].

وكان ـ رحمه الله ـ يرى أن اقتراف ذنب ما ـ عدا الشرك ـ أنجى عند الله من أن يلقاه بمقالة من هذه الأهواء، فهو يقول: «لأن يلقى الله عز وجل المرءُ بكل ذنب ـ ما خلا الشرك بالله تبارك وتعالى ـ خير له من أن يلقاه بشيء من هذه الأهواء»[4]. ولهذا كان يكره أن يخوض أحد في مجلسه في الكلام، قال الربيع: وكان إذا خيض في مجلسه في الكلام نهى عنه[5]. وقال المزني: كان مذهب الشافعي الكراهية في الخوض في الكلام، وقال: كان الشافعي ينهانا عن الخوض في الكلام[6].

وقد روي عنه أيضاً أنه قال: «لو يعلم الناس ما في علم

---

(١) شذرات الذهب (٢: ٩).

(٢) آداب الشافعي (١٨٦).

(٣) آداب الشافعي (١٨٤).

(٤) آداب الشافعي (١٨٧) وتوالي التأسيس (٦٤).

(٥) تهذيب الأسماء واللغات (١: ٦٥).

(٦) آداب الشافعي (١٨٨).

الكلام من الأهواء لفروا منه فرارهم من الأسد»[1].

وحكم على أهل الكلام حكماً قاسياً يتناسب مع أهوائهم فقال: «حكمي في أهل الكلام أن يضربوا بالجريد، ويطاف بهم في العشائر والقبائل، ويقال: هذا جزاء من ترك السنّة، وأخذ في الكلام»[2] وقال أيضاً: «إذا سمعت الرجل يقول: الاسم: هو المسمّى، أو غيره، فاشهد أنه من أهل الكلام، ولا دين له»[3].

ونقل قريب من ذلك عن الأئمة الثلاثة، وخصوصاً الإمامين مالكاً وأحمد[4].

---

(١) (٢) (٣) مفتاح السعادة (٢ : ٢٦).

(٤) لم يكن علماء السلف يأخذون عقائدهم في أصول الدين من البحث في ذات الله تعالى وصفاته، والنبوة، والمعاد، وهي مسائل علم الكلام ـ لم يكونوا ليأخذوها إلا من ظاهر الكتاب والسنة، دون التعمق في مدلولات الألفاظ حتى تخرج عما وضعت له، إيثاراً للسلامة في عقائدهم، وحفظاً لدينهم أن تتلاعب به العقول المتفلسفة المحدودة.

ثم أتى في أوائل القرن الرابع من أهل السنة والجماعة من أراد أن يمحق باطل أهل الأهواء والبدع، ويبطل مقالتهم، بمثل سلاحهم، ورأس هؤلاء: الإمام أبو الحسن الأشعري الشافعي، والثاني: أبو منصور الماتريدي الحنفي فأنشآ «علم الكلام» وحاولا فيه أن يكون على طريقة الكتاب والسنة، وسبيلهما فيه: «إثبات ما ورد في الشرع بالعقل فقط؛ إذا توقف الشرع على تلك المسألة، =

وليس من كراهية الشافعي لعلم الكلام أنه كان يتخلى عن الإجابة في مسائل هي من علم الكلام، بل كان يجيب إذا سئل بما يوافق الكتاب والسنة، أو يدفع بدعة إن عرضت، وقد روي عنه إجابات في مسائل نذكر بعضها:

رأيه في مسألة خلق القرآن:

«خلق القرآن» مسألة ابتدعها المعتزلة، ولم يتكلم بها السلف، وخلاصة هذه الفكرة عندهم: في كتاب للمأمون[1] إلى نائبه على بغداد يقول في غضونه: «وذلك أنهم ـ أي الجمهور الأعظم ـ ساووا بين الله وبين خلقه وبين ما أنزل من القرآن، فأطبقوا على أنه (أي القرآن) قديم، لم يخلقه الله،

= أو بالعقل والشرع معاً إذا لم يكن كذلك».

ثم أتى من بعدهما علماء ثبتوا هذا العلم على هذه الطريق، وتوسعوا فيه حتى صار إسلامياً معتبراً، وجعل الفقهاء تعلمه فرض عين عند الشافعية وفرض كفاية عند الأحناف.

هذا «علم كلام» أهل السنة لم يدركه أئمة الدين، ولم يريدوه ـ بالطبع ـ في حملاتهم على أهل الكلام.

وإنما يريدون «علم الكلام» الذي عرف في عصرهم، ككلام المعتزلة والمرجئة والروافض وأمثالهم.

(١) هو: عبد الله بن هارون الرشيد بن محمد المهدي، سابع الخلفاء من بني العباس في العراق، نفذ أمره من إفريقية إلى أقصى خراسان وما وراء النهر، وكان عالماً حكيماً فصيحاً، وأخباره كثيرة، توفي سنة ٢١٨ هـ عن ٤٨ سنة.

ولم يخترعه، وقد قال تعالى: ﴿إنا جعلناه قرآناً عربياً﴾[1].

فكل ما جعله الله فقد خلقه، كما قال: ﴿وجعل الظلمات النور﴾[2] وقال: ﴿كذلك نقص عليك من أنباء ما قد سبق﴾[3] فأخبر أنه قصص لأمور أحدثها، وقال: ﴿كتاب أحكمت آياته ثم فصلت﴾[4] والله محكم كتابه ومفصله، فهو خالقه ومبتدعه...»[5].

هذا ما قالوه من ناحية النص. وأما حجتهم العقلية في ذلك، فما قالوه: «إذا قلنا: إن القرآن كلام الله، وكلام الله صفة من صفاته، والله وصفاته وحدة لا تنفصل، إذا قلنا ذلك فقد وقعنا في المحال، ذلك لأن القرآن إذا كان كلاماً أزلياً وهو صفة من صفات الله، فكيف نقول بما فيه من الأوامر والنواهي؟ والأوامر والنواهي لا قيمة لها ما لم تصادف مأمورين ومنهيين، ولم يكن في الأزل مأمورون ومنهيون.

وقد أشار الزمخشري[6] ـ رحمه الله ـ وهو من المعتزلة ـ

---

(١) الآية ٣ من سورة الزخرف.

(٢) الآية ١ من سورة الأنعام.

(٣) الآية ٩٩ من سورة طه.

(٤) الآية ١ من سورة هود.

(٥) مفتاح السعادة (٢: ٣٩).

(٦) هو: محمود بن عمر بن محمد الخوارزمي الزمخشري، جار الله: من أئمة العلم بالدين والتفسير واللغة والآداب، ولد في زمخشر، وسافر إلى مكة فجاورَ بها زمناً، فلقب بجار الله، توفي سنة ٥٣٨ هـ.

إلى مجمل أدلتهم في خطبة تفسيره «الكشاف» إذ يقول: «الحمد لله الذي أنزل القرآن كلاماً مؤلفاً منظماً، ونزله بحسب المصالح منجماً، وجعله بالتحميد مفتتحاً، وبالاستعاذة مختتماً، وأوحاه على قسمين: متشابهاً ومحكماً، وفصّله سوراً، وسوره آيات، وميز بينهن بفصول وغايات، وما هي إلا صفات مبتدَأ مبتدع، وسمات منشَأ مخترع؛ فسبحان من استأثر بالأولية والقدم، ووسم كل شيء سواه بالحدوث عن العدم، أنشأه كتاباً ساطعاً تبيانه، قاطعاً برهانه، وحياً ناطقاً ببينات وحجج، قرآناً عربياً غير ذي عوج».

فقول الزمخشري هنا: «وما هي إلا صفات مبتدأ مبتدع، كالنتيجة لقوله: «الحمد لله الذي أنزل القرآن كلاماً مؤلفاً منظماً.. الخ»

وإذا استحال ـ على حد قولهم ـ أن يكون القرآن وكل الكتب المنزلة قديمة، وجب أن نقول: إنها مخلوقة لله، فكلام الله تعالى عبارة عن أصوات وحروف يخلقها الله في غيره، فتصل إلى النبي عن طريق ملك ونحوه، كما قال تعالى: ﴿ وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحياً، أو من وراء حجاب، أو يرسل رسولاً، فيوحي بإذنه ما يشاء[1] ﴾.

وفي رأيهم أن القرآن وغيره إنما سمي كلام الله لأنه خلق الله من غير واسطة، وأما كلامنا فينسب إلينا.

(١) الآية ٥١ من سورة الشورى.

هذه خلاصة رأي المعتزلة في موضوع خلق القرآن. أما رأي المتكلمين من أهل السنة، وهو الذي أتى به أبو الحسن الأشعري[1] فقال: كلام الله يطلق إطلاقين كما هو الشأن في الإنسان، فالإنسان يسمى متكلماً باعتبارين، أحدهما بالصوت، والآخر بكلام النفس الذي ليس بصوت ولا حرف، وهو المعنى القائم بالنفس الذي يعبر عنه بالألفاظ. وإذا انتقلنا من الإنسان إلى الله، رأينا أن كلامه تعالى يطلق بهذين الإطلاقين: المعنى النفسي وهو القائم بذاته، وهو الأزلي القديم، وهو لا يتغير بتغير العبارات، ولا يختلف باختلاف الدلالات، وهذا الذي نريده إذا وصفنا كلام الله بالقدم، وهو الذي يطلق عليه كلام الله حقيقة، أما القرآن ـ بمعنى المقروء المكتوب ـ فهو بلا شك كما يقول المعتزلة: حادث مخلوق، فإن كل كلمة تقرأ تنقضي بالنطق بما بعدها، فكل كلمة حادثة، فكذا المجموع المركب منها، ويطلق على هذا المقروء المكتوب «كلام الله» مجازاً[2].

---

(١) هو: أبو الحسن علي بن إسماعيل الأشعري المتكلم، نسبة إلى أبي قبيلة باليمن وهو الأشعر بن سبأ، البصري. إمام حبر، تبع أولاً مذهب الجبائي، واستمر على الاعتزال أربعين سنة، ثم تركه وانتصر لعقيدة أهل السنة، وصار إمام المتكلمين، توفي سنة ٣٢٤ هـ.

(٢) ضحى الإسلام (٣: ٤٠).

وقد حاول الجرجاني[1] تقريب شقة الخلاف بين المعتزلة ومتكلمي أهل السنة، فقال بعد كلام طويل: «إذا عرفت هذا، فاعلم أن ما يقوله المعتزلة في كلام الله تعالى، وهو خلق الأصوات والحروف الدالة على المعاني المقصودة، وكونها حادثة قائمة بغير ذاته تعالى ـ نحن نقول به، ولا نزاع بيننا وبينهم فيه، وما نقوله نحن: كلام النفس المغاير لسائر الصفات، فهم ينكرون ثبوته، ولو سلموه لم ينفوا قدمه، فصار كل النزاع نفي المعنى النفسي أو إثباته»[2].

وأما أئمة الدين علماء السلف فقد ناهضوا المعتزلة وردوا أقوالهم، وعدوها جرأة على الله، وتجاوزاً على الدين، ولم يركنوا لردود علماء الكلام من أهل السنة لموافقتهم لهم ببعض ما قالوه.

وهم «يرون أن الله وصف نفسه بصفات: من قدرة، وإرادة، وعلم، وكلام، وسمع، وبصر، ووصف نفسه أنه على العرش، وقال: ﴿ليس كمثله شيء﴾[3] فيجب أن نؤمن بها كما جاءت، ولا نتعرض لتأويلها وشرحها، فنجري

---

(١) هو: علي بن محمد بن علي المعروف بالشريف الجرجاني. من كبار علماء الكلام والعربية، فيلسوف، له مصنفات كثيرة، منها «شرح مواقف الأيجي» توفي سنة ٨١٦ هـ.

(٢) شرح المواقف (٣: ٧٩).

(٣) الآية ١١ من سورة الشورى.

ظواهر النصوص على مواردها، ونكف عن تأويلها، ونفوض معانيها إلى الله، قالوا: وقد درج أصحاب رسول الله على ترك التعرض لمعانيها، ودرك ما فيها، وهم صفوة الإسلام والمستقلون بأعباء الشريعة، وكانوا لا يألون جهداً في ضبط قواعد الملة، والتواصي بحفظها، وتعليم الناس ما يحتاجون إليه منها، فلو كان تأويل هذه الظواهر مسوغاً أو محتوماً؛ لأوشك أن يكون اهتمامهم بها فوق اهتمامهم بفروع الشريعة، وإذا انصرم عصرهم وعصر التابعين على الإضراب عن التأويل، كان ذلك هو الوجه المتبع.. الخ»[1]

فلما أثار المعتزلة القول بخلق القرآن، قال علماء السلف: «القرآن كلام الله، لا نقول مخلوق، ولا غير مخلوق»[2] أما رأي الشافعي في هذه المسألة فهو رأي علماء السلف «القرآن كلام الله» إلّا أنه قال: «غير مخلوق» بل ربما كفّر من قال: «القرآن مخلوق». يقول الربيع بن سليمان: حدثني من أثق به فقال: وكنت حاضراً في المجلس، فقال حفص الفرد[3]: «القرآن مخلوق» فقال الشافعي: «كفرت بالله العظيم»[4].

ويقول أيضاً[5]: «حضرت الشافعيَّ، أو حدثني أبو شعيب؛

---

(١) ضحى الإسلام (٣: ٣٧) عن أبي المعالي الجويني.
(٢) ضحى الإسلام (٣: ٣٩).
(٣) حفص الفرد: هو أبو عمرو البصري، من أصحاب أبي يوسف.
(٤) (٥) آداب الشافعي ومناقبه (١٩٤).

إلَّا أني أعلم: أنه حضر عبد الله بن عبد الحكم، ويوسف بن عمرو بن يزيد[1]، وحفص الفرد ـ وكان الشافعي يسميه: حفصاً المنفرد ـ فسأل حفص عبدَ الله بن عبد الحكم، فقال: ما تقول في القرآن؟ فأبى أن يجيبه، فسأل يوسف بن عمرو بن يزيد، فلم يجبه، وكلاهما أشار إلى الشافعي.

فسأل الشافعي، فاحتج عليه الشافعي، وطالت فيه المناظرة فأقام الشافعي الحجة عليه، بأن القرآن كلام الله غير مخلوق، وكفّر حفصاً الفرد.

قال الربيع: فلقيت حفصاً الفرد في المجلس بعدُ، فقال: «أراد الشافعي قتلي».

وفي غير رواية الرازي: «فقام حفص مغضباً، فلقيته بعد في سوق الدجاج بمصر، فقال: رأيت ما فعل بي الشافعي؟! ثم إنه مع هذا لا أعلم إنساناً أعلم منه»[2].

الإيمان قول وعمل:

ذهب قوم إلى أن الإيمان: «هو المعرفة بالقلب، والإقرار باللسان، فإذا عرف المرء الدين بقلبه، وأقر بلسانه، فهو مسلم كامل الإيمان والإسلام، وأن الأعمال تسمى إيماناً،

---

(١) هو: يوسف بن عمرو بن يزيد الفارسي المصري، عن ابن لهيعة والليث، وعنه الشافعي والحارث بن مسكين، وكان رجلاً فاضلاً، توفي سنة ٢٠٥ هـ.

(٢) توالي التأسيس (٥٦).

ولكنها شرائع الإيمان». وهذا قول أبي حنيفة وجماعة من الفقهاء، وقول أهل الإرجاء.

وذهب سائر الفقهاء، وأصحاب الحديث، والمعتزلة والشيعة وجميع الخوارج إلى الإيمان: «هو المعرفة بالقلب بالدين، والإقرار به باللسان، والعمل بالجوارح، وأن كل طاعة، وعمل خير، فرضاً كان أو نافلة، فهي إيمان، وكلما ازداد الإنسان خيراً ازداد إيمانه، وكلما عصى نقص إيمانه»[1].

وهذا هو ما ذهب إليه الشافعي، وروي عنه. قال أبو عثمان محمد بن محمد بن إدريس الشافعي: سمعت أبي - يعني محمد بن إدريس الشافعي - يقول ليلة للحميدي: ما يحتج عليهم - يعني أهل الإرجاء - بآية أحج من قوله تعالى: ﴿ وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين حنفاء، ويقيموا الصلاة، ويؤتوا الزكاة، وذلك دين القَيِّمة ﴾[2]. وقال الربيع: سمعت الشافعي يقول: «الإيمان: قول وعمل واعتقاد بالقلب؛ ألا ترى قول الله عز وجل: ﴿ وما كان الله ليضيع إيمانكم ﴾[3] يعني صلاتكم إلى بيت المقدس، فسمى الصلاة إيماناً، وهي قول وعمل وعقد»[4].

---

(١) الفصل لابن حزم (٣: ١٨٨).

(٢) الآية ٥ من سورة البينة.

(٣) الآية ١٤٣ من سورة البقرة.

(٤) الانتقاء (٨١).

وعلى هذا القول: «الإيمان قول وعمل» فالإيمان يزيد حتى يدخل صاحبه الجنة، وينقص حتى يدخل صاحبه النار، وقد ورد في القرآن الكريم آيات صريحة بذلك. من ذلك قوله تعالى: ﴿ إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم، وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيماناً، وعلى ربهم يتوكلون ﴾[1]. وقوله تعالى: ﴿ وإذا ما أنزلت سورة؛ فمنهم من يقول: أيكم زادته هذه إيماناً فأما الذين آمنوا فزادتهم إيماناً، وهم يستبشرون ﴾[2] وقوله تعالى: ﴿ هو الذي أنزل السكينة في قلوب المؤمنين ليزدادوا إيماناً مع إيمانهم ﴾[3]. وهذا ما اعتقده الشافعي، قال الربيع: سمعت الشافعي يقول: «الإيمان: قول وعمل، يزيد وينقص»[4].

وقال حرملة بن يحيى: «اجتمع حفص الفرد ومصلاق[5] الأباضي عند الشافعي في دار الجروي - يعني بمصر - فاختصما في الإيمان؛ فاحتج مصلاق في الزيادة والنقصان، واحتج حفص في أن الإيمان: قول. فعلا حفص الفرد على

---

(١) الآية ٢ من سورة الأنفال.

(٢) الآية ١٢٤ من سورة التوبة.

(٣) الآية ٤ من سورة الفتح.

(٤) تهذيب الأسماء واللغات (١: ٦٦).

(٥) مصلاق: لم نعثر له على ترجمة، ونسبته إلى فرقة من الخوارج تسمى الأباضية.

مصلاق، وقوي عليه، وضعف مصلاق. فحمي الشافعي، وتقلد المسألة ـ على أن الإيمان: قول وعمل، يزيد وينقص ـ فطحن حفصاً الفرد وقطعه»[1].

رأي الشافعي برؤية الله يوم القيامة:

جمهور علماء السلف متفقون: على أن أهل الجنة يرون ربهم؛ لظاهر قوله تعالى: ﴿ وجوه يومئذ ناضرة. إلى ربها ناظرة ﴾[2]. ولما روى مسلم في صحيحة عن صهيب عن النبي ﷺ قال: «إذا دخل أهل الجنة الجنة، قال الله تبارك وتعالى: تريدون شيئاً أزيدكم؟ فيقولون: ألم تبيض وجوهنا؟ ألم تدخلنا الجنة وتنجنا من النار؟ قال: فيكشف الحجاب، فما أعطوا شيئاً أحب إليهم من النظر إلى ربهم عز وجل. وفي رواية، ثم تلا: ﴿ للذين أحسنوا الحسنى وزيادة ﴾[3].

ولما روى جرير بن عبد الله قال: كنا عند رسول الله ﷺ جلوساً، فنظر إلى القمر ليلة البدر، فقال: «إنكم سترون ربكم عياناً كما ترون هذا القمر، لا تضامون في رؤيته، فإن استطعتم ألا تغلبوا على صلاة قبل طلوع الشمس وقبل غروبها فافعلوا» ثم قرأ: ﴿ وسبح بحمد ربك قبل طلوع

---

(١) آداب الشافعي ومناقبه (١٩٢).

(٢) الآيتان ٢٢ و ٢٣ من سورة القيامة.

(٣) الآية ٢٦ من سورة يونس.

الشمس وقبل الغروب ﴾[1] متفق عليه.

والقول برؤية الله هو قول أبي بكر الصديق، وعلي بن أبي طالب في رواية، وحذيفة[2]، وعبادة بن الصامت[3]، وكعب بن عجرة[4]، وأبي موسى[5]، وصهيب[6]، وابن

---

(١) الآية ٣٩ من سورة ق.

(٢) هو: حذيفة بن حسل بن جابر العبسي، يقال له: حذيفة بن اليمان، صحابي كان صاحب سر النبي ﷺ في المنافقين، توفي سنة ٣٦ هـ.

(٣) هو: عباد بن الصامت بن قيس الخزرجي الأنصاري، صحابي شهد العقبتين وبدراً، مات بالرملة سنة ٣٤ هـ.

(٤) هو: كعب بن عجرة بن أمية: صحابي، شهد المشاهد كلها، وفيه نزلت الآية: ﴿ففدية من صيام أو صدقة أو نسك﴾ توفي بالمدينة سنة ٥١ هـ.

(٥) هو: عبد الله بن قيس بن سليم، أبو موسى، من بني الأشعر، صحابي جليل من الشجعان الولاة، وأحد الحكمين بين علي ومعاوية بعد حرب صفين، توفي سنة ٤٤ هـ.

(٦) هو: صهيب بن سنان بن مالك، يعرف بصهيب الرومي، كان من أرمى العرب سهماً، ولد صهيب في منازل قومه على شط الفرات، فأغار الروم على ناحيتهم فسبوا صهيباً، واشتراه منهم أحد بني كلب وقدم به مكة، فابتاعه عبد الله بن جدعان ثم أعتقه، ولما ظهر الإسلام أسلم، ولما هاجر المسلمون إلى المدينة، منعه مشركو قريش، فتنازل لهم عن جميع ماله وكان وفيراً فخلوا سبيله، وشهد بدراً وأحداً والمشاهد كلها، توفي سنة ٣٨ هـ.

عباس في رواية، وهو قول جماعة من التابعين، وهو الصحيح في الباب[1]. أما المراد من قوله تعالى: ﴿لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار﴾[2]، فهو أنهم ينظرون إلى الله لا تحيط به أبصارهم من عظمته كما قاله عطية العوفي[3].

ومذهب الشافعي في هذا هو ما قاله جمهرة علماء السلف: وهو أن أولياء الله يرون ربهم في الآخرة، روى ذلك عنه الربيع بن سليمان، وأبو حنيفة قحزم بن عبد الله الأسواني، والمزني، وحرملة بن يحيى وغيرهم. وهذا هو الصحيح[4]. وقد روى عنه بعض أهل الكلام خلاف ذلك ولا يصح عنه[5].

والصحيح ما ذكره المزني عن ابن هرم قال: سمعت الشافعي يقول في قوله تعالى: ﴿كلا إنهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون﴾[6] دليل على أن أولياء الله يرونه في الآخرة[7]. وقال الربيع: كنت ذات يوم عند الشافعي، وجاءه

(١) تفسير القرطبي (٨: ١١٠).
(٢) الآية ١٠٣ من سورة الأنعام.
(٣) تفسير القرطبي (٩: ١١٠) وعطية العوفي: هو عطية بن سعد بن جنادة العوفي، من رجال الحديث، كان يعد من شيعة أهل الكوفة، خرج مع ابن الأشعث، توفي بالكوفة سنة ١١١ هـ.
(٤) (٥) الانتقاء (٨١ ـ ٨٢).
(٦) الآية ١٥ من سورة المطففين.
(٧) الانتقاء (٨١ ـ ٨٢).

كتاب من الصعيد يسألونه عن قوله عز وجل: ﴿كلا إنهم عن ربهم يومئذٍ لمحجوبون﴾ فكتب: «لما حجب قوماً بالسخط؛ دل على أن قوماً يرونه بالرضى» قلت له: أوتدين بهذا يا سيدي؟ فقال: «والله لو لم يوقن محمد بن إدريس: أنه يرى ربه في المعاد؛ لما عبده في الدنيا»[1].

رأيه في المفاضلة بين الصحابة:

الصحابة رضوان الله عليهم، كلهم معدَّلون وكلهم مفضَّلون، سطع عليهم نور الإسلام، وبينهم نزل الوحي، وأسوتهم الظاهرة رسول الله، وأفضل خلق الله طبق أحكام الله. وقد أثنى عليهم ربهم في كتابه الكريم بقوله: ﴿كنتم خير أمةٍ أخرجت للناس﴾[2] وقوله: ﴿وكذلك جعلناكم أمة وسطاً﴾[3] وقوله: ﴿والسابقون الأولون من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان، رضي الله عنهم ورضوا عنه﴾[4].

والأحاديث الواردة في تفضيل الصحابة كثيرة، ومن أدلها على المقصود ما رواه الترمذي وابن حبان في صحيحه من حديث عبد الله بن مغفَّل، قال: قال رسول الله ﷺ: «اللهَ الله

---

(١) طبقات الشافعية (٢ : ٨١).

(٢) الآية ١١٠ من سورة آل عمران.

(٣) الآية ١٤٣ من سورة البقرة.

(٤) الآية ١٠٠ من سورة التوبة.

في أصحابي لا تتخذوهم غرضاً، فمن أحبهم فبحبي أحبهم، ومن أبغضهم فببغضي أبغضهم، ومن آذاهم فقد آذاني، ومن آذاني فقد آذى الله، فيوشك أن يأخذه».

وكان أبو زرعة الرازي يقول: إذا رأيتم الرجل ينتقص أحد من أصحاب رسول الله ﷺ؛ فاعلموا أنه زنديق، وذلك أن الرسول حق، والقرآن حق، وما جاء به حق، وإنما أدّى إلينا ذلك كله الصحابة، وهؤلاء يريدون أن يجرحوا شهودنا ليبطلوا الكتاب والسنة، والجرح بهم أولى، وهم زنادقة»[1].

أما فضل الصحابة بعضهم على بعض، فقد أشارت آيات من كتاب الله إلى ذلك. منها قوله تعالى: ﴿ لا يستوي منكم من أنفق من قبل الفتح وقاتل، أولئك أعظم درجة من الذين أنفقوا من بعد وقاتلوا، وكلًا وعد الله الحسنى ﴾[2] وقوله تعالى: ﴿ والسابقون الأولون من المهاجرين والأنصار ﴾.

وإنما يتفاضل الصحابة رضوان الله عليهم بسابقة الإسلام وعميق الإيمان، وبذل الأموال، والجهاد في سبيل الله. قال تعالى: ﴿ فالذين آمنوا به، وعزّزوه، ونصروه، واتبعوا النور الذي أنزل معه، أولئك هم المفلحون ﴾[3] فالسابقون

---

(١) الإصابة (١ : ١٠) عن كتاب الكفاية.
(٢) من الآية ١٠ من سورة الحديد.
(٣) سورة الأعراف من الآية ١٥٧.

الأولون جروا في الفضل في شوط واحد، ولكن بعضهم أسبق بالفضل من بعض.

واختلف الناس في أيهم أفضل، ولا يعبأ الله برأي من يرفع في الفضل أحدهم، ليضع من فضل غيره وينحت أثلته[1]. والرأي الذي اجتمع عليه أئمة الإسلام وعلماؤهم وفقهاؤهم، ومعهم متقدمو المعتزلة؛ هو أن أفضل الناس بعد نبيها: أبو بكر، ثم عمر، ثم عثمان، ثم علي رضي الله عنهم جميعاً.

وهذا الترتيب بالأفضلية هو ما كان يراه الإمام الشافعي، فقد قال: «اضطر الناس بعد رسول الله ﷺ فلم يجدوا تحت أديم السماء خيراً من أبي بكر، فلذلك استعملوه على رقاب الناس»[2].

وعن الحارث بن سريج قال: سمعت إبراهيم بن عبد الله الحَجَبي يقول للشافعي: ما رأيت هاشمياً قد قدَّم أبا بكر وعمر على علي رضي الله عنه غيرك!. قال الشافعي: «علي ابن عمي، وأنا رجل من بني عبد مناف، وأنت رجل من بني عبد الدار، فلو كانت هذه مكرمة كنت أولى بها منك، ولكن ليس الأمر على ما تحسب»[3].

---

(١) يقال مجازاً: نحت أثلته: إذا تنقصه.

(٢) طبقات السبكي (٢: ١٢٦).

(٣) طبقات السبكي (١: ١٩٤).

وهذا القول من الشافعي يبطل ما ادّعاه ابن النديم[1] في كتابه «الفهرست» إذا يقول: «وكان الشافعي شديداً في التشيُّع» «وذكر له رجل يوماً مسألة، فأجاب فيها، فقال له: خالفت علي بن أبي طالب رضي الله عنه، فقال له: «ثبِّتْ لي هذا عن علي بن أبي طالب حتى أضع خدي على التراب، وأقول قد أخطأت، وأرجع عن قولي إلى قوله» وحضر ذات يوم مجلساً فيه بعض الطالبيين، فقال: «لا أتكلم في مجلس بحضرة أحدهم، هم أحق بالكلام، ولهم الرياسة والفضل»[2].

ولا دليل فيما ذكر هنا ـ إن صحّ ـ على شدته في التشيع، ففي الأول: استبعاد لما ينسب إلى علي من حكم، وفي الثاني: زيادة تبجيل وتقدير للطالبيين، ولا يجعله حبه لآل البيت شديداً في التشيع، بل حبهم سنة السلف جميعهم، لا يشذ عن ذلك إلا هالك.

وأما قول الشافعي:

إن كان رفضاً حب آل محمدٍ
فليشهد الثقلان أني رافضي

---

(١) هو: محمد بن إسحاق بن محمد، أبو الفرج بن أبي يعقوب النديم، صاحب كتاب الفهرست، وهو بغدادي، وكان معتزلياً متشيعاً، عاش قراب تسعين سنة، توفي سنة ٤٣٨ هـ.

(٢) الفهرست لابن النديم (٢٩٥).

فواضح أنه لا يدل على الرفض، والذي يريده من قوله هذا: أنه لا يتخلى عن حبه لآل البيت، ولو قذف بالرفض، والدليل ما أثر عنه في الرافضة من قوله: «لم أر أحداً ـ من أصحاب الأهواء ـ أشهد بالزور من الرافضة»[1].

وعن يونس بن عبد الأعلى قال: سمعت الشافعي إذا ذكر الرافضة عابهم أشد العيب، ويقول: «شرُّ عِصابة»[2].

وكان يقول في الخلافة: «الخلفاء خمسة: أبو بكر، وعمر، وعثمان، وعلي، وعمر بن عبد العزيز»[3].

رأي الشافعي في رؤية الجن:

الجن خلاف الإنس، والواحد: جني. يقال: سميت بذلك لأنها تخفى ولا ترى، هذا ما قاله صاحب التاج. وما نحن بسبيل التبسط في موضوع الجن، وما قيل فيه، غاية ما نريد قوله هنا: أن «الجن» ورد في القرآن نحواً من عشرين مرة، ولها سورة مستقلة، أولها: ﴿قل أوحي إليّ أنه استمع نفر من الجن﴾[4].

---

(١) آداب الشافعي ومناقبه (١٨٧).

(٢) توالي التأسيس (٦٤).

(٣) آداب الشافعي ومناقبه (١٨٩).

(٤) الآية ١ من سورة الجن.

واختلف أهل العلم ـ كما يقول القرطبي ـ في أصل الجن، فروى إسماعيل عن الحسن البصري: أن الجن ولد إبليس، والإنس ولد آدم، ومن هؤلاء مؤمنون وكافرون، وهم شركاء في الثواب والعقاب؛ فمن كان من هؤلاء وهؤلاء مؤمناً فهو ولي الله، ومن كان من هؤلاء وهؤلاء كافراً فهو شيطان[1].

ولفظ «الجن» معناه في الأصل: الاستتار، فالجيم والنون إذا اجتمعا يدلان لغة على الستر، ففي القاموس: «جَنّه الليل، وعليه، جناً وجنوناً: ستره، وكل ما ستر عنك فقد جن عنك».

وقوله تعالى: ﴿إنه يراكم هو وقبيله من حيث لا ترونهم﴾[2] دليل أن الله عز وجل خلقهم خلقاً لا يُرَون فيه[3].

ومن هذا كان الشافعي يقول: «من زعم من أهل العدالة أنه يرى الجن، أبطلنا شهادته، لقوله تعالى: ﴿إنه يراكم هو وقبيله من حيث لا ترونهم﴾ إلّا أن يكون نبياً».

---

(١) الجامع لأحكام القرآن (١٩ : ٥).

(٢) الآية ٢٧ من سورة الأعراف.

(٣) على ما يقوله القرطبي في تفسيره.

لغة الشافِعيّ وَأدبُه وَشِعرُه

لو لم يكن الشافعي إماماً مجتهداً لكان من أنبغ أدباء العربية وكتّابها وشعرائها؛ إن لم يكن أنبغهم، وقد سلف القول بأنه بدأ حياته ـ بعدما ختم القرآن ـ بحفظ الشعر وروايته، وخرج إلى البادية يشافه الأعراب، ويسمع منهم، ويحفظ لغتهم، ويتدرب على أساليبهم حتى كان أفصح أهل عصره، قال الشافعي: «خرجت من المكتب، فقدمت هذيلاً أتعلم كلامها، وكانت أفصح العرب، فبقيت فيهم سبعة عشر يوماً، راحلاً برحلتهم، ونازلاً بنزولهم، فلما رجعت إلى مكة جعلت أنشد الأشعار، وأذكر الآداب والأخبار وأيام العرب.. الخ»[1].

وكان أهل العربية يحضرون مجلس الشافعي، لا لشيء إلّا أن يستمعوا له، ويستفيدوا لغته. قال الحسن بن محمد الزعفراني: «كان قوم من أهل العربية يختلفون إلى مجلس الشافعي معنا، ويجلسون ناحية، قال: فقلت لرجل من رؤسائهم: إنكم لا تتعاطون العلم، فلم تختلفون معنا؟ قالوا: نسمع لغة الشافعي»[2].

---

(١) ترتيب المدارك (٣٨٣) وقد تقدمت تتمتها في مبحث حياته في مكة.

(٢) معجم الأدباء (١٧ : ٢٩٩).

ولئن لم تحظ به الآداب العربية أشهر أديب في تاريخها، لقد ربحته الشريعة مجتهداً عظيماً مدافعاً عن السنة، عليماً بأسرارها، خبيراً بدلالاتها وعللها. ومع ذلك فهو بجزالة بيانه، واطلاعه على لغة قومه، وحفظه لآدابها وأشعارها، وإتقانه كتاب الله حفظاً وتعمقاً في فهمه، قليل النظير. قال المبرد[1]: «رحم الله الشافعي، فإنه كان من أشعر الناس، وآدب الناس، وأعرفهم بالقرآن»[2]. وقال يونس بن عبد الأعلى: «كان الشافعي إذا أخذ في العربية، قلت: هو بهذا أعلم، وإذا تكلم في الشعر وإنشاده، قلت: هو بهذا أعلم، وإذا تكلم في الفقه، قلت: هو بهذا أعلم»[3].

ودراسة الشافعي ـ أديباً لغوياً شاعراً ـ تحتاج إلى كتاب حافل، ومع ذلك لا بد من أن نقول شيئاً موجزاً نستكمل بذلك الحديث عن حياته الشخصية والعلمية.

لغة الشافعي:

الشافعي عربي قرشي، وحسبه ذلك ليكون صحيح الكلام وفصيحه، وقد كان النبلاء من العرب، وخصوصاً منهم القرشيين، يحرصون على سلامة لغتهم، خشية أن يدب إليها

---

(١) المبرد: هو محمد بن يزيد بن عبد الأكبر الأزدي، إمام العربية ببغداد في زمنه، مولده بالبصرة، ووفاته ببغداد سنة ٢٨٦ هـ.

(٢) توالي التأسيس (٦٢).

(٣) معجم الأدباء (١٧: ٣٠٠).

الفساد الذي بدأ في المائة الأولى، وكثر في المائة الثانية بعد العهد الأموي، ولكن الشافعي لم يكتف بذلك، بل رحل إلى هذيل ـ وكانت أفصح العرب ـ ليحفظ سليقته، ويزداد معرفة وفقهاً بلغتها: مفردات وكلاماً وأسلوباً، حتى صار كأنه واحد منها، يحتج بكلامه كما يحتج بكلامها. قال موسى بن أبي الجارود[1]: «كان يقال: إن محمد بن إدريس وحده يحتج به كما يحتج بالبطن من العرب»[2] وقال أحمد بن حنبل: «كلام الشافعي في اللغة حجة»[3]. وقال أيوب بن سويد[4]: «خذوا عن الشافعي اللغة»[5] وإليك في هذا شهادة المتخصصين في لغة العرب، فهذا أبو عبيد يقول: «كان الشافعي ممن تؤخذ عنه اللغة»[6] وقال ثعلب[7]: يأخذون على الشافعي[8] وهو من

(١) موسى بن أبي الجارود: أحد الثقات من أصحاب الشافعي، يرجع إليه عند اختلاف الرواية، روى عن يحيى بن معين وأبي يعقوب البويطي، روى عنه الزعفراني والربيع وأبو حاتم.

(٢) الطبقات الكبرى (٢: ١٦١).

(٣) توالي التأسيس (٥٧).

(٤) هو: أيوب بن سويد الشيباني الحميري، أبو مسعود الرملي، عن أسامة الليثي وابن جريج، وعنه الشافعي ودحيم، توفي سنة ١٨٢ هـ.

(٥) (٦) تهذيب الأسماء واللغات (١: ٥٠).

(٧) ثعلب: هو أحمد بن يحيى بن يسار، إمام الكوفيين في النحو واللغة، توفي سنة ٢٩١ هـ.

(٨) إشارة إلى أن بعضهم أخذ على الشافعي مثل قوله: «ماء مالح» وقد =

بيت اللغة، يجب أن يؤخذ عنه اللغة»[1].

وجاء في تاج العروس مادة «عول» ما يلي:

«عال» فلان عولاً وعيالة ككتابة كثر عياله: كأعول وأعيل على المعاقبة، وبه فسر قوله تعالى: ﴿ذلك أدنى أن لا تعولوا﴾ أي أدنى لئلا يكثر عيالكم، وهو قول عبد الرحمن بن زيد بن أسلم. قال الأزهري: وإلى هذا القول ذهب الشافعي، قال: والمعروف: عال الرجل يعول إذا جار، وأعال يعيل إذا كثر عياله، وقال الكسائي: عال الرجل يعول: إذا افتقر. قال الأزهري: وهذا يؤيد ما ذهب إليه الشافعي في تفسير الآية، لأن الكسائي لا يحكي عن العرب إلّا ما

= سئل أبو عمر غلام ثعلب عنها، فقال: كلام الشافعي صحيح. وفي التاج: يقال: ماء مالح وملح. قال أبو منصور: هذا وإن وجد في كلام العرب قليلاً ـ لغة لا تنكر.

وقال ابن بري: قد جاء المالح في أشعار الفصحاء، كقول الأغلب العجلي يصف أتناً وحماراً:

تخاله من كربهن كالحاً
وافتر صاباً ونشوقاً مالحاً

وقال عمر بن أبي ربيعة:

لو تفلت في البحر والبحر مالح
لأصبح ماء البحر من ريقها عذباً

(١) توالي التأسيس (٦٢).

حفظه وضبطه. قال: وقول الشافعي نفسه حجة لأنه رضي الله تعالى عنه عربي اللسان فصيح اللهجة، وقد اعترض عليه بعض المتحذلقين فخطّأه وقد عجّل ولم يتثبت فيما قال. ولا يجوز للحضري أن يعجل إلى إنكار ما لا يعرفه من لغات العرب»[1].

وقال المزني: «قدم الشافعي مصر، وبها عبد الملك بن هشام النحوي[2] صاحب المغازي، وكان علامة أهل عصره في اللغة والشعر، فذهب إلى الشافعي، ثم قال: ما ظننت أن الله خلق مثل الشافعي، ثم اتخذ قول الشافعي حجة في اللغة»[3].

وللشافعي شأن يذكر في علمه بالعربية، وفقهه بأساليب العرب ومقاصدها من أول شبابه، يوم كان يختلف إلى سفيان بن عيينة يأخذ عنه الحديث؛ وكان سفيان ـ على جلالة قدره وعلمه ـ يثق بفهم الشافعي لغة قومه، فكان يسأله على سمع الناس وبصرهم ما خفي من بعض تعابير الحديث، فقد تحدث مرّة بحديث عن النبي ﷺ: «وأقروا الطير على مكناتها» قال: وكان الشافعي إلى جنب ابن عيينة، فالتفت

---

(١) وانظر ما قاله اللسان.

(٢) عبد الملك بن هشام: هو أبو محمد جمال الدين، مؤرخ، كان عالماً بالأنساب واللغة، وأخبار العرب، توفي بمصر سنة ٢١٣ هـ.

(٣) تهذيب الأسماء واللغات (١: ٦٢).

إليه سفيان، فقال: يا أبا عبد الله ما معنى قول النبي ﷺ: «وأقـروا الطير على مكانتهـا؟».

قال الشافعي: «إن علم العرب كان في زجر الطير والخط والاعتياف، وكان أحدهم إذا غدا من منزله يريد أمراً، نظر أول طير يراه، فإن سنح عن يساره، فاجتاز عن يمينه، قال: هذا طير الأيامن، فمضى في حاجته ورأى أنه يستنجحها. وإن سنح عن يمينه فمر عن يساره، قال هذا طير الأشائم، فرجع وقال: هذه حاجة مشؤومة، فيشبه قول رسول الله ﷺ: «وأقروا الطير على مكناتها» أي لا تهيجوها، فإن تهييجها وما تعملون به من الطِّيَرَة لا يصنع شيئاً، وإنما يصنع فيما توجّهون فيه قضاء الله عز وجل». قال: وكان سفيان يفسره بعد ذلك على ما قال الشافعي[1].

الشافعي والشعر القديم:

جمع الشافعي إلى الموهبة ـ التي نبتت بنشأته ـ الملكة التي اكتسبها في هذيل حين أقام بينهم «وكانت ديارهم حوالي مكة، ولهم بها عدد وعدة ومنعة»[2] وقد اشتهرت هذه القبيلة بفصاحتها في نثرها وشعرها، وقد نبغ فيها من الشعراء ما لم ينبغ مثله كثرة وجودة في أي قبيلة أخرى. يقول ابن حزم:

---

(١) معجم الأدباء (١٧ : ٣٠٠).
(٢) جمهرة أنساب العرب (١٩٨).

«وفي هذيل نيف وسبعون شاعراً مشاهير»[1] ويقول الزبيدي: «وهذيل أعرقت في الشعر»[2]. فالشافعي ـ رضي الله عنه ـ في إقامته بينهم حفظ بإتقان وتذوق وفهم أكثر أشعار الهذليين المجيدين، واشتهر أمره في ذلك منذ أن كان فتى. قال الزبير بن بكار: قال لي عمي مصعب: «كتبت عن فتىً من بني شافع من أشعار هذيل ووقائعها وِقْراً، لم تر عيناي مثله، قلت: أي عم، أنت تقول: لم تر عيناي مثله؟! قال: نعم: لم تر عيناي مثله»[3]. وعن مصعب أيضاً، قال: «كان أبي والشافعي يتناشدان، فأتى الشافعي على شعر هذيل حفظاً، وقال: لا تعلم بهذا أحداً من أهل الحديث، فإنهم لا يحتملون هذا»[4].

ولقد قصد إليه لتلقي شعر الهذليين عنه أو تصحيحه كبار علماء هذا الشأن. من هؤلاء الأصمعي[5]، فقد كان يقول: صححت أشعار الهذليين على شاب من قريش بمكة، يقال له: محمد بن إدريس[6].

---

(١) جمهرة أنساب العرب (١٩٧).

(٢) تاج العروس، مادة (هذل).

(٣) توالي التأسيس (٥٩).

(٤) معجم الأدباء (١٧ : ٢٩٩).

(٥) الأصمعي: هو عبد الملك بن قريب راوية العرب، وأحد أئمة العلم باللغة والشعر والبلدان، وفاته بالبصرة ٢١٦ هـ.

(٦) تهذيب الأسماء واللغات (٥٠) ومعجم الأدباء (١٧ : ٢٩٩).

ويقول ابن خلكان: «إن الأصمعي ـ مع جلالة قدره في هذا الشأن ـ قرأ عليه (أي على الشافعي) شعر الهذليين»[1].

ولم يقتصر الشافعي على حفظ شعر الهذليين، وإنما كان يحفظ لغيرهم كثيراً. قال محمد بن عبد الله بن عبد الحكم: سمعت الشافعي يقول: «أروي لثلاثمائة شاعر مجنون»[2]. وكان الأصمعي يصحح شعر الشنفَري[3] على الشافعي. يقول أبو عثمان المازني[4]: سمعت الأصمعي يقول: قرأت شعر الشنفري على الشافعي بمكة[5]. وعن الرياشي[6] قال: كنت مع الأصمعي حين صحح على الشافعي شعر الشنفري[7].

---

(١) وفيات الأعيان (١: ٥٦٥).

(٢) تهذيب الأسماء واللغات (١: ٥٠).

(٣) الشنفري: هو عمرو بن مالك الأزدي من قحطان، شاعر جاهلي، كان من فتاك العرب، وعدائيهم، له لامية العرب المشهورة التي أولها: «أقيموا بني أمي مطي صدوركم»، توفي نحو سنة ٧٠ ق هـ.

(٤) أبو عثمان المازني: هو أبو عثمان بكر بن محمد من مازن شيبان، أحد الأئمة في النحو، توفي في البصرة سنة ٢٤٩ هـ.

(٥) معجم الأدباء (١٧: ٣١١).

(٦) الرياشي: هو العباس بن الفرج الرياشي أبو الفضل، لغوي، راوية قتل في البصرة أيام فتنة الزنج سنة ٢٥٧ هـ.

(٧) توالي التأسيس (٦١).

ولا شك أن الشافعي في جميع مراحل حياته ـ لم يهمل شعر العرب إنشاداً، أو استشهاداً، أو تعليماً، وما نظن أن يكون قد نسي شيئاً مما كان يحفظ لحدة ذكائه، ولمعاودته ما يحفظ كلما سنح له ذلك، وغاية ما في الأمر، أنه في أول أمره كان متفقهاً غلب عليه الأدب وفي أواخره كان أديباً غلب عليه الاجتهاد والفقه.

يقول ابن عبد الحكم ـ وكان كما مرَّ من تلاميذه في مصر ـ: «ولدت في ذي القعدة سنة ٨٦[1]، ولو أدركت الشافعي وأنا رجل لاستخرجت من بين جنبيه علوماً جمة، ما كان أتمه في كل فن! لقد قرأت عليه أشعار هذيل، فما ذكرت له قصيدة إلاّ أنشدنيها من أولها إلى آخرها، على أنه مات وله أربع وخمسون سنة»[2]. وقال الربيع: «كان الشافعي إذا خلا في بيته كالسيل يهدر في أيام العرب»[3].

وقال الكرابيسي: «ما رأيت مجلساً قط أنبل من مجلس الشافعي، كان يحضره أهل الحديث، وأهل الفقه، وأهل الشعر، وكان يأتيه كبار أهل اللغة والشعر، فكل يتكلم منه»[4].

---

(١) أي ومائة.

(٢) توالي التأسيس (٦٠ ـ ٦١).

(٣) الانتقاء (٩٢) ويريد هنا بقوله في أيام العرب، ما قيل فيها من شعر.

(٤) تهذيب الأسماء واللغات (١: ٦١).

فصاحة الشافعي وبيانه:

لم يكن يعرف في جاهلية العرب بلاغة نثرية يعتد بها، إلاّ ما روي من بعض الخطب التيْ يشك في نسبة أكثرها إلى الجاهلية، ولكن البلاغة الأصيلة في النثر الرائع، وجدت بنزول القرآن الكريم، وكان المدرسة الأولى في بلاغة النثر، ثم بحديث النبي العربي القرشي ﷺ، وكان المدرسة الثانية، وتخرج منهما الصحابة رضوان الله عليهم، فكان منهم الخطباء الفصحاء، ومنهم المترسلون الأبيناء، إلى أن ورثوا من بعدهم من التابعين كثيراً من أشرف المعاني الإنسانية الإسلامية في أنصع أسلوب وأجزله، في ألفاظ سرية ومنتقاة؛ إلى أن انتهت هذه الثروة مع الزيادة والنماء إلى النصف الثاني من القرن الثاني، العصر الذي عاش فيه الإمام الشافعي، فمن الناس من أخذ مِن هذه الثروة تقواها، ومنهم من أخذ إلى ذلك زهدها وورعها، ومنهم من اجتهد يستخرج منها الفقه وأدلته، ومنهم من أراد أن يستفيد ألفاظها وتراكيبها وبلاغتها وإعجازها، ومنهم غير ذلك، فما نصيب الشافعي من هذه الثروة؟

الحق أن الشافعي لم يدع من هذه الثروة الضخمة صنفاً لم يأخذ منه بحظ وافر، ولسنا هنا بمعرض الحديث عن الأنواع كلها، وإنما يهمنا هنا من كل ذلك ما استفاده من هذه الثروة من اللغة والبيان، حتى كان في عصره من أفصح الفصحاء، وأبين الأبيناء.

لقد سلف القول أن الشافعي بدأ تعلمه على شيوخ مكة، ونزعة أكثر هؤلاء الشيوخ الاهتمام بالقرآن، ودراية معانيه وألفاظه ومراميه، وسبب ذلك أن عبد الله بن عباس استقر في مكة، وقصده إليها الناس، يستفتونه ويسمعون منه تأويل القرآن، وابن عباس ترجمان القرآن كما يقول ابن مسعود[1] وهو أعلم من بقي بما أنزل الله على محمد كما يقول ابن عمر[2]، ويقول الأعمش[3]: «خطب ابن عباس - وهو على الموسم - فجعل يقرأ ويفسر، فجعلت أقول: لو سمعته فارس والروم لأسلمت».

وقد اكتسب الشافعي هذه الملكة وهو ما يزال يافعاً حتى صار فيها فمن يشار إليه بالبنان، وقد سلف القول أن ابن عيينة إذا جاءه شيء من التفسير والفتيا التفت إلى الشافعي وقال: سلوا هذا، وقال يونس بن عبد الأعلى: «كنت أولاً

---

(١) هو: عبد الله بن مسعود بن غافل أبو عبد الرحمن، من أكابر الصحابة فضلاً وعقلاً، وهو من أهل مكة ومن السابقين إلى الإسلام، وكان خادم رسول الله وصاحب سره، توفي في خلافة عثمان سنة ٣٢ هـ.

(٢) هو: عبد الله بن عمر بن الخطاب العدوي، صحابي، كان جريئاً جهيراً، أفتى الناس في الإسلام ستين سنة، توفي سنة ٧٣ هـ.

(٣) هو: الأعمش سليمان بن مهران الأسدي بالولاء، تابعي مشهور، قيل: لم ير السلاطين والملوك والأغنياء في مجلس أحقر منهم في مجلس الأعمش؛ مع شدة حاجته وفقره، توفي سنة ١٤٨ هـ.

أجالس أصحاب التفسير وأناظر عليه، وكان الشافعي إذا ذكر التفسير؛ كأنه شهد التنزيل»[1]. وقال أبو الحسن الزيادي: «ما رأيت أحداً أقدر على انتزاع المعاني من القرآن، والاستشهاد على ذلك من اللغة كالشافعي»[2] وهكذا كان دأب ابن عباس رضي الله عنه، يؤول الآية، ويستشهد عليها من شعر العرب، وكثيراً ما كان يستنشد الشعراء مما أحدثوه من شعرهم، وهكذا كان الشافعي يؤيد تأويله بشعر العرب.

لقد تأثر الشافعي إذن بالقرآن تأثراً بالغاً، وتأثر ببلاغة أحاديث الرسول عليه الصلاة والسلام، وزاد على ذلك ما اقتبسه من هذيل من بلاغة وفصاحة بالإقامة بينهم، وحفظ أشعارهم، حتى صار حجة يقصد إليه علماء هذا الشأن، ليأخذوا عنه شعر العرب ويصححوا عليه ما قرأوه وما حفظوه، وقد سلف قريباً القول في ذلك، فليس بدعاً ـ بعد هذا ـ أن يكون الشافعي باقعة دهره بياناً، وقدرة، وبداهة على التصرف في الكلام، بطبع سيّال، متمكن بليغ، حتى لو أراد سامعه الخبير بشؤون الكلام، أن يزيل لفظاً ويضع مكانه لفظاً آخر أحكم وأبلغ لأعجزه ذلك، قال يونس بن عبد الأعلى: «كانت ألفاظ الشافعي كأنها سكر»[3] وقال أيضاً: «كنّا إذا قعدنا حوله لا ندري كيف يتكلم، كأنه سحر»[4] قال محمود المصري

---

(١)(٢) توالي التأسيس (٥٨).

(٣) (٤) توالي التأسيس (٦٠).

ـ وكان من أفصح الناس ـ : وسمعت ابن هشام يقول: «جالست الشافعي زماناً، فما سمعته تكلم بكلمة إلا اعتبرها المعتبر، لا يجد كلمة في العربية أحسن منها»[1]. وقال أحمد بن أبي سريج: «ما رأيت أحداً أفوه ولا أنطق من الشافعي»[2]. وقال أحمد بن حنبل: «كان الشافعي من أفصح الناس»[3]. وقال داود بن علي الظاهري: «من تعلق بشيء من بيانه صار محجاجاً»[4].

والعجيب في قدرته البيانية، أنها لا تختلف في لغة التخاطب عنها في المناظرة والبحث والتأليف، كما هو حال الكثرة من الأدباء والكتاب في عصره، يكتبون بغير ما ينطقون، بل كان الربيع يرى أن الشافعي كان في كلامه أفصح منه في تأليفه، فهو في تأليفه يتعمد السهولة ليكون أوضح للعوام، فيقول مراراً: «لو رأيت الشافعي وحسن بيانه وفصاحته لعجبت منه، ولو أنه ألف هذه الكتب على عربيته التي كان يتكلم بها معنا في المناظرة؛ لم يقدر على قراءة كتبه لفصاحته، وغرائب ألفاظه، غير أنه كان في تأليفه يجتهد في أن يوضح للعوام»[5].

---

(١) معجم الأدباء (١٧ : ٢٩٩).

(٢) توالي التأسيس (٥٨) وآداب الشافعي (١٣٧).

(٣) توالي التأسيس (٦٠).

(٤) تهذيب الأسماء واللغات (١ : ٦٣).

(٥) توالي التأسيس (٧٧).

ولقد كان شيخ الأدباء، وملك البيان، وزعيم الفكر الجاحظ[1]، يشهد لبيان الشافعي في تآليفه شهادة ما نظن أنه شهد بمثلها لأحد، فيقول: «نظرت في كتب هؤلاء النبغة، الذين نبغوا في العلم، فلم أر أحسن تأليفاً من المطلبي، كأن فاه ينظم دراً إلى در»[2] ورحم الله أبا ثور؛ كان يقول في الشافعي: «من قال: إنه رأى مثل الشافعي في علمه، وفصاحته، ومعرفته، وبيانه، وتمكنه؛ فقد كذب»[3].

الشافعي والنحو:

لم نقرأ في ترجمة الشافعي أنه درس النحو على أحد، أو أنه لقي من علماء النحو أحداً، وكان يحب أن يرى الخليل[4]، ولكن الخليل توفي في البصرة سنة ١٧٠ والشافعي في المدينة يختلف إلى مالك.

وما كان بالشافعي حاجة أن يدرس النحو، وقد تلقى العربية من صغره في هذيل، حتى كان له من الطبع مثل ما

---

(١) الجاحظ: هو عمرو بن بحر الجاحظ الكناني بالولاء، أبو عثمان، كبير أئمة الأدب، ورئيس الفرقة الجاحظية من المعتزلة، فلج آخر عمره، مات والكتاب على صدره، قتلته مجلدات وقعت عليه سنة ٢٥٥ هـ.

(٢) توالي التأسيس (٥٩).

(٣) الوافي بالوفيات (١ : ١٧٧).

(٤) معجم الأدباء (١٧ : ٣٠٠).

لهذيل، فلا يخطىء في لفظة، ولا يلحن في تركيب، وكان يعزو - رحمه الله - عدم لحنه إلى رؤيا رأى فيها النبي ﷺ، وهو غلام لم يبلغ الحلم، قال الربيع:

«سمعت الشافعي يقول: رأيت النبي ﷺ في المنام قبل حلمي، فقال لي: يا غلام، فقلت: لبيك يا رسول الله، قال: ممن أنت؟ قلت: من رهطك، قال: ادن مني، فدنوت منه، ففتح فمي، فأمرّ من ريقه على لساني وفمي وشفتي، وقال امض بارك الله فيك، فما أذكر أني لحنت في حديث بعد ذلك ولا شعر»[1]. على أن الحاذقين في العربية والنحو تتبعوا كلامه، وأصغوا إلى حديثه، فما سمعوه يلحن، يقول عبد الملك بن هشام النحوي - صاحب المغازي - : «طالت مجالستنا للشافعي، فما سمعت منه لحنة قط، ولا كلمة غيرها أحسن منها»[2]. وقال الزعفراني: «وما رأيته لحن قط، وكان يقرأ عليه من كل شعر فيعرفه»[3]. وكان - إلى ذلك - يكره اللحن من كل أحد وينفر منه، قال المزني: قرأ رجل عند الشافعي فلحن، فقال الشافعي: «أضرستني»[4].

لذلك كان يرى علماء هذا الشأن: أن كلام الشافعي حجة في اللغة، وحجة في النحو أيضاً، وذكرنا قبل قول من قال:

---

(١) تهذيب الأسماء واللغات (١ : ٦٥).

(٢) معجم الأدباء (١٧ : ٣١٢).

(٣) تهذيب الأسماء واللغات (١ : ٦١).

(٤) توالي التأسيس (٦٥).

إن كلام الشافعي حجة في اللغة، وإليك قول بعض الأئمة من النحاة. يقول المازني: «الشافعي حجة عندنا في النحو»[1]. ويقول أبو الوليد المكي موسى بن أبي الجارود: «كان يقال: إن محمد بن إدريس وحده (أي في عصره) يحتج به، كما يحتج بالبطن من العرب»[2].

شعر الشافعي:

الشعر موهبة أولاً، واكتساب ثانياً، فإذا اجتمعا في إنسان كان منهما الشاعر المجيد، فإذا انفردت الموهبة كانت الشاعرية هزيلة ضعيفة، وإذا أهملت ضمرت ثم نضبت، وإذا انفرد الاكتساب كان العلم ولم يكن الشعر، وإن وجد الشعر فهو إلى النظم أقرب منه إلى مفهوم الشعر.

ولا نشك أن الشافعي التقت فيه الموهبة والاكتساب، فهو ـ لو شاء ـ لسابق المجلِّين من شعراء عصره، وقلت: لو شاء، لأنه لم يشأ، فقد صرف مواهبه وعقله وقلبه إلى السنة والفقه والاجتهاد، ومع ذلك فقد ترك شعراً جيداً ارتفع عن شعر الفقهاء، ولم يبلغ مكانة شعر المجيدين من الفحول، يقول القفطي: «وكان له شعر أجل من شعر الفقهاء»[3].

وقد نسب إلى الشافعي كثير من الشعر لم تصح نسبته

---

(١) (٢) طبقات الشافعية (طبعة الحلبي) (٢: ١٦١).

(٣) المحمدون (١٣٨).

إليه، وقد روى له من ألف في حياته أو ترجمه: شعراً كثيراً، بعضه أشبه بأن يكون من شعره، وبعضه الآخر يشك في نسبته إليه، ومن المؤكد أن له شعراً أجود مما روي له لم يصل إلينا، لشهادة علم الأدب المبرد ـ وقد دنا من عصره ـ حيث قال: «رحم الله الشافعي فإنه كان من أشعر الناس، وآدب الناس، وأعرفهم بالقرآن»[1]. وهناك من جمع له ديواناً، ليست تصح نسبة كثير مما جاء فيه إليه، ولو كان الشافعي يهتم بأن يكون له ديوان لنهد إلى ذلك كثير من تلاميذه.

ولا ريب أن الشافعي بحكم عروبته، وإقامته في هذيل، وحفظه لكثير من شعر العرب، وارتياحه لإنشاده والاستماع إليه، كان يجيش صدره بقول الشعر بين الحين والحين، إن دعته المناسبة، وهزته لقول الشعر، ولم يرو عن الشافعي قصائد كبيرة، كالتي نعهدها عند المشهورين من الشعراء، وهذا يدل على أنه لم يرد أن يتخذ من الشعر هواية أو غاية، وإنما كان ينظم المقطعات بين البيتين أو الثلاثة، وندر أن تبلغ العشرة، أو على الأقل: هذا ما وصل إلينا.

وأكثر موضوعاته الشعرية تمليها عليه مناسبة عابرة، أو حكمة اجتماعية أو دينية، أو تجربة من تجارِبه مع الناس

---

(١) توالي التأسيس (٦٢).

والحياة، وأكثر شعره مما يصلح أن يتمثل في كل ما قيل فيه.
وإليك بعضاً مما روي عنه من شعر:

فمن ذلك قوله يعلن حبه لآل البيت، وتعلقه بحبلهم، مهما يقل عنه في ذلك، حتى لو اتهم بالرفض.

قال الربيع بن سليمان: حججت مع محمد بن إدريس الشافعي إلى مكة، فما كان يصعد شرفاً ولا يهبط وادياً إلّا أنشأ يقول:

يا راكباً قف بالمحصَّب[1] من منىً
واهتف بساكن خَيْفها[2] والناهض
سحراً إذا فاض الحجيج إلى منى
فيضاً كملتطم الفرات الفائض
إن كان رفضاً حب آل محمد
فليشهد الثقلان أني رافضي[3]

وفي حنينه إلى وطنه الذي ولد فيه ـ غزة هاشم ـ وتركه له وعمره سنتان قال:

---

(١) المحصب: موضع فيما بين مكة ومنى وهو إلى منى أقرب، وهو بطحاء مكة.
(٢) الخيف: هو خيف بني كنانة وهو أول البطحاء، والناهض: ما ارتفع عن الخيف، لأن الخيف ما ارتفع عن مسيل الماء وانحدر من غلظ الجبل.
(٣) الانتقاء (٩٠ ـ ٩١).

وإنـي لـمـشـتـاق إلـى أرض غـزة
وإن خـانـني بـعـد التـفـرق كتـمـانـي
سقى الله أرضـاً لـو ظفـرت بتـربـهـا
كحلت بـه من شدّة الـشـوق أجفـانـي[1]

والشافعي - رحمه الله - أبصر الناس ببلاغة الإيجاز في الكلام وأبرعهم في استعماله، وأضيقهم بحشوه وفارغه، لذلك قال:

لا خـيـر فـي حـشـو الـكـلا
م إذا اهـتـديـت إلـى عـيـونـه
والـصـمـت أجـمـل بـالـفـتـى
مـن مـنـطق فـي غـيـر حـيـنـه
وعـلى الـفـتـى لـطـبـاعـه
سِـمـة تـلـوح عـلى جـبـيـنـه[2]

والبيت الأخير قريب المعنى من قول زهير بن أبي سلمى:

ومهمـا تكن عنـد امـرىء من خـليقـة
وإن خـالهـا تخـفى عـن النـاس تـعلم

وكم يثلج صدره، ويقر عينه، أن يجيب إذا سئل إجابة يعززها الدليل، وترتاح إليها النفس، وتقع من السائل موقعاً،

---

(١) معجم البلدان (٦: ٢٩٠).
(٢) توالي التأسيس (٧٣).

فتأخذه بذلك أريحية الشعر، ونشوة العلم والعزّة.

جاء رجل إلى الشافعي ـ كما يروي الربيع بن سليمان ـ فسأله عن مسألة فأجاب، فقال له الرجل: جزاك الله خيراً، وأخرج الحاكم والبيهقي أن سؤال الرجل للشافعي كما يلي: رجل حلف إن كان في كمي دراهم أكثر من ثلاثة، فعبدي حر، وكان في كمه أربعة دراهم، فقال له: لم يحنث، قال: لم؟ قال: لأنه استثنى أكثر من درهم، فقال الرجل: آمنت بالذي فوّهك، وأنشأ الشافعي يقول:

إذا المشكلات تصدّين لي
كشفت حقائقها بالنظرْ
لسان كشقشقة الأرحبـ
ـي[1] أو كالحسام اليماني الذكر
ولست بإمّعة[2] في الرجا
ل أسائل هذا وذا ما الخبر

---

(1) أصل الشقشقة: شيء كالرئة يخرجه البعير إذا هاج، ثم استعملت بالقدرة على الخطابة والبيان، من ذلك قول علي بن أبي طالب رضي الله عنه: «تلك شقشقة هدرت ثم قرت». و«الأرحبي» نسبة إلى قبيلة أرحب: وهي بطن من همدان، وإليها تنسب الإبل الأرحبيات.

(2) «الإمعة» و «الإمع»: الرجل يتابع كل أحد على رأيه، لا يثبت على شيء.

ولكنني مِدْره[1] الأصغريـ
ـنِ[2] جلاب خير وفرَّاج شر[3]

ولقد ذاق الشافعي طعوم الحياة، وعجم عيدانها، وخبر ناسها، وحرص عمره أن يلتمس بجهده صديقاً يواسيه، فأعياه ذلك حتى قال:

صديق ليس ينفع يوم بأس
قريب من عدو في القياس
وما يُبغى الصديق بكلِ عصر
ولا الإخوان إلّا للتآسي
عمرت الدهر ملتمساً بجهدي
أخا ثقة فأكداه[4] التماسي
تنكرتِ البلاد عليّ حتى
كأن أناسها ليسوا بناس[5]

ولقد وصف في القطعة الآتية ما يتمناه من الأصدقاء الذين عمر دهره جاهداً في البحث عنهم، ولو أنه وجدهم لقاسمهم مال الدنيا وثواب الآخرة؛ إن كان مما يملكه. ذكر المزني أن

---

(١) «المدره» المقدم في اللسان واليد عند الخصومة، والسيد الشريف.
(٢) الأصغران: اللسان والقلب.
(٣) معجم الأدباء (١٧: ٣٠٩).
(٤) أكداه: أخفق ولم يظفر بحاجته ـ على المجاز.
(٥) طبقات الشافعية (١: ٣٠١).

الشافعي أخذ بيده، فقال:

أحب من الإخوان كل مُوات
وكل غضيض الطرف عن عثرات
يصاحبني في كل أمر أحبه
ويحفظني حياً وبعد وفاتي
فمن لي بهذا ليت أني أصبته
فقاسمته مالي مع الحسنات[1]

وتحدى الشاعر عباس الأزرق الشافعي، إذ دخل عليه، فقال: يا أبا عبد الله، قد قلت أبياتاً إن أنت أجزت مثلها، لأتوبنَّ من قول الشعر، فقال الشافعي: إيه، فأنشأ يقول:

ما همتي إلاّ مقارعة العدا
خَلُق الزمان وهمتي لم تخلق
والناس أعينهم إلى سلب الغنى
لا يسألون عن الحجا والأولق[2]
لو كان بالحيل الغنى لوجدتني
بنجوم أقطار السماء تعلقي

فقال له الشافعي: هلا قلت كما أقول، وأنشأ مترسلاً:

إن الذي رُزق اليسار فلم يصب
أجراً ولا حمداً لغيرُ موفقِ

(١) توالي التأسيس (٧٤).

(٢) الحجا: العقل، والأولق: الجنون أو شبهه.

الجَد[1] يدني كل أمر شاسعٍ
والجَد يفتح كل باب مغلقِ
فإذا سمعت بأن مجدوداً[2] حوى
عوداً فأثمر في يديه فصدِّقِ
وإذا سمعت بأن محدوداً[3] أتى
ماءً ليشربه فغاض فحقِّقِ
ومن الدليل على القضاء وكونه
بؤس اللبيب وطيب عيش الأحمق
وأحق خلق الله بالهَمِّ امرؤٌ
ذو هِمّة يُبلى بعيش ضيق[4]

ونقل عن الشافعي شعر كثير غير هذا، تجده في كتب من ترجم له كمعجم الأدباء، وحلية الأولياء، وتاريخ بغداد، وطبقات الشافعية، وغيرها كثير، وما أوردت له إلّا نموذجات من شعره لئلا نخلي كتابنا هذا منه.

عِلمُهُ بأيّامِ النّاسِ

يراد بأيام الناس: تاريخ العرب في جاهليتهم: في وقائعهم، وملاحمهم، وغاراتهم، ما كان بينهم، أو مع

(١) الجَد: الحظ والبخت.

(٢) المجدود: المحظوظ.

(٣) المحدود، بالحاء المهملة: المحروم والممنوع من الخير.

(٤) توالي التأسيس (٧٤ ـ ٧٥).

غيرهم من جيرانهم: من الفرس والرومان، ورواية ما قيل في ذلك من الشعر، وما يكون المرء أديباً في صدر الإسلام حتى يكون على علم بأيام الناس.

والشافعي ـ رحمه الله ـ استكمل مبكراً أدوات الأديب، ومنها علمه بأيام الناس، قال مصعب بن عبد الله الزبيري: «ما رأيت أعلم بأيام الناس من الشافعي»[1] وقد تقدم قول الربيع: «كان الشافعي إذا خلا في بيته، كالسيل يهدر في أيام العرب».

عِلمُ الشافِعي بالأنساب

مما عني به الشافعي في سنه المبكرة «علم الأنساب» فقد أخذ منه بحظ وافر، حين كان يرحل إلى البادية يشافه الأعراب ويسمع منهم، فقد مهر في معرفة أيام العرب وأنسابها، مع ما حفظه من شعرها وآدابها، قال المزني: «قدم علينا الشافعي، فأتاه ابن هشام صاحب المغازي، فذاكره أنساب الرجال، فقال له الشافعي ـ بعد أن تذاكرا ـ: دع عنك أنساب الرجال، فإنها لا تذهب عنا وعنك، وخذ بنا في أنساب النساء، فلما أخذا فيها بقي ابن هشام ـ يعني: سكت»[2].

---

(١) تهذيب الأسماء واللغات (١: ٦٠).

(٢) الوافي بالوفيات (٢: ١٧٥) وتوالي التأسيس (٦٠) وفي كتاب «آداب الشافعي ومناقبه» (ص ٢٤٦ ـ ٢٤٩) و (ص ٢٥٢ ـ ٢٧٠). بحث مفصل للشافعي عن أنساب قريش.

فِرَاسَتُهُ وَنَظَرُهُ فِي النُّجُوم

الفراسة بالكسر: من التفرس وهو التوسم. يقال: تفرّس في الشيء: إذا توسمه[1]. وتكون الفراسة: إما بإصابة الحدس والظن كما قال الشاعر:

الألمعيُّ الذي يظن بك الظـ
ـن كأن قد رأى وقد سمعا

ومن ذلك ما روي عن عمر قوله ما معناه: «إنك لا تنتفع بعقل الرجل حتى تنتفع بظنه».

وإما بدلائل وتجارب وخَلْق وأخلاق تعرف بها أحوال الناس، وقد عني العرب بالفراسة في جاهليتهم وإسلامهم بشكليها، وللناس فيها تآليف قديمة وحديثة[2].

وقد عني الشافعي بالفراسة علماً وتجربة، ومارسها ممارسة فعلية، وأخذها ـ كما يرجح ـ حين لازم الأعراب في البادية وهو صغير، ثم أخذ كتبها من اليمن، ونظر في النجوم. قال الربيع: وكان ـ أي الشافعي ـ ذا معرفة بالفراسة[3]، وقال الشافعي: «خرجت إلى اليمن في طلب كتب الفراسة، حتى كتبتها جميعاً»[4].

(١) كما في تاج العروس مادة «فرس».
(٢) كما يقول الزبيدي في التاج.
(٣) تهذيب الأسماء واللغات (١ : ٦٥).
(٤) الوافي بالوفيات (٢ : ١٧٥).

أما نظره في النجوم فقد قال أبو عبد الله بن محمد بن العباس: كان الشافعي ـ وهو حَدَث ـ ينظر في النجوم، وما نظر في شيء إلا تفقه فيه وفهمه، فجلس يوماً ـ وامرأة رجل تطلق ـ فحسب، فقال: تلد جارية عوراء، على فرجها خال، وتموت لكذا، فولدت، فكان كما قال، فجعل على نفسه أن لا ينظر في النجوم أبـداً، ودفن تلك الكتب التي كانت عنده[1].

وأخرجها الحاكم من طريق حرملة قال: كان الشافعي ينظر في كتب النجوم، وكان له صديق، فذكر القصة، وفيها: فقال: تلد إلى سبعة وعشرين يوماً، وقال: في فخذه الأيسر خال أسود، ويعيش أربعة وعشرين يوماً، ثم يموت فجأة. وقال فيها: فأحرق الشافعي تلك الكتب، وما عاد ينظر في شيء من ذلك[2].

---

(١) (٢) توالي التأسيس (٦٥) ويقول السبكي في الطبقات: واعلم أنه قد يعترض معترض على نظر هذا الإمام في النجوم، فيجيب مجيب: أن ذلك كان في حداثة سنه. وليس هذا بجواب، والخطب في مسألة النظر في النجوم جليل عسير، وجماع القول فيه: أن النظر فيه لمن يحب إحاطة بما عليه أهله غير منكر، وأما اعتقاد تأثيره، وما يقوله أهله، فهذا هو المنكر، ولم يقل بحله لا الشافعي ولا غيره.

أقول: ودفن كتب النجوم أو إحراقها دليل على خشية الشافعي من اعتقاد تأثيرها، ورجوع عن قراءتها والعمل بما فيها.

ولئن أتلف الشافعي كتب النجوم، لا يعني هذا أنه ترك الفراسة، بل له في الفراسة قصص تروى في جميع مراحل حياته، ومن أطرفها ما يرويه الحميدي[1] قال: قال محمد بن إدريس الشافعي:

«خرجت إلى اليمن في طلب كتب الفراسة؛ حتى كتبتها وجمعتها، ثم لما حان انصرافي، مررت على رجل في طريقي؛ وهو محتب بفناء داره، أزرق العينين، ناتىء الجبهة، سناط[2]. فقلت له: هل من منزل؟ فقال: نعم - قال الشافعي: وهذا النعت أخبث ما يكون في الفراسة - فأنزلني فرأيت أكرم رجل، بعث إليّ بعشاء وطيب، وعلف لدابتي، وفراش ولحاف، فجعلت أتقلب الليل أجمع، ما أصنع بهذه الكتب؟ إذ رأيت هذا النعت في هذا الرجل، فرأيت أكرم رجل، فقلت: أرمي بهذه الكتب. فلما أصبحت، قلت للغلام: أسرج[3]، فأسرج، فركبت ومررت عليه، وقلت له: إذا قدمت مكة، ومررت بذي طوى، فسل عن منزل محمد بن إدريس الشافعي.

(١) الحميدي: هو عبد الله بن الزبير الحميدي الأسدي، أحد الأئمة في الحديث، من أهل مكة، رحل منها مع الشافعي إلى مصر، ولزمه إلى أن مات، وهو شيخ البخاري، توفي بمكة سنة ٢١٩ هـ.

(٢) يقال: رجل سناط وزان كتاب. لا لحية له، ويقال: خفيف العارضين. إ هـ مصباح.

(٣) من أسرجت الفرس: شددت عليه سرجه. مصباح.

فقال لي الرجل: أمولى لأبيك أنا؟! قلت: لا.
قال: فهل كانت لك عندي نعمة؟! فقلت: لا.
فقال: أين ما تكلفت لك البارحة؟ قلت: وما هو؟

قال: اشتريت لك طعاماً بدرهمين، وإداماً بكذا، وعطراً بثلاثة دراهم، وعلفاً لدابتك بدرهمين، وكراء الفراش واللحاف درهمان.

قال: قلت: يا غلام أعطه، فهل بقي من شيء؟
قال: كراء المنزل، فإني وسعت عليك وضيقت على نفسي.
قال الشافعي: فغبطت نفسي بتلك الكتب. فقلت له بعد ذلك: هل بقي من شيء؟
قال: امض، أخزاك الله فما رأيت قط شراً منك[١].

وللشافعي حوادث مدهشة في فراسة الزكن[٢] وإصابة الظن، فمنها ما رواه المزني، قال: كنت مع الشافعي في الجامع إذ دخل رجل يدور على النيام. فقال الشافعي للربيع: قم فقل له: ذهب لك عبد أسود مصاب بإحدى عينيه؟ قال الربيع: فقمت إليه فقلت له. فقال نعم، فقلت: تعال، فجاء إلى الشافعي، فقال أين عبدي؟ فقال: مر تجده في الحبس، فذهب الرجل فوجده في الحبس، قال المزني:

---

(١) آداب الشافعي ومناقبه (١٢٩).
(٢) الزكن: ظن بمنزلة اليقين عندك. إ هـ قاموس.

فقلت له: أخبرنا فقد حيرتنا! قال: نعم، رأيت رجلاً دخل من باب المسجد، يدور بين النيام، فقلت: يطلب هارباً، ورأيته يجيء إلى السودان دون البيض، فقلت: هرب له عبد أسود، ورأيته يجيء إلى ما يلي العين اليسرى، فقلت: مصاب بإحدى عينيه، قلنا: فما يدريك أنه في الحبس. قال: الحديث في العبيد: إن جاعوا سرقوا، وإن شبعوا زنوا، فتأولت أنه فعل أحدهما، فكان كذلك[1].

في هذه القصة حدس دقيق، وفيها استنباط بارع، وفهم ثاقب، وإيمان مطلق بالحديث النبوي، استعان به للإصابة في حدسه وقد كان ما قال.

ومن فراسته ما روى من طريق خزيمة قال: مر أخو الربيع في صحن الجامع، فدعاني الشافعي، فقال: يا ربيع، هذا المار الذي يمشي أخوك؟ قلت له: نعم. ولم يكن رآه قبل ذلك[2].

ومن ذلك ما رواه الربيع قال: سمعت الشافعي يقول: قدم علينا رجل من أهل صنعاء، فلما رأيته قلت له: أنت من أهل صنعاء؟ قال: نعم. فحداد أنت؟ قال: نعم[3].

وتزاكن الشافعي مرّة مع محمد بن الحسن[4]، وكانا

---

(١) (٢) (٣) توالي التأسيس (٦٦).

(٤) محمد بن الحسن بن فرقد، من موالي شيبان، إمام بالفقه، وهو =

قاعدين بفناء الكعبة، فمر رجل، فقال أحدهما لصاحبه: تعالَ حتى نزكن على هذا الآتي. أي حرفة معه؟ فقال أحدهما: خياط، وقال الآخر: نجار، فبعثا إليه فسألاه، فقال: كنت خياطاً وأنا اليوم نجار.

ومن فراسة الشافعي ـ رحمه الله ـ ما روي عن الربيع بن سليمان، قال: دخلنا على الشافعي عند وفاته: أنا والبويطي والمزني وابن عبد الحكم، فنظر إلينا الشافعي فأطال، ثم التفت إلينا فقال: «أما أنت يا أبا يعقوب فستموت في حديدك، وأما أنت يا مزني فسيكون لك بمصر هنات وهنات، ولتدركنّ زماناً تكون أقيس أهل زمانك، وأما أنت يا محمد فسترجع إلى مذهب أبيك، وأما أنت يا ربيع فأنت أنفعهم لي في نشر الكتب». قال الربيع: فكان كما قال[1].

ولقد استمر الشافعي إلى آخر عمره يتشاءم فراسة من بعض الصفات الظاهرة كالشقرة والزرقة. يقول الربيع بن سليمان: اشتريت للشافعي طيباً بدينار، فقال لي: ممن اشتريت؟ فقلت: من ذلك الأشقر، فقال: أشقر أزرق ردّه، ردّه[2].

= الذي نشر علم أبي حنيفة، أصله من حرسته ـ قرية في غوطة دمشق ـ وولد بواسط، ونشأ بالكوفة، فسمع من أبي حنيفة، وتمذهب بمذهبه، وولاه الرشيد القضاء بالرقة ثم عزله، ونعته الخطيب البغدادي: بإمام أهل الرأي، توفي سنة ١٨٩.

(١) توالي التأسيس (٨٥).

(٢) آداب الشافعي ومناقبه لابن أبي حاتم الرازي (١٣١).

كما كان يرى أن العقل يجانب السمين، فيقول: «ما رأيت سميناً عاقلاً قط إلّا رجلاً واحداً»(١).

وكان ـ رحمه الله ـ يتفرس في طلاب العلم، هل يحملون أدوات الكتابة ليقال لهم: إنهم طلاب علم، أم هم بالفعل كتّاب مستفيدون يبتغون العلم ويسعون إليه. يقول الشافعي:

«إذا أردت أن تعرف الرجل أكاتب هو؟ فانظر أين يضع دواته، فإن وضعها عن شماله، أو بين يديه؛ فاعلم: أنه ليس بكاتب»(٢).

الشّافِعيُّ يتَطيَّر

ليس تطير الشافعي ناشئاً عن ضعف نفسي، أو مزاج مرهف الحس، ولكن تطير الشافعي عن فن الفراسة، ومما يقره هذا الفن أن كلٍّ ذي عاهة يخشى شره، وذلك ناشىء عن شعور بالنقص، يزرع في نفسه الحقد والكراهية والمكر، يعوِّض بها ما فقد، ومن هذا كان الشافعي يقول:

«واحذر: الأعور، والأحول، والأعرج، والأحدب، والأشقر، والكوسج، وكل من به عاهة في بدنه، وكل ناقص

---

(١) آداب الشافعي ومناقبه (١٣٢) والرجل الواحد: هو محمد بن الحسن، كما صرح به في روض الأخبار.

(٢) آداب الشافعي ومناقبه (١٣٥) وصرح الشافعي أنه يوصف بالحماقة.

الخلق، فاحذره؛ فإنه صاحب التواء، ومعاملته عسرة»[1].

وقال مرة أخرى: فإنهم أصحاب خب[2].

وكان يقول: «إياكم وأصحاب العاهات»[3].

الشّافِعي وَالطِّبْ

ما عرفنا إماماً من أئمة الدين له عناية الشافعي بالطب، وحضه على تعلمه، فقد كان يرى فيه شطراً لعلم الدين، فهذا لإصلاح المعاد، وذاك لإصلاح الأجساد، فقد أثر عنه أنه قال: «إنما العلم علمان: علم الدين، وعلم الدنيا، فالعلم الذي للدين هو: الفقه، والعلم الذي للدنيا هو: الطب»[4] وقال: «لا أعلم علماً ـ بعد الحلال والحرام ـ أنبل من الطب، إلا أن أهل الكتاب قد غلبونا عليه»[5].

---

(٢) (٢) آداب الشافعي ومناقبه (١٣٢) والكوسج: الذي لا لحية له أصلاً.

(٣) الوافي بالوفيات (٢: ١٧٤).

(٤) آداب الشافعي ومناقبه (٣٢١ ـ ٣٢٢).

(٥) آداب الشافعي ـ تعليق (٣٢١).

فكان رحمه الله يتلهف على ما ضيع المسلمون من الطب، ويقول: «ضيعوا ثلث العلم، ووكلوه إلى اليهود والنصارى»[1]. ويقول: «شيئان أغفلهما الناس: العربية والطب»[2].

أما علم الشافعي بالطب فقد حدَّث عنه الربيع قال: «وكان ذا معرفة تامة بالطب»[3]. بل يشهد بعلم الشافعي بالطب ومهارته فيه طبيب مصري عاصره، وكان يود لو قرأ عليه كتاب أبقراط، فقد حدث أبو حسين البصري قال: سمعت طبيباً بمصر يقول: ورد الشافعي مصر، فذاكرني بالطب حتى ظننت أنه لا يحسن غيره، فقال: «إن هؤلاء لا يتركونني»[4].

وقد أثر عن الشافعي في الطب أقوال وآرراء كثيرة نجتزىء ببعضها. مثل قوله: «أكل الفول يزيد في الدماغ، وأكل اللحم يزيد في العقل»[5] ومثل قوله: «لم أر شيئاً أنفع للوباء من البنفسج: يدهن به ويشرب»[6].

---

(١) (٢) آداب الشافعي - تعليق (٣٢١).

(٣) تهذيب الأسماء واللغات (١: ٦٥).

(٤) توالي التأسيس (٦٦).

(٥) آداب الشافعي (٣٢٣).

(٦) آداب الشافعي (٣٢٤).

وله شعار يحذِّر فيه الناس مما يصفه لهم الأطباء يقول فيه:

«احذر أن تتناول لهذه الأطبَّة[1] دواء؛ إلاّ دواءً تعرفه»[2]؛ وإنما قال ذلك الشافعي خشية أن يدخلوا إلى الأدوية مواد نجسة أو مؤذية، أو سامة، وهذا حين كان الناس يشاركون الأطباء في المعرفة بالمواد الأولية التي تصنع منها الأدوية، أما بعد أن صار معرفة الأدوية وعناصرها اختصاصاً، وبعيداً عن متناول العامة، فليس للتحذير مجال.

مؤلّفات الشّافِعي

لم يعرف لإمامٍ قبل الشافعي من المؤلفات في الأصول والفروع، والفقه وأدلته، بل في التفسير والأدب، ما عرف للشافعي كثرةً وبراعة وإحكاماً. يقول ابن زولاق: صنف الشافعي نحواً من مائتي جزء»[3] ويقول القاضي الإمام أبو

---

(١) الأطبة: جمع طبيب، ومثله أطباء.

(٢) آداب الشافعي (٣٢٣) والتأسيس (٦٦).

(٣) شذرات الذهب (٢: ١٠) وابن زولاق: لعله الحسن بن علي بن زولاق المصري الزولاقي، يروي عن يحيى بن سليمان الجعفي، وروى عنه سليمان بن أحمد بن أيوب الطبراني.

محمد الحسن بن محمد المروزي في خطبة تعليقه: «قيل: إن الشافعي ـ رحمه الله ـ صنف مائة وثلاثة عشر كتاباً في التفسير والفقه والأدب وغير ذلك»[1].

ولقد كان في سرعة التأليف مع الدقة والنضج والإتقان أعجوبة، منقطع النظير، حتى إنه ربما أنجز كتاباً في نصف نهار. يقول يونس بن عبد الأعلى: «كان الشافعي يضع الكتاب من غدوة إلى الظهر»[2].

وكان مدعاة للدهشة والعجب أن يصنف كل هذه الكتب، ولم يعمَّر أكثر من أربع وخمسين سنة. يقول محمد بن إسحاق بن راهويه: سئل أبي: «كيف وضع الشافعي هذه الكتب كلها، ولم يكن كبير السن؟! فسمعته يقول: عجَّل الله له عقله لقصر عمره»[3].

فإذا علمنا أنه لم يؤلف معظم كتبه إلا في العشر الأخير من عمره، بل إن أكثر مؤلفاته وأعظمها، وأسيرها وأنفعها، وضعت في مدة مقامه في مصر، وهي أربع سنوات ـ مع العلة الشديدة المزمنة، والنزيف الدائم ـ إذا علمنا ذلك أدركنا شيئاً من كنه عبقريته، وبركة عمره، وسيطرة عقله، وتغلب روحه على ضنا جسمه.

---

(١) تهذيب الأسماء واللغات (١ : ٥٣).

(٢) توالي التأسيس (٧٧).

(٣) توالي التأسيس (٧٩).

قال الربيع: «أقام الشافعي ههنا أربع سنين، فأملى ألفاً وخمسمائة ورقة، وخرّج كتاب الأم ألفي ورقة، وكتاب السنن، وأشياء كثيرة، كلها في مدة أربع سنين، وكان عليلاً شديد العلة، وربما خرج الدم وهو راكب حتى تمتلىء سراويله وخفه» يعني من البواسير[1].

كيف كان يؤلف ويخرج الكتاب؟

أخرج الحاكم من طريق حرملة قال: «كان الشافعي يجلس إلى هذه الأسطوانة في المسجد، فيلقى له طنفسة[2]، فيجلس عليها، وينحني لوجهه ـ لأنه كان مسقاماً ـ فيصنف، فصنف هذه الكتب في أربع سنين»[3].

وقال الربيع: «رأيت الشافعي مالا أحصي، وكان إذا انصرف اتشح بردائه، ووضعت له منارة صغيرة، واتكأ على وسادة، وتحته مضربتان، ويأخذ بالقلم فلا يزال يكتب»[4].

وكان أحياناً يأوي إلى فراشه لينام، فتثب إلى ذهنه خاطرة في معنى حديث أو فقهه، فيخشى أن تذهب فينهض، فيضاء له المصباح، ويكتب. يقول الحميدي ـ وكان تلميذه في مكة

---

(١) توالي التأسيس (٨٣).

(٢) الطنفسة؛ البساط الذي له خمل رقيق، وجمعها: طنافس.

(٣) توالي التأسيس (٧٨).

(٤) تهذيب الأسماء (١: ٦٦).

وتبعه إلى مصر ـ : «خرجت مع الشافعي إلى مصر، وكان هو ساكناً في العلو، ونحن في الأوساط؛ فربما خرجت في بعض الليل فأرى المصباح، فأصيح بالغلام، فيسمع صوتي، فيقول: بحقي عليك، ارقَ، فأرقى، فإذا قرطاس ودواة، فأقول: مه يا أبا عبد الله، فيقول: تفكرت في معنى حديث ـ أو في مسألة ـ فخفت أن يذهب عليَّ، فأمرت في المصباح، وكتبته»[1].

وقال الربيع: «لزمت الشافعي قبل أن يدخل مصر، وكانت له جارية سوداء، فكان يعمل الباب من العلم، ثم يقول: يا جارية قومي فأسرجي، فتسرج له، فيكتب ما يحتاج إليه، ثم يطفىء السراج، فدام على ذلك سنة، فقلت: يا أبا عبد الله، إن هذه الجارية منك في جَهد، فقال: إن السراج يشغل قلبي»[2].

أما طريقته في إخراج الكتاب، فقد كان يضع المراجع بين يديه ـ وأحياناً يستغني بحفظه ـ ويصنف، فإذا ما تم الكتاب، واستوى له، جاءه ابن هرم ـ وكان يلازمه ـ فكتب ما صنفه الشافعي، ويقرأ عليه البويطي، ويسمع من حضر، ثم ينسخونه بعد. قال بحر بن نصر الخولاني: قدم الشافعي من الحجاز، فبقي بمصر أربع سنين، ووضع هذه الكتب، وكان

---

(١) آداب الشافعي (٤٤).

(٢) توالي التأسيس (٧٧).

أقدم معه من الحجاز كتب ابن عُيينة، وخرج إلى يحيى بن حسان[1] فكتب عنه، وأخذ كتباً من أشهب فيها مسائل. وكان يضع الكتب بين يديه ويصنف، فإذا ارتفع له كتاب، جاءه ابن هرم فكتب، ويقرأ عليه البويطي، وجميع من يحضر ليسمع في كتاب ابن هرم، ثم ينسخونه، بعد. وكان الربيع على حوائج الشافعي، فربما غاب في حاجة فيُعلِمُ له، فإذا رجع قرأ الربيع عليه ما فاته»[2].

ولقد كان ـ رحمه الله ـ يجتهد في أن يكون فيما يؤلف واضحاً للناس جميعاً، ولو أراد أن يؤلف على سجيته العربية لم يفهم عنه إلّا الخاصة. قال الربيع بن سليمان: «لو رأيت الشافعي وحسن بيانه وفصاحته لعجبت منه، ولو أنه ألف هذه الكتب على عربيته التي كان يتكلم بها معنا في المناظرة، لم يقدر على قراءة كتبه لفصاحته، وغرائب ألفاظه، غير أنه كان في تأليفه يجتهد في أن يوضح للعوام»[3].

عناية العلماء بمؤلفاته:

كتب الله لمؤلفاته الشافعي الحُظوة والقبول، فتناقلها

---

(١) هو: يحيى بن حسان بن حيان البكري، أبو زكريا التنيسي المصري، عن الحمادين، وعنه الشافعي وأحمد بن صالح، وثقه أحمد والعجلي والنسائي، توفي سنة ٢٠٨ هـ.

(٢) (٣) توالي التأسيس (٧٧) وليس العوام ـ كما هو في مفهومنا ـ الأميين؛ وإنما المراد من العوام ما يقابل الخواص.

العلماء، ورغبوا في كتابتها وسماعها، وتنافسوا في اقتنائها، ولقد حط مرة على باب الربيع بن سليمان ـ خادمه وتلميذه وراوية كتبه ـ تسعمائة راحلة[1]، كلهم حريص على سماع كتب الشافعي من الربيع وروايتها عنه.

وكان أحمد بن حنبل يقول في فضل الشافعي على العلماء والمؤلفين: «ما أحد مسَّ محبرة ولا قلماً إلّا وللشافعي في عنقه منة»[2].

وقال عبد الملك الميموني: قال لي أحمد بن حنبل: لم أنظر في كتاب أحدٍ ممن وضع كتب الفقه غير الشافعي، وإنه قال لي: لِمَ لا تنظر فيها؟! وذكر لي كتاب الرسالة، فقدَّمه من كتبه[3]. وقال قتيبة بن سعيد[4]: «لو وصلتني كتب الشافعي لكتبتها، ما رأت عيني أكيس منها»[5]. وقال حرملة: كان أبي قد رتب لي كاتباً، وقال للكاتب: «اكتب

---

(١) تهذيب الأسماء (١ : ٤٨).

(٢) توالي التأسيس (٥٧).

(٣) آداب الشافعي (٦٢).

(٤) هو قتيبة بن سعيد الثقفي مولاهم، أبو رجاء البغلي أو البغلاني، وبغلان: من قرى بلخ، أحد أئمة الحديث، عن مالك والليث، وعنه البخاري ومسلم وأبو داود والترمذي والنسائي. ومن أقرانه أحمد والحميدي، وثقه ابن معين وأبو حاتم، توفي سنة ٢٤٠ هـ.

(٥) تهذيب الأسماء (١ : ٦٠)

كل ما تكلم به الشافعي»[1]. وقال محمد بن علي بن المديني، قال لي أبي: «لا تترك حرفاً للشافعي إلا واكتبه»[2] وقال محمد بن علي بن المديني: «إني لا أترك للشافعي حرفاً واحداً إلا كتبته فإن فيه معرفة»[3] وقال محمد بن يعقوب: «سمعت علي بن المديني يقول لعلي بن المبارك ـ وقد ذكر مسألة ـ فقال له علي بن المديني: عليكم بكتب الشافعي»[4]

وعن أحمد بن سلمة النيسابوري قال: تزوج إسحاق بن راهويه امرأة كان عند زوجها كتب الشافعي، فتوفي، فلم يتزوج بها إلّا لأجل كتب الشافعي، فوضع جامعه الكبير على كتاب الشافعي[5].

وقدم أبو إسماعيل الترمذي نيسابور، وكان عنده كتب الشافعي عن البويطي، قال: فقال لي إسحاق بن راهويه: إن لي إليك حاجة، فقلت: ما هي؟ قال: لا تحدّث بكتب الشافعي ما دمت بنيسابور، قال: فأجابه إلى ذلك، ولم يحدث بها حتى خرج من نيسابور.

قال البيهقي: (أراد إسحاق ـ مع عظم محله من العلم ـ أن يشتهر تصنيفه بنيسابور في الفقه دون الشافعي، وأراد الله إظهار كتب من كان يقول: «ما أبالي لو أن الناس كتبوا كتبي

---

(١) (٢) تهذيب الأسماء (١ : ٦٠).

(٣) (٤) توالي التأسيس (٥٧).

(٥) توالي التأسيس (٧٦).

وتفقهوا بها، ثم لم ينسبوها إليَّ»[1]. فكان ما أراد الله دون ما أراد غيره)[2].

هذا قليل من كثير من تعلق علماء عصره بكتبه، بل بكل حرف ينطق به أو يكتبه، وإنما كان ذلك بعظيم إخلاصه، وصفاء سريرته، وإيثار نفع غيره، وزهده في مباهج الدنيا وزخارفها، وطمعه فيما عند الله، وما أعظمه مخلصاً نبيلاً، مترفعاً عن الصغائر والمظاهر حين يقول: «ما ناظرت أحداً قط على الغلبة، وبودي أن جميع الخلق تعلموا هذا الكتاب، فلا ينسب إليَّ منه شيء»[3].

وقال أبو أحمد بن عدي[4]: «سمعت أبا بكر بن أبي حامد، صاحب بيت المال بمصر يقول: كنا في مجلس ابن الفرات[5]، وفي المجلس أبوموسى الضرير، شيخ أصحاب الرأي إذ ذاك، فقال ابن الفرات لأبي موسى: أسألك عن رجلين

---

(١) هذا قول الإمام الشافعي.

(٢) توالي التأسيس (٧٦).

(٣) توالي التأسيس (٧٦).

(٤) هو: عبد الله بن عدي بن عبد الله الجرجاني، ويعرف بابن القطان الحافظ الكبير، أحد الجهابذة المرجوع إليهم في العلل والرجال، توفي سنة ٣٦٥ هـ.

(٥) هو: علي بن محمد بن موسى، أبو الحسن بن الفرات، وزير من الدهاة الفصحاء الأدباء الأجواد، تولى الوزارة ثلاث مرات أيام المقتدر، وقتل سنة ٣١٢ هـ.

فأجبني عنهما، قال: يقول الوزير، قال: يحيى بن أكثم لا ينكر علمه، ومحله من السلطان ما قد علمت، حتى كان المأمون يدخله معه في فراشه، صنف الكتب، ولا تنكر فصاحته ومعرفته، لا أرى يجتمع على قوله نفسان، وهذا الشافعي وافى العراق متلفقاً، وما له عند السلطان محل، صنف الكتب، وأرى ذكره كل يوم يعلو، والاجتماع على قوله أكثر؟! فأطرق أبو موسى ساعة، ثم قال: أقول: «إن الشافعي أراد الله بعلمه؛ فرفعه الله»[1].

وأخرج الحاكم من طريق محفوظ بن أبي توبة قال: سمعت الشافعي يقول: «يقولون: إني إنما أخالفهم للدنيا، وكيف يكون ذلك والدنيا معهم؟ وإنما يريد الإنسان الدنيا لبطنه وفرجه، وقد منعت ما ألذ من المطاعم، ولا سبيل إلى النكاح ـ يعني لما كان به من البواسير ـ ولكن لست أخالف إلّا من خالف سنة رسول الله ﷺ»[2].

بدؤه بالتأليف وسرد مؤلفاته:

لقد بدأ رحمه الله تآليفه حين قصد إلى العراق المرة الثانية، يعلن مذهبه، وينشر اجتهاده، وينصر السنة، ويرد على من خالفها، وذلك سنة خمس وتسعين ومائة، حين اجتمع من حوله المحدِّثون يفيدون من علمه وفقهه واجتهاده،

---

(١) توالي التأسيس (٧٦).

(٢) توالي التأسي (٧٦).

ويستنصرون بعقله وحجته وبيانه. قال الحميدي: «كنا نريد أن نرد على أهل الرأي، فلا نحسن حتى جاءنا الشافعي، ففتح لنا»(١).

والظاهر أن أول كتاب وضعه في العراق كتاب «الحجة» وفيه مذهبه القديم، إذا قلنا: إن كتاب «الرسالة» وضع في مكة استجابة لطلب الإمام عبد الرحمن بن مهدي قبل قدومه إلى العراق المرة الثانية، ورأي الفخر الرازي أنه صنفه في العراق، فتكون الرسالة على هذا أول كتاب له صنفه في العراق، ثم بعده كتاب «الحجة» وكان الدافع إلى تأليفه الرد على أصحاب الرأي. قال الشافعي: «اجتمع عليَّ أصحاب الحديث، فسألوني أن أضع على كتاب أبي حنيفة، فقلت: لا أعرف قولهم، حتى أنظر في كتبهم، فأمرت، فكتبت لي كتب محمد بن الحسن، فنظرت فيها سنة، حتى حفظتها، ثم وضعت الكتاب البغدادي»(٢) ـ يعني الحجة ـ وليس معنى هذا أن كتاب «الحجة» إنما وضع كله للرد على أصحاب الرأي، بل هو كتاب اجتهادي، يبحث في جميع ألوان الفقه مع الأدلة، ومن مباحثه الرد على المخالفين، فهو بذلك مجموعة كتب شبيه بكتاب الأم الذي هو أيضاً مجموعة من الأجزاء، بلغت نحواً من مائة ونيف وأربعين كتاباً.

---

(١) تهذيب الأسماء واللغات (١: ٦٢).

(٢) توالي التأسيس (٧٦).

ومن عادة الشافعي أن يؤلف في مواضيع محددة، كاختلاف الحديث، وجماع العلم، وإبطال الاستحسان، إلى غير ذلك، ثم جمعت هذه المؤلفات في كتاب، بل كان يود الشافعي لو يضع في كل مسألة جزءاً، فهو يقول: «لولا أن يطول على الناس، لوضعت في كل مسألة جزء حجج وبيان»[1]. وقد ألف في مواضيع لم يسبق إليها. يقول أحمد بن حنبل: «ما سبق أحد الشافعي إلى كتاب الجزية»[2].

وعرف عن الشافعي أنه قد يؤلف الكتاب من حفظه حين لا تتيسر له المراجع. يقول الربيع: «ألف الشافعي هذا الكتاب ـ يعني المبسوط ـ حفظاً، لم يكن معه كتاب»[3].

وهاك أسماء كتب الشافعي مسرودة كما جاءت في معجم الأدباء[4]:

كتاب الطهارة، كتاب مسألة المني، كتاب استقبال القبلة، كتاب الإمامة، كتاب إيجاب الجمعة، كتاب صلاة العيدين، كتاب صلاة الكسوف، كتاب صلاة الاستسقاء، كتاب صلاة الجنائز، كتاب الحكم في تارك الصلاة، كتاب الصلاة

---

(١) توالي التأسيس (٦٢).

(٢) توالي التأسيس (٧٧).

(٣) توالي التأسيس (٧٨).

(٤) معجم الأدباء (١٧ : ٣٢٤).

الواجبة والتطوع والصيام، كتاب الزكاة الكبير، كتاب زكاة الفطر، كتاب زكاة مال اليتيم، كتاب الصيام الكبير، كتاب المناسك الكبير، كتاب المناسك الأوسط، كتاب مختصر المناسك، كتاب الصيد والذبائح، كتاب البيوع الكبير، كتاب الصرف والتجارة، كتاب الرهن الكبير، كتاب الرهن الصغير، كتاب الرسالة، كتاب أحكام القرآن، كتاب اختلاف الحديث، كتاب جماع العلم، كتاب اليمين مع الشاهد، كتاب الشهادات، كتاب الإجارات الكبير، كتاب كري الإبل والرواحل، كتاب الإجارات إملاءً، كتاب اختلاف الأجير والمستأجر، كتاب الدعوى والبينات، كتاب الإقرار والمواهب، كتاب رد المواريث، كتاب بيان فرض الله عز وجل، كتاب صفة نهي النبي عليه الصلاة والسلام، كتاب النفقة على الأقارب، كتاب المزارعة، كتاب المساقاة، كتاب الوصايا الكبير، كتاب الوصايا بالعتق، كتاب الوصية للوارث، كتاب وصية الحامل، كتاب صدقة الحي عن الميت، كتاب المكاتب، كتاب المدبر، كتاب عتق أمهات الأولاد، كتاب الجناية على أم الولد، كتاب الولاء والحلف، كتاب التعريض بالخطبة، كتاب الصداق، كتاب عشرة النساء، كتاب تحريم ما يجمع من النساء، كتاب الشغار، كتاب إباحة الطلاق، كتاب العدة، كتاب الإيلاء، كتاب الخلع والنشوز، كتاب الرضاع، كتاب الظهار، كتاب اللعان، كتاب أدب القاضي، كتاب الشروط، كتاب اختلاف العراقيين، كتاب اختلاف

علي وعبد الله، كتاب سير الأوزاعي، كتاب الغصب، كتاب الاستحقاق، كتاب الأقضية، كتاب إقرار أحد الابنين بأخ، كتاب الصلح، كتاب قتال أهل البغي، كتاب الأسارى والغلول، كتاب القَسامة، كتاب الجزية، كتاب القطع في السرقة، كتاب الحدود، كتاب المرتد الكبير، كتاب المرتد الصغير، كتاب الساحر والساحرة، كتاب القراض، كتاب الأيمان والنذور، كتاب الأشربة، كتاب الوديعة، كتاب العمرى، كتاب بيع المصاحف، كتاب خطأ الطبيب، كتاب جناية معلم الكتاب، كتاب جناية البيطار والحجام، كتاب اصطدام الفرسين والنفسين، كتاب بلوغ الرشد، كتاب اختلاف الزوجين في متاع البيت، كتاب صفة النفس، كتاب فضائل قريش والأنصار، كتاب الوليمة، كتاب صول الفحل، كتاب الضحايا، كتاب البحيرة والسائبة، كتاب قسم الصدقات، كتاب الاعتكاف، كتاب الشفعة، كتاب السبق والرمي، كتاب الرجعة، كتاب اللقيط والمنبوذ، كتاب الحوالة والكفالة، كتاب كري الأرض، كتاب التفليس، كتاب اللقطة، كتاب فرض الصدقة، كتاب قسم الفيء، كتاب القرعة، كتاب صلاة الخوف، كتاب الديات، كتاب الجهاد، كتاب جراح العمد، كتاب الخرص، كتاب العتق، كتاب عمارة الأرضين، كتاب إبطال الاستحسان، كتاب العقول، كتاب الأولياء، كتاب الرد على محمد بن الحسن، كتاب صاحب الرأي، كتاب سير الواقدي، كتاب حبل الحبلة،

كتاب خلاف مالك والشافعي، كتاب قطاع الطريق.

ومعظم هذه الكتب قد اشتمل عليها كتاب «الأم» وهي من رواية الربيع بن سليمان المرادي وسماعه. وهي أثبت الروايات وأصحها، وحمل عنه حرملة كتاباً كبيراً يسمى كتاب السنن، وحمل عنه المزني كتابه «المبسوط» وهو المختصر الكبير والمنثورات، وكذا المختصر المشهور.

ومؤلفاته: إما أن يكون موضوعها الأصول كـ «الرسالة» و «اختلاف الحديث» و «صفة الأمر والنهي» و «إبطال الاستحسان» وإما أن يكون موضوعها الفقه، وهذا ما عليه أكثر مؤلفاته كـ «الصلوات» و «البيوع» و «المزارعة» و «الدعوى والبينات» وغير ذلك كثير. وإما أن يكون موضوعها الرد على المخالفين، ككتاب «الرد على محمد بن الحسن» و «اختلاف مالك والشافعي» و «سير الأوزاعي».

وبعض المؤلفات لا علاقة لها بأصول ولا فروع، ككتاب «فضائل قريش» و «السبق والرمي». وإليك هذه الطريفة عن كتب الشافعي، وهي رؤيا رآها الشافعي تدل على ما يخبىء له القدر من علم ينتشر في أقطار الإسلام. يقول الربيع: سمعت الشافعي يقول: «أريت في المنام كأن آتياً أتاني، فحمل كتبي، فبثها في الهواء، فتطايرت، فقصصتها على بعض المعبرين، فقال: إن صدقَتْ رؤياك؛ لم يبق بلد من بلاد الإسلام إلا دخله علمك»[1].

(١) توالي التأسيس (٥٢).

شيُوخ الشافِعي

تقدم القول في نشأته بمكة: أن أول شيخ قصد إليه الشافعي حين عزم على دراسة الفقه مسلم بن خالد الزنجي، ثم أمَّ مجلس سفيان بن عيينة، ثم تهيأت له الأسباب للذهاب إلى المدينة، وليأخذ عن مالك، ثم لما أتت به محنته إلى العراق كتب كتب محمد بن الحسن وسمعها عليه. هؤلاء أكثر شيوخ الشافعي نفعاً له وتأثيراً عليه، وأكثر هؤلاء تأثيراً ونفعاً: سفيان بن عيينة، ومالك، وإذا ذكر العلماء فمالك النجم كما نقل عن الشافعي.

وهناك للشافعي شيوخ كثيرون غيرهم من مختلف البلدان، ومن مختلف الآراء والاتجاهات. قال أبو الوليد بن أبي الجارود: «كنا نتحدث نحن وأصحابنا من أهل مكة، أن الشافعي أخذ كتب ابن جريج عن أربعة أنفس: عن مسلم بن خالد، وسعيد بن سالم، وهذان فقيهان، وعن عبد المجيد بن عبد العزيز بن أبي روَّاد ـ وكان أعلمهم بابن جريج ـ وعن عبد الله بن الحارث المخزومي وكان من الأثبات. وانتهت رياسة الفقه بالمدينة إلى مالك بن أنس، رحل إليه، ولازمه، وأخذ عنه. وانتهت رياسة الفقه بالعراق إلى أبي حنيفة، فأخذ عن صاحبه محمد ابن الحسن جملاً، ليس فيها شيء إلّا وقد سمعه عليه، فاجتمع له علم أهل الرأي، وعلم أهل الحديث، فتصرف في ذلك حتى أصَّل الأصول وقعد

القواعد، وأذعن له الموافق والمخالف، واشتهر أمره وعلا ذكره، وارتفع قدره حتى صار منه ما صار»[1].

ونأتي على ذكر شيوخه مرتبين على حروف المعجم كما جاء ترتيبهم في كتاب توالي التأسيس لابن حجر[2].

إبراهيم بن سعد بن إبراهيم الزهري[3]، إبراهيم بن عبد العزيز بن أبي محذورة[4]، إبراهيم بن محمد بن أبي يحيى[5]، إبراهيم بن هرم، أسامة بن زيد بن أسلم[6]، إسحاق بن يوسف الأزرق[7]، إسماعيل بن

---

(١) توالي التأسيس (٥٣).

(٢) توالي التأسيس (٥٢).

(٣) هو: إبراهيم بن سعد بن إبراهيم بن عبد الرحمن بن عوف، أبو إسحاق المدني، نزيل بغداد وقاضيها، وأحد الأعلام، وثقه أحمد ويحيى بن معين، مات سنة ١٨٣ هـ.

(٤) هو: إبراهيم بن عبد العزيز أبو إسماعيل المكي، صدوق يخطىء، روى عنه الحميدي والشافعي.

(٥) هو: إبراهيم بن محمد بن أبي يحيى أبو إسحاق المدني، أحد الأعلام على ضعفه، وعنه الشافعي، ووثقه الثوري، مات سنة ١٨٤ هـ.

(٦) هو: أسامة بن زيد العدوي المني، قال ابن سعد: توفي في خلافة المنصور.

(٧) هو: إسحاف بن يوسف أبو محمد الواسطي، أحد الأعلام، عن شريك فأكثر والأعمش والثوري، وعنه أحمد وابن معين، قيل لأحمد: أثقة هو؟ قال: إي والله، مات سنة ١٩٥ هـ.

إبراهيم بن مقسم[1]، إسماعيل بن جعفر بن أبي كثير[2]، إسماعيل بن عبد الله بن قسطنطين[3]، أنس بن عياض[4]، أيوب بن سويد الرملي[5]، جعفر بن إبراهيم الطائي، حاتم بن إسماعيل المدني[6]، الحارث بن عمير البصري[7]، الحر بن إبراهيم، حسين الألثغ، حماد بن

---

(١) هو: إسماعيل بن إبراهيم بن مقسم الأسدي القرشي مولاهم، أحد الأئمة الأعلام. قال أحمد: إليه المنتهي في التثبت، وقال ابن معين: كان ثقة مأموناً ورعاً تقياً، مات سنة ١٩٣ هـ.

(٢) هو: إسماعيل بن جعفر الزرقي، مولاهم. أبو إسحاق المدني، قارىء أهل المدينة، وثقه أحمد بن حنبل، توفي سنة ١٨٠ هـ.

(٣) تقدمت ترجمته في الصحيفة ١٧٩.

(٤) هو: أنس بن عياض أبو ضمرة الليثي، عن هشام وسهيل، وعنه أحمد والقعنبي، وأحمد بن صالح وخلق، وثقه النسائي وجماعة، مات سنة مائتين عن ٩٦ سنة.

(٥) سلفت ترجمته في الصحيفة ٢٤٧.

(٦) هو: حاتم بن إسماعيل، كوفي الأصل، عن الجعد بن عبد الرحمن وهشام بن عروة، وعنه إسحاق وابن معين وخلق، قال ابن سعد: كان ثقة مأموناً. مات سنة ١٨٦ هـ.

(٧) الحارث بن عمير البصيري هو: أبو عمير نزيل مكة، عن أيوب وحميد، وعنه عبد الوارث، قال ابن معين والنسائي: ثقة.

أسامة[1]، حماد بن زيد البصري[2]، حماد بن ظريف، داود بن عبد الرحمن العطار[3]، سعيد بن سالم القداح[4]، سعيد بن سلمة بن أبي الحسام[5]، سعيد ابن مسلمة الأموي[6]، سفيان بن عيينة[7]، سليمان ابن عمرو[8]، سماك بن الفضل الجندي[9]، الضحاك

---

(١) حماد بن أسامة: هو أبو أسامة الهاشمي مولاهم، الكوفي الحافظ، قال أحمد: ثقة، مات سنة ٢٠١ هـ.

(٢) هو: حماد بن زيد البصري الأزدي، قال ابن مهدي: ما رأيت أحفظ منه ولا أعلم بالسنة ولا أفقه بالبصرة منه، توفي سنة ١٩٧ هـ.

(٣) تقدمت ترجمته في الصحيفة ٥٩.

(٤) تقدمت ترجمته في الصحيفة ٥٩.

(٥) هو: سعيد بن سلمة العدوي مولاهم الدوسي، أبو عمرو المدني، وثقه ابن حبان.

(٦) هو سعيد بن مسلمة الجزري، ضعفه البخاري والنسائي، بقي إلى ما بعد المائتين.

(٧) سبقت ترجمته في الصحيفة ٥٨.

(٨) هو سليمان بن عمرو بن الأحوص الأزدي الجشمي، كوفي موثق.

(٩) هكذا ذكره ابن حجر في «تواليه» والصحيح أنه أبو حنيفة بن سماك بن الفضل، وأما الذي ذكره فقديم جداً لم يدركه الشافعي، وقد ذكره على الصواب الدولابي في «الكنى والأسماء» قال: «وأبو حنيفة بن سماك بن الفضل روى عنه الشافعي. اهـ» انظر تعليق أحمد محمد شاكر على الرسالة ص ٤٥١.

ابن عثمان الحزامي[1]، عباد بن العوام[2]، عبد الله ابن إدريس الأودي[3]، عبد الله بن الحارث المكي[4]، عبد الله بن سعيد بن عبد الملك أبو صفوان الأموي[5]، عبدالله بن المبارك المروزي[6]، عبدالله بن موسى التيمي[7]، عبد الله بن المؤمل[8]، عبد الله بن نافع الصائغ[9]،

---

(١) أبو عثمان المدني، وثقه ابن معين، وتوفي سنة ١٥٣ هـ، وعلى هذا التاريخ في وفاته لا يصح أن يكون أستاذاً للشافعي، إلا إذا كان هناك خطأ في تاريخ وفاته.

(٢) عباد بن العوام هو: أبو سهل الواسطي، وثقه ابن معين، وقال ابن سعد: كان يتشيع، توفي سنة ١٨٥ هـ.

(٣) عبد الله بن إدريس هو: أبو محمد الكوفي، أحد الأعلام، قال ابن معين: ثقة في كل شيء، توفي سنة ١٩٢ هـ.

(٤) هو: عبد الله بن الحارث المكي ابن أبزى، قال أبو حاتم: شيخ لا بأس به.

(٥) هو: عبد الله بن سعيد بن عبد الملك بن مروان الأموي، أبو صفوان الدمشقي، وثقه ابن معين.

(٣) عبد الله بن المبارك هو: أحد الأئمة الأعلام، قال ابن عيينة: ابن المبارك عالم المشرق والمغرب وما بينهما، وقال ابن معين: ثقة صحيح الحديث، توفي سنة ١٨١ هـ.

(٧) عبد الله بن موسى، قال أبو حاتم عنه: ما أرى بحديثه بأساً.

(٨) هو عبد الله بن المؤمل المخزومي العابدي. قال أبو داود: منكر الحديث، وضعفه ابن عدي، وأما ابن حبان فوثقه، توفي سنة ١٦٧ هـ.

(٩) هو: عبد الله بن نافع مولى بني مخزوم، أبو محمد المدني، وثقه =

عبد الله بن الوليد العدني[1]، عبد الرحمن بن أبي بكر المليكي[2]، عبد الرحمن بن الحسن بن القاسم الغساني الأزرق، عبد الرحمن بن أبي الزناد بن ذكوان[3]، عبد الرحمن بن عبد الله بن عمر العمري[4].

عبد العزيز بن عبد الله بن أبي سلمة[5]، عبد العزيز بن محمد الدراوردي[6]، عبد المجيد بن عبد العزيز بن أبي روّاد[7]، عبد الكريم بن محمد الخراساني[8]، عبد

= ابن معين والنسائي، توفي سنة ٢٠٦ هـ.

(١) هو عبد الله بن الوليد الأموي مولاهم، أبو محمد المكي، قال أحمد: ثقة، صحيح الحديث.

(٢) ابن عبيد الله بن أبي ملكية التيمي المدني، ضعفه ابن معين.

(٣) هو عبد الرحمن بن أبي الزناد، القرشي مولاهم، أبو محمد المدني، قال ابن معين: ما حدث بالمدينة فهو صحيح، توفي سنة ١٧٤ هـ.

(٤) هو عبد الرحمن بن عبد الله أبو القاسم المدني، نزيل بغداد أحد الضعفاء.

(٥) هو عبد العزيز بن عبد الله الماجشون التيمي، مولاهم المدني الفقيه، أحد الأعلام. قال ابن معين: ثقة، توفي سنة ١٦٦ هـ.

(٦) هو عبد العزيز بن محمد: أحد الأعلام، قال ابن سعد: ثقة كثير الحديث، توفي سنة ١٨٩ هـ.

(٧) تقدمت ترجمته في الصحيفة ٦٠.

(٨) عبد الكريم بن محمد الخراساني هو: أبو سهيل الجرجاني القاضي، كان من خيار عباد الله، مرجئاً، توفي بعد ١٧٠ هـ.

الملك بن الوليد[1]، عبد الوهاب بن عبد المجيد الثقفي[2]، عطاف بن خالد[3]، عمر بن عبد الرحمن بن محيصن[4]، عمرو بن حبيب[5]، عمرو بن أبي سلمة التنيسي، عمرو بن يحيى بن عمرو بن سعيد الأموي، الفضيل بن عياض، القاسم بن عبدالله بن عمر العمري، مالك بن أنس[6]، محمد ابن إسماعيل بن أبي فديك، محمد بن الحسن الشيباني[7]، محمد بن خالد الجندي[8]، محمد بن العباس الشافعي[9]، محمد بن عبد الله الأنصاري[10]، محمد بن عثمان بن أبي

(١) هو عبد الملك بن الوليد بن معدان الضبعي البصري، قال ابن معين: صالح.

(٢) سبقت ترجمته في الصحيفة ١٤٤.

(٣) هو: عطاف بن خالد بن عبد الله بن العاص المخزومي، قال ابن عدي: لم أر بحديثه بأساً، وقال أبو داود: ثقة.

(٤) هو عمر بن عبد الرحمن أبو حفص المقرىء، وثقه ابن حبان وضعفه الذهبي.

(٥) هو: عمرو بن حبيب العدوي، مولاهم، البصري، قاضيها، توفي سنة ٢٠٩ هـ.

(٦) سبقت ترجمته في الصحيفة ٧٣.

(٧) سبقت ترجمته في الصحيفة ٢٩٦.

(٨) هو: محمد بن خالد الصنعاني، وثقه يحيى بن معين.

(٩) هو: محمد بن العباس بن عثمان بن شافع المطلبي المكي، عم الشافعي، وثقه ابن حبان.

(١٠) هو: محمد بن عبد الله بن حفص بن هشام بن زيد بن أنس بن مالك الأنصاري البصري، وثقه ابن حبان.

صفوان[1]، محمد بن علي بن شافع[2]، محمد بن عمر الواقدي[3]، محمد بن يزيد الواسطي[4]، مروان بن معاوية الفزاري[5]، مسلم بن خالد الزنجي[6]، مطرِّف بن مازن الصنعاني[7]، معاذ بن موسى الجعفري، هشام بن يوسف الصنعاني[8]، وكيع بن الجراح[9]، يحيى بن حسان

(١) هو: محمد بن عثمان بن أبي صفوان بن مروان بن عثمان بن أبي العاص، وثقه أبو حاتم، توفي سنة ٢٥٢ هـ.

(٢) هو محمد بن علي بن شافع المطلبي، عن الزهري، وعنه سبطه ابن بنته إبراهيم بن محمد الشافعي، وثقه الإمام الشافعي.

(٣) هو: محمد بن عمر الواقدي الأسلمي، أحد الأعلام، وقاضي العراق قال مصعب الزبيري: ما رأيت مثله، وقال البخاري: متروك، مات سنة ٢٠٧ هـ.

(٤) هو: محمد بن يزيد الواسطي الكلاعي الشامي، قال ابن معين: ثقة، مات سنة ١٨٨ هـ.

(٥) هو: مروان بن معاوية بن الحارث بن أسماء بن خارجة الفزاري، أبو عبدالله الكوفي الحافظ، واسع الرواية جداً. قال أحمد: ثبت حافظ، مات فجأة سنة ١٩٣ هـ.

(٦) سبقت ترجمته في الصحيفة ٥٥.

(٧) مطرف بن مازن الصنعاني: حدث عن معمر وابن جريج، كذبه يحيى بن معين، وقال ابن عدي: لم أر متناً منكراً، وكان قاضي صنعاء، وكان رجلاً صالحاً، توفي سنة ١٩١ هـ.

(٨) هو: هشام بن يوسف الإيناوي أبو عبد الرحمن، قاضي صنعاء، قال أبو حاتم: ثقة متقن، مات سنة ١٩٧ هـ.

(٩) هو: وكيع بن الجراح الرؤاسي الكوفي الحافظ، أحد الأئمة =

التنيسي[1]، يحيى بن سعيد القطان[2]، يحيى بن سليم المكي[3].

يزيد بن عبد الملك النوفلي[4]، يعقوب بن فصا، يوسف بن الأسود، يوسف بن خالد السمتي[5]، يوسف بن عمرو بن عبد يزيد[6]، يوسف بن يعقوب بن الماجشون[7]، ابن أبي الكنان الخزاعي.

= الأعلام، قال أحمد: ما رأيت أوعى منه ولا أحفظ، مات سنة ١٩٦ هـ.

(١) هو: يحيى بن حسان بن حيان البكري أبو زكريا، وثقه أحمد والعجلي، توفي سنة ٢٠٨ هـ.

(٢) سبقت ترجمته في الصحيفة ٢١٠.

(٣) هو: يحيى بن سليم المكي الطائفي القرشي الخزار، وثقة أحمد، مات سنة ٢٣١ هـ.

(٤) هو: يزيد بن عبد الملك بن نوفل بن الحارث بن عبد المطلب، روى عن يزيد بن خصيفة، وروى عنه معن بن عيسى وعبد الله بن نافع.

(٥) هو: أبو خالد يوسف بن خالد بن عمر الليثي مولاهم، السمتي البصري، يروي عن الأعمش وزياد بن سعد وغيرهما، روى عنه ابنه خالد، والعباس بن الوليد، كذبه ابن معين، مات سنة ١٨٧ هـ.

(٦) هو: يوسف بن عمرو بن عبد يزيد الفارسي المصري، كان رجلاً فاضلاً، توفي سنة ٢٠٥ هـ.

(٧) هو: يوسف بن يعقوب أبو سلمة المدني، وثقه ابن معين، مات سنة ١٨٥ هـ.

يقول ابن حجر:

«فهؤلاء شيوخه الذين نقل عنهم العلم من الفقه والحديث والأخبار، سمع منهم بمكة والمدينة واليمن والعراق ومصر، وكان مكثراً من الحديث، ولم يكثر من الشيوخ كعادة أهل الحديث؛ لإقباله على الاشتغال بالفقه حتى حصل منه ما حصل»(١).

تلاميذ الشافعي

لم يكن لأحد من الأئمة من الأصحاب والرواة والتلاميذ ما كان للإمام الشافعي نوعاً وعدداً. قال داود بن علي الظاهري: «ومنها ـ أي من فضائله ـ ما اتفق له من الأصحاب مثل: أبي عبد الله أحمد في زهده وعلمه وإقامته على السنة، ومثل سليمان بن داود الهاشمي، والحميدي، والكرابيسي،. وأبي ثور، والزعفراني، والبويطي، وأبي الوليد بن أبي الجارود، وحرملة، والربيع، والحارث بن سريج، والقائم بمذهبه أبو إبراهيم المزني. ولم يتفق لأحدٍ من العلماء والفقهاء ما اتفق له من ذلك»(٢).

ومن البديهي أن داود الظاهري لم يستقص وإنما أتى بالأمثلة، ويصعب استقصاء من أخذ أو روى عنه، وقد قدمنا

(١) توالي التأسيس (٥٣).

(٢) توالي التأسيس (٦١).

في ثنايا الكتاب في رحلته الثانية إلى بغداد ورحلته إلى مصر- ذكر بعض أصحابه. ونحاول هنا أن نذكر أكثر ما سُمي من أصحابه، فقد جمعهم ابن حجر في كتابه «توالي التأسيس بمعالي ابن إدريس» سواء أكانوا من شيوخه الراوين عنه، أم من أقرانه.

وإليك أسماءهم على حروف المعجم حتى في الآباء والأجداد، كما رتبها العلامة ابن حجر[1]:

أحمد بن الحجاج المروزي، وهو من شيوخ البخاري.

أحمد بن خالد الخلال البغدادي، وهو من شيوخ الترمذي والنسائي.

أحمد بن سعيد بن بشير الهمذاني ثم المصري، وهو من شيوخ أبي داود.

أحمد بن سنان القطان، حافظ، وهو من شيوخ البخاري ومسلم وأبي داود.

أحمد بن صالح المصري أبو جعفر الطبري، وهو من شيوخ البخاري وأبي داود.

أحمد بن الصباح بن أبي سريج الرازي، وهو من شيوخ البخاري وأبى داود.

---

(١) توالي التأسيس (٧٩) وقد تقدمت ترجمة بعض هؤلاء وكنت أود أن أترجم الباقي لولا خوف الإطالة، فمن رغب في ذلك فليرجع إلى كتاب طبقات الشافعية الكبرى، أو غيره من كتب الرجال والطباقات عند المحدثين.

أحمد بن عبد الله المكي المقري المعروف بقنبل.

أحمد بن عبد الرحمن بن وهب، أبو عبد الله ابن أخي ابن وهب المصري، وهو من شيوخ مسلم وابن خزيمة.

أحمد بن عمرو بن السرح أبو الطاهر المصري، وهو من شيوخ مسلم وأبي داود.

أحمد بن محمد بن حنبل الشيباني البغدادي، أبو عبد الله، أحد الأئمة الأربعة.

أحمد بن محمد بن سعيد بن جبلة الصيرفي البغدادي.

أحمد بن محمد بن القاسم بن أبي بَزّة البزي المقري المشهور.

أحمد بن محمد بن الوليد الأزرقي المكي، وهو من شيوخ البخاري وإليه أوصى الشافعي.

أحمد بن أبي موسى، مصري.

أحمد بن يحيى بن عبد العزيز، أبو عبد الرحمن الشافعي.

أحمد بن يحيى بن الوزير المصري، وهو من شيوخ النسائي.

إبراهيم بن أبي حيَّة ا لمكي.

إبرايم بن خالد الكلبي، أبو ثور، أحد الفقهاء، من شيوخ مسلم وأبي داود، وهو أحد حملة الفقه القديم عن الشافعي.

إبراهيم بن سراقة.

إبراهيم بن عبد الله الحجبي المكي.

إبراهيم بن عيسى بن أبي أيوب.

إبراهيم بن محمد بن أيوب البصري.

إبرايم بن محمد الكوفي.

إبراهيم بن محمد بن العباس بن محمد بن علي الشافعي، من شيوخ ابن ماجه.

إبراهيم بن محمد بن هرم المصري.

إبراهيم بن المنذر الخزامي، من شيوخ البخاري.

إسحاق بن إبراهيم بن مخلد المروزي، أحد الأئمة، المعروف بابن راهويه.

إسحاق بن بهلول التنوخي، أحد الحفاظ.

إسحاق بن صغير العطار.

إسحاق بن عيسى بن الطباع، وهو ممن أخرج له مسلم وغيره.

أسد بن سعيد بن كثير بن عفير المصري.

إسماعيل بن إبراهيم بن طبابا العلوي المصري.

إسماعيل بن يحيى، أبو إبراهيم المزني، الإمام المشهور، من حملة الفقه الجديد عنه.

إسماعيل الحميري، أبو محمد.

إسماعيل الطيان الرازي، لقي الشافعي بمكة، وروايته عنه في كتاب ابن أبي حاتم.

أشهب بن عبد العزيز المصري، صاحب مالك.

أيوب بن سويد الرملي، وهو ممن روى له أبو داود وغيره.

بحر بن نصر بن سابق الخولاني المصري، من شيوخ النسائي.

بشر بن غياث المريسي.

الحارث بن سريج النقال، أحد من حمل عنه الفقه القديم، وهو من شيوخ الحسن بن سفيان.

الحارث بن سليمان الرملي، من شيوخ أبي زرعة الرازي.

حامد بن يحيى البلخي، من شيوخ أبي داود.

حرملة بن يحيى التجيبي المصري، أحد من حمل عنه الفقه الجديد، وهو من شيوخ مسلم.

الحسن بن إدريس بن يحيى الخولاني المصري.

الحسن بن أبي الربيع، واسمه: يحيى بن الجعد الجرجاني، من شيوخ ابن ماجه.

الحسن بن عبد العزيز الجروي المصري، من شيوخ البخاري.

الحسن بن عثمان الزيادي، أبو حسان الأخباري المشهور.

الحسن بن علي الخلال الحلواني، أحد الحفاظ، من شيوخ البخاري ومسلم وأبي داود والترمذي وابن ماجه.

الحسن بن محمد بن الصباح الزعفراني، أبو علي البغدادي، وهو من حملة الفقه القديم عنه، ومن شيوخ البخاري وأبي داود، والترمذي، والنسائي، وابن ماجه.

الحسين بن عبد السلام المصري، الشاعر المشهور المعروف بالجمل.

الحسين بن علي القلاس، قال الشيخ أبو إسحاق: كان من علية أصحاب الحديث، وحفاظ مذهب الشافعي.

الحسين بن علي الكرابيسي أحد الأئمة في الفقه والحديث، وأحد حملة الفقه القديم عن الشافعي، وهو ممن أخذ عنه البخاري.

خالد بن نزار الأيلي، ثم المصري، محدث مشهور، وهو ممن أخرج له داود والنسائي.

داود بن أبي صالح المدني، من شيوخ أبي داود.

الربيع بن سليمان بن داود الجيزي، أحد من حمل عنه الفقه الجديد، وهو من شيوخ أبي داود والنسائي.

الربيع بن سليمان بن عبد الجبار المرادي، أحد من حمل الفقه الجديد عنه، وأشهرهم بروايته، ومن شيوخ أبي داود والترمذي والنسائي وابن ماجه وابن خزيمة، وغيرهم من الأئمة.

الزبير بن سليمان القرشي، مكي.

زكريا بن يحيى المصري، المعروف بالوقار، أحد الفقهاء المالكية، وقد ضُعِّف.

زيد بن بشر الحضرمي، مصري.

سرج الغول المصري، فقيه، كان يلقب بذلك.

سعيد بن أسد بن موسى بن إبراهيم بن الوليد بن عبد

الملك بن مروان الشامي، ثم المصري، وأبوه يعرف بأسد السنة؛ له ولأبيه تصانيف.

سعيد بن الجهم بن نافع، أبو عثمان، ذكر ابن يونس: أنه كان أحد أوصياء الشافعي.

سعيد بن عيسى بن تليد الرعيني المصري، من شيوخ البخاري.

سعيد بن كثير بن عفير المصري، المحدث المشهور، من شيوخ البخاري.

سفيان بن سعيد الحباب، ذكر ابن الطحان: أنه روى عن الشافعي، ثم كان يلازم المزني، روى عنه الطحاوي.

سفيان بن عيينة الهلالي، أبو محمد الكوفي، ثم المكي، أحد الأئمة، وهو من شيوخه المشهورين.

سفيان بن محمد الضراري أحد الضعفاء.

سلمة بن شبيب النيسابوري، من شيوخ مسلم.

سليمان بن داود بن داود بن علي بن عبد الله بن عباس الهاشمي، أبو أيوب البغدادي، أحد الفقهاء الأئمة؛ وهو من شيوخ البخاري، خارج الصحيح، وأخرج له الأربعة بواسطة.

سليمان بن داود الشاذكوني، أحد الحفاظ، وهو ممن ضُعّف.

سليمان بن داود العطار.

سليمان بن عبد العزيز بن أبي ثابت.

سهل بن محمد، أبو حاتم السجستاني، أحد الأئمة في العربية، وهو من شيوخ أبي داود والنسائي.

سويد بن سعيد الحدثاني، المحدث المشهور، من شيوخ مسلم.

صالح بن أبي صالح عبد الله بن صالح المصري، المعروف أبوه بكاتب الليث.

عباس بن الفرج الرياشي.

عبد الله بن الزبير بن عيسى بن عبيد الله الحميدي المكي، من شيوخ البخاري.

عبد الله بن صالح بن محمد الجهني، أبو صالح، كاتب الليث، المصري، من شيوخ البخاري.

عبد الله بن عبد الحكم بن أعين المصري، الفقيه المالكي.

عبد الله بن محمد بن العباس بن عثمان الشافعي، ابن عم الشافعي.

عبد الله بن محمد بن عقيل البغدادي.

عبد الله بن محمد البلوي، أحد الضعفاء.

عبد الحميد بن الوليد بن المغيرة البصري.

عبد الرحمن بن إبراهيم الزهري.

عبد الرحمن بن إبراهيم الدمشقي، المعروف بدُحيم،

أحد الحفاظ وهو من شيوخ البخاري.

عبد الرحمن بن عبد الله بن سوار العنبري البصري.

عبد الرحمن بن عبد الله بن عبد الحكم بن أعين المصري.

عبد الرحمن بن مهدي البصري، أحد أئمة الحديث الكبار الحفاظ.

عبد العزيز بن سليم بن ميمون الكناني.

عبد العزيز بن عمران بن مقلاص الخزاعي، أبو علي المصري، أحد من حمل عنه الفقه.

عبد العزيز بن يحيى المكي، صاحب كتاب الحيدة، ذكر داود بن علي: أنه صحب الشافعي، وخرج معه إلى اليمن.

عبد الغني بن عبد العزيز العسال.

عبد الغني بن أبي عقيل العسال، من شيوخ أبي داود.

عبد الكريم بن محمد الجرجاني، قاضي مكة.

عبد الملك بن عبد العزيز الماجشون، الفقيه المالكي المشهور.

عبد الملك بن قريب الأصمعي، الإمام في اللغة المشهور.

عبد الملك بن هشام المصري النحوي المشهور، صاحب تهذيب السيرة النبوية.

عبدوس العطار.

عبيد الله بن عبد الخالق المهري المصري.

عبيد الله بن محمد بن هارون.

علي بن زيد البغدادي.

علي بن سليمان الأخميمي.

علي بن سهل بن المغيرة الرملي.

علي بن عبد الله بن جعفر بن المديني، الإمام المشهور، من شيوخ البخاري.

علي بن الرحمن بن المغيرة المصري المعروف بعلان.

علي بن مسلم الثقفي.

علي بن معبد بن شداد الرقي، روى له الترمذي.

علي الآدم، كان من أصحاب الشافعي، ومات بأسوان في حياة البويطي، ذكره أبو الحسن الرازي.

عمرو بن خالد الحراني، ثم المصري من شيوخ البخاري.

عمرو بن أبي سلمة التنيسي، المحدث المشهور، روى له السنة.

عمرو بن سواد المصري، من شيوخ مسلم.

الفضل بن دكين، أبو نعيم، شيخ البخاري.

الفضل بن الربيع، الوزير المشهور.

القاسم بن سلام، أبو عبيد الإمام المشهور.

قتيبة بن سعيد البلخي، من شيوخ الأئمة الخمسة، مشهور.

قحزم بن عبد الله بن قحزم الأسواني، أحد من حمل عنه الفقه الجديد، قال ابن يونس في تاريخه: رحل الناس إليه في الفقه بعد المزني، وهو آخر من صحب الشافعي موتاً.

كثير، أبو نهشل.

الليث بن عاصم القتباني المصري، أبو زرارة، من شيوخ النسائي.

محفوظ بن أبي توبة.

محمد بن أحمد المصري.

محمد بن بشير الشيبي المكي.

محمد بن أبي بكر المقدمي، المحدث المشهور، من شيوخ البخاري ومسلم.

محمد بن خلف العسقلاني، من شيوخ النسائي، وابن ماجه.

محمد بن سعيد بن غالب العطار، من شيوخ ابن ماجه.

محمد بن سعيد بن أبي مريم المصري.

محمد بن العباس المكى.

محمد بن عبد الله بن عبد الحكم بن أعين المصري، أحد الأئمة في الفقه، تفقه للشافعي، ثم رجع إلى مذهب مالك.

محمد بن عبد الله بن محمد بن العباس بن عثمان الشافعي، تقدم ذكر أبيه، وكان محمد هذا زوج زينب بنت الإمام الشافعي.

محمد بن عبد الرحيم بن شروس الصنعاني.

محمد بن عبد العزيز الواسطي، من شيوخ البخاري.
محمد بن أبي عمرو والعبدي.
محمد بن عبد الله المخرمي، قاضي حلوان، من شيوخ البخاري.
محمد بن قطن، شيخ لأحمد بن أبي الحوارى.
محمد بن محمد بن إدريس أبو عثمان، ولد الإمام الشافعي، ولي قضاء حلب وبلاد الجزيرة.
محمد بن مهاجر، أخو حنيفة.
محمد بن موسى، كأنه القطان.
محمد بن يحيى بن حسان التنيسي.
محمد بن يحيى بن محمد الوزير.
محمد بن يحيى بن أبي عمر العدني، من شيوخ مسلم.
محمد بن أبي يعقوب الدينوري.
مسعود بن سهل.
مسلم بن خالد الزنجي، الفقيه المشهور المكي.
مصعب بن عبد الله بن الزبير.
موسى بن أبي الجارود، أبو الوليد المكي، أحد رواة الفقه القديم، من شيوخ الترمذي.
نصر المكي.
نمير بن سعيد.
هارون بن سعيد الأيلي، من شيوخ مسلم.
هارون بن عبد الله الزهري القاضي.

هارون بن محمد.

الوليد بن مسلم، ذكره الخطابي في معالم السنن في قصر الصلاة بعرفة.

وهب بن رزق.

وهب بن راشد.

ياسين بن عبد الأحد بن أبي زرارة المصري، من شيوخ النسائي.

يحيى بن أكثم القاضي، مشهور، من شيوخ الترمذي وأبي حاتم.

يحيى بن زكريا الأموي.

يحيى بن سعيد القطان البصري، أحد الأئمة.

يحيى بن عبد الله الخثعمي.

يوسف بن عمر بن يزيد بن يوسف المصري.

يوسف بن يحيى، أبو يعقوب البويطي، الإمام المشهور، أحد رواة الفقه الجديد، وأكبرهم قدراً.

يوسف بن يزيد القراطيسي، من شيوخ النسائي.

يوسف بن يعقوب قاضي مكة.

يونس بن عبد الأعلى الصدفي، أحد من حمل عنه الفقه الجديد، من شيوخ مسلم وغيره.

أبو شعيب المصري.

أبو مروان بن أبي الخصيب النوفلي، شيخ مكي، لم يسمّ.

ثناء العلماء على الشافعي

عاش الشافعي في فترة امتازت بيقظة العلم من كل لون وكل صنف، وبالأخص علم الشريعة، وتسابق الناس ليحرزوا به قصب السبق، وقد أهمل التاريخ ذكر من لم يكن في حلبة الشريعة سابقاً أو مصلياً أو مسلياً[1]، وعني بالسابقين. والسابقون مراتب ودرجات، أعلاهم مقاماً وأسماهم فضلاً الأئمة، وأخلد الأئمة: الأئمة الأربعة: أبو حنيفة، ومالك، والشافعي، وأحمد. ولا يحق لأحد أن يفاضل بينهم، إلا أن يبلغ درجتهم أو يكاد. ولكن الذي ينبغي أن يقال: إن أقربهم اجتهاداً إلى ما شرع الله ورسوله، وأعمقهم فهماً لكتاب الله ورسوله، وأحذقهم استنباطاً، وأعربهم لساناً، وأفصحهم بياناً، وأكثرهم إحاطة بالأصول والفروع، ولم يغلب في مناظرة قط، هذا هو الأفضل، ولكل من الفضل والعلم والتقوى والورع ما يملأ النفوس إجلالاً لهم وإكباراً، وقد أثنى كبار العلماء على كل منهم.

ونحن الآن بمعرض ثنائهم على الإمام الشافعي وشهادتهم له، وقد سبق في غضون هذا الكتاب كثير من شهادات العلماء به، وإليك مزيداً من ذلك في هذا الباب ممن رأى أنه أفضل أهل زمانه:

---

(١) في حلبة السباق يقال للسابق الأول: سابق أو مجل، وللثاني: مصل، وللثالث: مسل.

قال الفضل بن دكين[1]: «ما رأينا ولا سمعنا أكمل عقلاً، ولا أحضر فهماً، ولا أجمع علماً من الشافعي»[2].

وقال أبو ثور: «من زعم أنه رأى مثل محمد بن إدريس في علمه، وفصاحته، ومعرفته، وثباته، وتمكنه، فقد كذب، كان منقطع القرين في حياته، فلما مضى لسبيله لم يُعتض منه»[3].

وقال شيخه سفيان بن عيينة ـ وقد قرىء عليه حديث في الرقائق فغشي على الشافعي، فقيل قد مات الشافعي ـ : «إن كان قد مات؛ فقد مات أفضل أهل زمانه»[4].

وقال هارون بن سعيد الأيلي ـ أحد شيوخ مسلم في صحيحه ـ : «ما رأيت مثل الشافعي»[5].

---

(١) الفضل هو: ابن دكين ـ واسم دكين عمرو بن حماد بن زهير ـ التيمي، مولى آل طلحة، أبو نعيم الكوفي الملائي الأحول، الحافظ العلَم، عن الأعمش، وزكريا بن أبي زائدة، وخلق، وعنه: البخاري، وأحمد، وإسحق، ويحيى بن معين، قال أحمد: ثقة يقظان، عارف بالحديث، مات سنة ٢١٩ هـ.

(٢) توالي التأسيس (٥٩).

(٣) وفيات الأعيان (١ : ٥٦٦).

(٤) تهذيب الأسماء واللغات (١ : ٥٩).

(٥) تهذيب الأسماء واللغات (١ : ٦٢).

وقال أبو منصور الأزهري[1]: «عكفت على المؤلفات التي ألفها فقهاء الأمصار، فألفيت الشافعي أغزرهم علماً، وأفصحهم لساناً، وأوسعهم خاطراً»[2].

وقال أبو عبيد القاسم بن سلام: «ما رأيت أحداً أعقل ولا أورع، ولا أفصح، ولا أنبل رأياً من الشافعي»[3]. وقال أيضاً: «ما رأيت رجلاً قط أكمل من الشافعي»[4].

وقال الزعفراني: «ما رأيت مثل الشافعي؛ أفضل ولا أكرم ولا أسخى، ولا أتقى، ولا أعلم منه»[5].

وقال بشر المريسي: «ما رأيت أمهر من الشافعي»[6].

وقال أحمد بن حنبل: «ما تكلم في العلم أقل خطأً، ولا أشد أخذاً بسنة النبي ﷺ من الشافعي»[7]. وقال أيضاً ـ وذكر الشافعي ـ «ما رأيت أفصح منه ولا أفهم للعلوم منه»[8].

---

(١) الأزهري: هو محمد بن أحمد بن الأزهر الهروي؛ أبو منصور، نسبته إلى جده الأزهر، عني بالفقه فاشتهر به، ثم غلب عليه التبحر في العربية، فكان أحد أئمتها، توفي سنة ٣٧٠ هـ.

(٢) توالي التأسيس (٦٢).

(٣) تهذيب الأسماء واللغات (١: ٦١).

(٤) وفيات الأعيان (١: ٥٦٥).

(٥) توالي التأسيس (٥٥).

(٦) تهذيب الأسماء واللغات (١: ٦٣).

(٧) تهذيب الأسماء واللغات (١: ٦٠).

(٨) توالي التأسيس (٥٧) وقد تقدم في غضون الكتاب للإمام أحمد =

وقال إسحاق بن راهويه ـ وقد ناظره ونافسه في أول أمره ـ: «الشافعي إمام العلماء، وما يتكلم أحد بالرأي إلاَّ والشافعي أقلّ خطأً منه»[1] وقال أيضاً: «الشافعي إمام»[2].

وذكر يحيى بن سعيد الشافعي، فقال: «ما رأيت أعقل ولا أفقه منه»[3].

وكان الحميدي إذا ذكر عنده الشافعي يقول: «حدثنا سيد الفقهاء الشافعي»[4] وقال مرة: «سيد علماء زمانه الشافعي»[5].

وقال أيوب بن سويد الرملي ـ وهو أحد شيوخ الشافعي، ومات قبل الشافعي بإحدى عشرة سنة ـ «ما ظننت أني أعيش حتى أرى مثل الشافعي»[6].

ويقول الجنيد: «كان الشافعي من المريدين الناطقين بلسان الحق في الدين»[7].

= كلام عجيب في الثناء على لاشافعي.

(١) تهذيب الأسماء واللغات (١: ٦١).

(٢) توالي التأسيس (٥٧).

(٣) توالي التأسيس (٥٥)

(٤) (٥) تهذيب الأسماء واللغات (١: ٦٢).

(٦) تهذيب الأسماء واللغات (١: ٥٩ ـ ٦٠).

(٧) توالي التأسيس (٦١).

وقال محمد بن الحسن صاحب أبي حنيفة: «إن كان أحد يخالفنا فيثبت خلافه علينا فالشافعي، فقيل له: فلم؟ قال: لبيانه وتثبته في السؤال والجواب والاستماع»[1].

وعن الحسين بن عثمان الزيادي قال: «كنت في دهليز محمد بن الحسن، فخرج محمد راكباً، فنظر فرأى الشافعي قد جاء، فثنى رجله ونزل، وقال لغلامه: اذهب فاعتذر، فقال له الشافعي: لنا وقت غير هذا، قال: لا، وأخذه بيده، فدخلا الدار، قال أبو حسان ـ وهو الحسين بن عثمان ـ: فاختار مجالسة الشافعي على مرتبته في الدار ـ يعني دار الخلافة ـ. قال أبو حسان: وما رأيت محمداً يعظم أحداً إعظام الشافعي»[2].

وقال معمر بن شبيب: سمعت المأمون يقول: «امتحنت محمد بن إدريس الشافعي في كل شيء فوجدته كاملاً»[3].

هذا قليل من كثير من ثناء بعض كبار علماء عصره عليه بما هو أهله، وقد رأيت أنهم فضّلوه على من عرفوا من أئمة العلماء في زمنهم؛ وإليك ثناء بعض من لم يدركه من فحول العلماء ممن قرب زمانه إليه.

---

(١) الانتقاء (٥٩).

(٢) توالي التأسيس (٧١).

(٣) توالي التأسيس (٥٦).

قال أحمد بن سيّار[1]: «لولا الشافعي لدرس الإسلام»[2].

وكان إبراهيم بن إسحاق الحربي يقول: «قال أستاذ الأستاذين، فيقال له: من هو؟ فيقول: الشافعي، أليس هو أستاذَ أحمد بن حنبل؟»[3].

وقال أبو زرعة: «ما أعلم أحداً أعظم منة على أهل الإسلام من الشافعي»[4].

وقال أبو حاتم الرازي: «الشافعي سميي، وأبوه سمي أبي[5]، ولولاه لكان أصحاب الحديث في عمىً»[6].

وقال أبو عبد الله بن محمد بن إبراهيم البوشنجي ـ وهو من كبار الأئمة ـ: «تصفحنا أخبار الناس، فلم نجد بعد الصدر الأول من هذه الأمة أوضح شأناً، ولا أبين بياناً، ولا أفصح لساناً من الشافعي، مع قرابته من رسول الله ﷺ»[7].

---

(١) هو: أحمد بن سيار بن أيوب المروزي أبو الحسن الفقيه، إمام أهل الحديث في بلده علماً وأدباً وزهداً وورعاً، كان يقاس بابن المبارك، توفي سنة ٢٦٨ هـ.

(٢) (٣) (٤) توالي التأسيس (٦١).

(٥) اسم أبي حاتم: محمد بن إدريس.

(٦) (٧) توالي التأسيس (٦١). والبوشنجي صاحب هذا القول هو: محمد بن سعيد العبدي، أبو عبد الله البوشنجي الشافعي، شيخ أهل العلم بنيسابور، مات سنة ٢٩٠ هـ.

وقال داود بن علي الأصبهاني - إمام أهل الظاهر - :
«اجتمع للشافعي من الفضائل ما لم يجتمع لغيره: فأول ذلك.

شرف نسبه ومنصبه، وأنه من رهط النبي ﷺ.

ومنها: صحة الدين، وسلامة المعتقد من الأهواء والبدع.

ومنها: سخاوة النفس.

ومنها: معرفته بصحيح الحديث وسقيمه، وبناسخ الحديث ومنسوخه.

ومنها: حفظه لكتاب الله تعالى، ولأخبار رسول الله ﷺ، ومعرفته بسير النبي ﷺ وسير خلفائه.

ومنها: كشفه لتمويه مخالفيه، وتأليفه الكتب.

ومنها ما اتفق له من الأصحاب، مثل أبي عبد الله أحمد - أي ابن حنبل - في زهده وعلمه وإقامته على السنة، ومثل سليمان بن داود الهاشمي، والحميدي، والكرابيسي، وأبي ثور، والزعفراني، والبويطي، وأبي الوليد بن أبي الجارود، وحرملة، والربيع، والحارث بن سريج، والقائم بمذهبه أبو إبراهيم المزني. ولم يتفق لأحد من العلماء والفقهاء ما اتفق له من ذلك[١]

وقال داود بن علي أيضاً في مسألة ذكرها: «هذا قول مطلبيِّنا الشافعي الذي علاهم بنكته، وقهرهم بأدلته،

---

(١) توالي التأسيس (٦١).

وباينهم بشهامته، وظهر عليهم بحمازته[1]، التقي في دينه، النقي في حسبه، الفاضل في نفسه، المتمسك بكتاب ربه، المقتدي قدوة رسوله، الماحي لآثار أهل البدع، الذاهب بجمرتهم، الطامس لسنتهم، فأصبحوا كما قال تعالى: ﴿فأصبح هشيماً تذروه الرياح، وكان الله على كل شيء مقتدراً﴾[2].

وقال هلال بن العلاء الرقي: «مَنَّ الله تعالى على هذه الأمة بأربعة في زمانهم: بالشافعي بفقهه بحديث رسول الله ﷺ، وبالإمام أحمد بن حنبل في المحنة، ولولا ذلك لكفر الناس، وبيحيى بن معين لنفي الكذب عن حديث رسول الله ﷺ، وبأبي عبيد القاسم بن سلام لتفسير الغريب من حديث رسول الله ﷺ؛ ولولا ذلك لاقتحم الناس في الخطأ»[3].

وللإمام اللغوي، والأديب الكبير الشاعر ابن دريد[4] الشافعي، المتوفي سنة ٣٢١ هـ قصيدة بمديحه والثناء عليه طويلة[5]، نجتزىء منها ببعضها.

---

(١) الحمازة بفتح الحاء: الشدة.

(٢) توالي التأسيس (٦١).

(٣) نزهة الألباء (١٣٩).

(٤) هو: محمد بن الحسن بن دريد الأزدي، من أئمة اللغة والأدب، والشعار فيه: أنه أشعر العلماء، وأعلم الشعراء، توفي سنة ٣٢١ هـ.

(٥) في الانتقاء (١١٥) معظم القصيدة.

قال رحمه الله:

ألم تر آثار ابن إدريس بعده
دلائلها في المشكلات لوامع
معالم يفنى الدهر وهي خوالد
وتنخفض الأعلام وهي فوارع[1]
مناهج فيها للهدى متصرف
موارد فيها للرشاد شوارع
لِرأي ابن إدريس ابن عم محمد
ضياء إذا ما أظلم الخطب ساطع
إذا المعضلات المشكلات تشابهت
سما منه نور في دجاهن صادع
أبى الله إلا رفعه وعلوه
وليس لما يعليه ذو العرش واضع
توخى الهدى واستنقذته يد التقى
من الزيغ، إن الزيغ للمرء صارع
ولاذ بآثار النبي، فحكمه
لحكم رسول الله في الناس تابع
وعوّل في أحكامه وقضائه
على ما قضى التنزيل والحق ناصع
فمن يك علم الشافعي أمامه
فمرتعه في ساحة العلم واسع

(١) فوارع: جمع فارع: وهو من كل شيء أعلاه.

سلام على قبر تضمَّن روحه
وجادت عليه المدجنات الهوامع[1]
لئن فجعتنا الحادثات بشخصه
وهن بما حكَّمن فيه فواجع
فأحكامه فينا بُدور زواهر
وآثاره فينا نجوم طوالع

ثناءُ الشافِعي عَلى بعَضْ العُلَمَاء

كان الشافعي يطلق بعض كلمات الإكبار والإجلال لبعض كبار العلماء ممن عرفهم أو سمع منهم أو عنهم، وتقدم مراراً أنه ما عظم أحدٌ في نفسه من شيوخه وعلماء عصره؛ مثل ما عظم شيخه الإمام مالك، وشعاره فيه: «إذا ذكر العلماء فمالك النجم» وقريب من ذلك تقديره لشيخه العظيم سفيان بن عيينة، الذي لازم الشافعي دروسه منذ كان صغيراً لم يتجاوز الحادية عشرة من عمره، وأخذ عنه، وروى عنه كثيراً من الفقه والسنة والعلم، وقال فيه: «ما رأيت أحداً من الناس فيه من آلة العلم ما في سفيان بن عيينة، وما رأيت أحداً أكف عن الفتيا منه، وما رأيت أحداً أحسن لتفسير الحديث منه»[2].

---

(١) المدجنات الهوامع: السحب الهاطلة.
(٢) آداب الشافعي ومناقبه (٢٠٦).

وممن كان يجله كثيراً أول شيخ له في مكة قرأ عليه الفقه: مسلم بن خالد الزنجي، إذ قال فيه: «كان مسلم بن خالد الزنجي فقيه زمانه». يقول: جالست مالك بن أنس في حياة جماعة من التابعين[1].

وكان يثني على التابعي المشهور مفتي مكة ومحدثها: عطاء بن أبي رباح[2]، وإن لم يلْقه: «ليس من التابعين أحد أكثر اتباعاً للحديث من عطاء»[3].

وقد أثنى على كثير من علماء أصحابه في العراق ومصر، وتقدم ذلك في محله، وكان أكثر أصحابه العراقيين في نفسه الإمام أحمد لصفات كثيرة جمعها الشافعي بقوله: «خرجت من بغداد وما خلفت بها أفقه، ولا أورع، ولا أزهد، ولا أعلم من أحمد»[4].

وكان ـ رحمه الله ـ يثني على المحدثين والفقهاء، من أهل العراق من الموافقين والمخالفين، من عرفه أو سمع عنه وقرأ كتبه، ويصفهم بما هم فيه، فهو يقول في

---

(١) توالي التأسيس (٥٠).

(٢) هو: عطاء بن أسلم بن صفوان، من أجلاء فقهاء التابعين وعلمائهم، نشأ بمكة فكان مفتي أهلها، توفي سنة ١١٤ هـ.

(٣) آداب الشافعي (٢٠٦).

(٤) الطبقات الكبرى (١ : ٢٧).

الشعبي: «الشعبي في كثرة الرواية مثل عروة بن الزبير»[1].

ويرى لشعبة بن الحجاج[2] - أمير المؤمنين في الحديث - الفضل الأكبر في نشر الحديث بالعراق، وكفه من ليس بأهل عن التحديث، فيقول: «لولا شعبة ما عرف الحديث بالعراق، كان يجيء إلى الرجل فيقول: لا تحدث، وإلا استعديت عليك السلطان»[3].

وكان يتحدث عن ورعه في الفتيا فيقول: «كان الرجل إذا سأل شعبة عن مسألة، سأله: عن اسمه، واسم أبيه، وصناعته، ومنزله، ثم يفتيه في ذلك، ثم يجيء إلى أصحابه، فيذاكرهم بالمسألة، فيقولون: هو كذا وكذا (خلاف ما أفتى) فيقول: من أين قلتم هذا؟ فيقولون: أليس حُدِّثنا بكذا وكذا؟ فيقول: نعم، حدثنا، فيأخذ بيد بعض أصحابه، فيذهب إلى الرجل، فيقول: ليس هو كما أفتيتك، هو كذا وكذا، قال: ثم لا يمنعه بعد ذلك أن يستفتي في ذلك فيفتي فيه بذلك».

واعتراف الشافعي بفضل شعبة على العراق في

(١) آداب الشافعي (٢٠٨).

(٢) هو: شعبة بن الحجاج بن الورد العتكي الأزدي، مولاهم، من أئمة رجال الحديث حفظاً ودراية، قال الإمام أحمد: هو أمة وحده في هذا الشأن، وكان عالماً بالأدب والشعر، توفي سنة ١٦٠ هـ.

(٣) آداب الشافعي ومناقبه (٢٠٩).

الحديث، وثناؤه على ورعه، لا يمنعه من نقده إن رأى ما يوجب ذلك، فهو عنده في الحديث إمام، ولكنه في القياس ضعيف، بل كان يضرب المثل بضعفه في القياس. قال الربيع بن سليمان: «كان الشافعي إذا قاس إنسان فأخطأ، قال: هذا قياس شعبة»[1].

وأما رأيه بفقهاء العراق الذين يقال لهم: فقهاء الرأي؛ فمع أنه كان ينازلهم ويناظرهم، وامتلأت كتبه بالرد عليهم وعلى ما استنبطوا من أحكام فقد كان يجلهم ويقدِّرهم شأن العالم الجليل المنصف الذي يرى في مخالفه عالماً مجتهداً، فإن أصاب فله أجران، وإن أخطأ فله أجر واحد، فإصَابتُه ترفعه، ولا ينزل به خطأه، فكل العلماء معرضون للإصابة والخطأ، وقد أثنى الشافعي على فقهاء العراق جملة، فقال: «الناس عيال على أهل العراق في الفقه»[2].

وقد خص إمامهم أبا حنيفة بالتعظيم والإجلال والتقدير، فقال: «ما يريد أصحابنا إلاّ أن يضعوا على أبي حنيفة في كثير من قوله، وإن معرفتهم له كافيتهم»[3] وقال أيضاً: «من أراد أن يتبحر في الفقه فهو عيال على أبي حنيفة»[4]

(١) آداب الشافعي (٢٠٩).
(٢) آداب الشافعي (٢١٠).
(٣) آداب الشافعي (٢١١) وكأنه يريد أن معرفته تدعوهم إلى احترامه وتقديره.
(٤) الجواهر المضية (٢ : ٤٥٦).

وقال: «قيل لمالك: هلى رأيت أبا حنيفة؟ قال: نعم، رأيت رجلاً لو كلمك في هذه السارية أن يجعلها ذهباً، لقام بحجته»[1].

وما نظن أنه اجتمع بأبي يوسف القاضي لأن وفاة أبي يوسف كانت سنة اثنتين وثمانين ومائة، وقدوم الشافعي إلى العراق أيام محنته كانت سنة أربع وثمانين ومائة، إلاّ إن كانا قد اجتمعا عند مالك في المدينة، أو في مكة أيام الحج.

أما محمد بن الحسن فقد تقدم أن الشافعي كتب كتبه، وسمعها عليه، وتقدم أنه قال عنه: «ما رأيت سميناً عاقلاً قط، إلاّ رجلاً واحداً» هو محمد بن الحسن كما صرح به في ذيل الجواهر المضية[2].

وقال الشافعي فيه أيضاً: «ما رأيت أحداً سئل عن مسألة فيها نظر، إلاّ رأيت الكراهة في وجهه، إلاّ محمد بن الحسن»[3].

وقد أثنى على رجل من أهل الري أنزع الناس لكتاب الله. يقول إسماعيل الطيان الرازي: «قدمت مكة، فلقيت

---

(1) الجواهر المضية (٢: ٥٠٨).

(2) الجواهر المضية (٢: ٥٠٨).

(3) الانتفاء (٦٩).

الشافعي، فقال لي: أتعرف موسى الرازي؟ ما قدم علينا من ناحية المشرق أنزع لكتاب الله منه، فقلت له: يا أبا عبد الله، صفه لي، فقال: كهل قدم علينا من الري، فوصفه لي ـ فعرفته بالصفة أنه أبو عمران الصوفي ـ فقلت: أعرفه، هو أبو عمران الصوفي، قال: هو، هو»[1].

وكانت ثَمّ فئة من العلماء يعظمهم كثيراً، ويأسف أكثر لأنه لم يلقهم، يقول يونس بن عبد الأعلى: سمعت الشافعي يقول: «ما اشتد عليّ فوت أحد مثل فوت الليث[2] وابن أبي ذئب» يعني عبد الرحمن بن أبي ذئب المخزومي[3]، وكان فقيه المدينة في زمن مالك وقبله، وكان أحمد يقدمه في الورع[4].

ولقد كان ما يدهش الشافعي ويثير عجبه من عبدالرحمن بن أبي ذئب، صدعه بالحق، بقوة لا تخشى وقع السيف، أمام من كانت تُخشى سطوته من الخلفاء، ونفوره

(١) آداب الشافعي (٢١٤).

(٢) هو: الليث بن سعد بن عبد الرحمن الفهمي مولاهم، عالم مصر، وفقيهها، ورئيسها، عن عطاء ونافع وقتادة، توفي سنة ١٧٥ هـ.

(٣) هو: محمد بن عبد الرحمن بن المغيرة بن الحارث القرشي العامري، الإمام الثبت العابد، شيخ الوقت، كان من رجال العلم وصرامة وقولاً بالحق، توفي سنة ١٥٩ هـ.

(٤) توالي التأسيس (٥١).

الحاد ممن يمالئهم أو يداجيهم، فقد روى محمد بن عبد الرحمن الدينوري قال: حدثنا عبد الحكم، قال: أخبرنا الشافعي: قال: حدثني عمي[1] محمد بن علي قال:

«إني لحاضر مجلس أمير المؤمنين، أبي جعفر المنصور[2]، وفيه ابن أبي ذئب؛ والحسن بن زيد[3] والي المدينة، فأتى الغِفاريون[4]، فشكوا إليه شيئاً من أمر الحسن، فقال: يا أمير المؤمنين، سل فيهم ابن أبي ذئب، فسأله، فقال: أشهد أنهم أهلُ حكم في أعراض المسلمين، كثيرو الأذى لهم فقال أبو جعفر: قد سمعتم؟! فقالوا: سله عن الحسن، فقال: ما تقول فيه؟ فقال: أشهد أنه يحكم بغير الحق، ويتبع هواه. قال محمد: فجمعت ثيابي والسياف قائم على رأس أبي جعفر، مخافة أن يأمر به، فيقتل، فيصيب دمه ثوبي، فقال أبو جعفر: قد سمعت يا حسن ما قاله؟! فقال: سله عن نفسك، فقال أبو جعفر

---

(١) هو ابن عم جد الشافعي.

(٢) هو: عبد الله بن محمد بن علي بن العباس، أبو جعفر المنصور: ثاني خلفاء بني العباس، وأول من عني بالعلوم من ملوك العرب، كان مشاركاً في الفقه والأدب، مقدماً في الفلسفة والفلك، وهو باني مدينة بغداد، توفي سنة ١٥٨ هـ.

(٣) ابن الحسن السبط، أبو محمد الهاشمي المدني، المتوفي سنة ١٦٨ هـ.

(٤) هم قبيلة أبي ذر الغفاري رضي الله عنه.

لابن أبي ذئب: فما تقول فيَّ؟ قال: أو يعفيني أمير المؤمنين؟ فقال: والله لتخبرني، فألَيَنه ووهّنه، فقال: أشهد أنك أخذت المال من غير حقه، وجعلته في غير أهله، فجاء أبو جعفر من موضعه، حتى وضع يده في قفاه، قال محمد: فجمعت ثيابي مخافة أن يأمر به فيصيب دمه ثوبي، ثم قال: أما والله؛ لولا أنا لأخذت أبناء فارس والروم والترك والديلم بهذا المكان منك، فقال: قد ولي أبو بكر وعمر، فأخذا بالحق، وقسما بالسوية، وأخذا بأقفاء فارس والروم، وأصغرا آنافهم، فخلى أبو جعفر قفاه، وأطلق سبيله، وقال: والله، لولا أني أعلم أنك صادق لقتلتك، فقال ابن أبي ذئب لأبي جعفر: أنا ـ والله ـ أنصح لك من المهدي، يعني ابنه»[1].

وحدَّث حرملة عن محمد بن إدريس الشافعي قال: «كان محمد بن عجلان[2] يأمر بالمعروف وينهي عن المنكر. قال: فخطب والي المدينة يوماً، فأطال الخطبة، فلما نزل وصلى، صاح به ابن عجلان، فقال: يا هذا، اتق الله، تطيل بيانك وكلامك على منبر رسول الله؟! فأمر به،

---

(١) آداب الشافعي ومناقبه (٤٦).

(٢) هو: محمد بن عجلان القرشي أبو عبد الله المدني، أحد العلماء العاملين، عن أنس وأبي حازم والأعرج وعكرمة وطائفة، وعنه مالك والثوري وخلق، وثقه أحمد وابن معين، توفي سنة ١٤٨ هـ.

فحبس، فأخبر ابن أبي ذئب، فدخل على الوالي، وقال: حبست ابن عجلان؟! فقال: ما يكفيه أنه يأمرنا فيما بيننا وبينه، فنصير إلى ما يأمرنا، حتى يصيح بنا على رؤوس الناس، فنستضعف؟! فقال ابن أبي ذئب: ابن عجلان أحمق، أحمق، هو يراك تأكل الحرام، وتلبس الحرام، فيترك الإنكار عليك، ويقول: لا تطل بيانك وكلامك على منبر رسول الله ﷺ!! فقال الوالي: أخرجوا ابن عجلان، ما عليه من سبيل»[1].

ولم يكن الشافعي في ثنائه وشهادته يقتصر على علماء الفقه والحديث، بل قد يثني على غيرهم ويشهد لهم، إن كانوا من أهل ذلك، فقد أثنى على الأصمعي بصدقه حين قال: «ما رأيت بذلك المعسكر أصدق من الأصمعي»[2] وأثنى عليه بحسن عبارته، فقال: «ما عبّر أحد عن العرب بأحسن من عبارة الأصمعي»[3].

وشهد للكسائي[4] إمام الكوفيين بالبراعة في النحو

---

(١) آداب الشافعي ومناقبه (٤٨).

(٢) نزهة الألباء (١٢٣).

(٣) نزهة الألباء (١٢٤).

(٤) هو: علي بن حمزة بن عبد الله الأسدي بالولاء، الكوفي، أبو الحسن الكسائي، إمام في اللغة والنحو والقراءة، وهو مؤدب الرشيد العباسي، توفي سنة ١٨٩ هـ.

والبسطة فيه حين قال: «من أراد أن يتبحر في النحو فهو عيال على الكسائي»[1]

مَن كان يدعو للشّافعي

رأى العلماء والفقهاء المنصفون من الشافعي ما ملأ قلوبهم إكباراً له وإعجاباً به، بما فتح الله على بصيرته من فهم لكتاب الله وفقه لسنّة رسوله، مع التزام لطريقهما قولاً وعملاً، وبما شغله بالتنقل في بلاد الله لينشر دين الله بإخلاص لا يماري فيه أحد من الموافقين والمخالفين، وشعر كثير من العلماء أن للشافعي منة عليهم لا يكافئها إلاّ أن يدعوا الله تعالى له، في حياته وبعد مماته، في السر والعلن، وأن يتولى مكافأته ويجزيه ما هو أهله. فهذا أحمد بن حنبل يقر بفضل الشافعي عليه، فيقول معترفاً وداعياً: «هذا الذي ترون كله أو عامته من الشافعي؛ وما بت منذ ثلاثين سنة إلاّ وأنا أدعو الله للشافعي وأستغفر له»[2]. ويقول أيضاً: «ستة أدعو لهم في السحر، أحدهم الشافعي»[3]. ويقول: «ما أعلم أحداً أعظم منة على الإسلام في زمن الشافعي من الشافعي، وإني لأدعو له في

(١) نزهة الألباء (٧١).

(٢) توالي التأسيس (٥٧) ووفيات الأعيان (١: ٥٦٥).

(٣) صفة الصفوة (٢: ١٤٢).

أدبار صلواتي، فأقول: اللهم اغفر لي ولوالديّ، ولمحمد بن إدريس الشافعي»[١].

وقال يحيى بن سعيد القطان إمام المحدثين في زمانه: «أنا أدعو الله للشافعي في صلاتي من أربع سنين». وكان يقول أيضاً: «أنا أدعو الله للشافعي، أخصه به»[٢].

وقال عبد الرحمن بن مهدي ـ صاحب رسالة الشافعي ـ: «ما أصلي صلاة إلاّ وأدعو للشافعي فيها»[٣].

الشّافِعيُّ مجدِّدُ القَرنِ الثّاني

عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن رسول الله ﷺ، أنه قال: «يبعث الله لهذه الأمة على رأس كل مائة سنّة من يجدد لها دينها» ذكره الإمام أحمد وقال عقيبه: نظرت في سنّة مائة فإذا هو رجل من آل رسول الله ﷺ، عمر بن عبد العزيز. ونظرت في رأس المائة الثانية فإذا هو رجل من آل رسول الله ﷺ، محمد بن إدريس.

يقول السبكي: وهذا ثابت عن الإمام أحمد، سقى الله عهده[٤]

(١) معجم الأدباء (١٧ : ٣٠٢).

(٢) تهذيب الأسماء واللغات (١ : ٥٩).

(٣) معجم الأدباء (١٧ : ٣١٣).

(٤) طبقات الشافعية (١ : ٢٠٠).

وقال الشيخ أبو الوليد حسان بن محمد الفقيه[1]:

«كنا في مجلس القاضي أبي العباس بن سريج[2] سنّة ثلاث وثلاثمائة، فقام إليه شيخ من أهل العلم فقال له: أبشر أيها القاضي، فإن الله يبعث على رأس كل مائة سنة من يجدد لها أمر دينها، وإنه تعالى بعث على رأس المائة الأولى عمر بن عبد العزيز، وتوفي سنة ثلاث ومائة، وبعث على رأس المائتين أبا عبد الله محمد بن إدريس الشافعي، وتوفي سنة أربع ومائتين، وبعثك على رأس الثلاثمائة، ثم أنشأ يقول:

اثنان قد مضيا فبورك فيهما
عمر الخليفةُ ثم حلف السؤدد
الشافعي الألمعي محمدٌ
إرث النبوة وابن عم محمد
أبشر أبا العباس إنك ثالث
من بعدهم سقياً لتربة أحمد

قال: فصاح القاضي وبكى، وقال: إن هذا الرجل قد

(١) هو: حسان بن محمد بن أحمد القرشي الأموي، أبو الوليد النيسابوري، كان إمام أهل الحديث بخراسان، وهو أحد أئمة الدنيا، وكان تلميذ أبي العباس بن سريج، توفي سنة ٣٤٩.

(٢) هو: أحمد بن عمر بن سريج القاضي، أبو العباس البغدادي، المشهور بـ «الباز الأشهب» وهو سيد طبقته بإطباق الفقهاء، توفي سنة ٣٠٦ هـ.

نَعى إليَّ نفسي، قال: فمات القاضي أبو العباس في تلك السنة. وذكر الخطيب في تاريخه أن ابن سريج مات سنة ست وثلاثمائة[١].

وقال ابن السبكي في الطبقات:

وأما المائة الرابعة، فقد قيل: إن الشيخ الإسفراييني[٢] هو المبعوث فيها، وقيل: بل الأستاذ سهل بن أبي سهل الصعلوكي[٣]، وكلاهما من أئمة الشافعيين وعظماء الراسخين.

وقال أيضاً: والخامس الغزالي[٤]، والسادس: الإمام

---

(١) معجم الأدباء (١٧: ٣١٤).

(٢) هو: أحمد بن محمد بن أحمد الأسفراييني أبو حامد: من أعلام الشافعية ولد في أسفرايين (قرب نيسابور) ورحل إلى بغداد، وتوفي فيها سنة ٤٠٦ هـ.

(٣) هو: شمس الإسلام سهل بن محمد بن سليمان، مفتي نيسابور، روى عنه الحاكم، والبيهقي، وهو إمام في الأدب والفقه والكلام والنحو، والبارع في النظر، توفي سنة ٤٠٤ هـ.

(٤) هو: حجة الإسلام محمد بن محمد الغزالي الطوسي أبو حامد، فيلسوف فقيه متصوف، مولده ووفاته في الطابران (قصبة طوس) نسبته إلى صناعة الغزل، وعلى هذا فهو بتشديد الزاي، أو إلى غزالة من قرى طوس وعلى هذا فهو بتخفيف الزاي، توفي سنة ٥٠٥ هـ.

فخر الدين الرازي[1]، والسابع: الشيخ تقي الدين بن دقيق العيد[2]، وجميع هؤلاء من أئمة الشافعيين.

* * *

عَقلُ الشّافِعي

لا يحتاج المرء أن يشهد له الناس بالعقل ليكون بالفعل عاقلاً، فعلى قدر عمله ونفعه وأثره يكون عاقلاً، وعلى قدر ما ينفتح عنه ذهنه من فكر جديد، أو اكتشاف لبدع لم يسبق إليه، أو فهم لأمر انحرفت أجيال عن الحق فيه ـ يكون عقله وعبقريته.

وإذا امرؤ عاش في عصر تصاولت فيه العقول، فزاحمها، ودافعها بالبيان والحجة والمنطق، وبارزها فيما امتازت به، ولم يكن له ردءٌ من نفوذ السلطان ولا من وفرة الغنى، فهو في هذه الحال عاقل العقلاء.

والإمام الشافعي في عصره هو ذاك، لم يشركه في مكانته العقلية في الذروة الهرمية لعقل أمة؛ إلا النزر وأقل من النزر.

---

(١) سبقت ترجمته في الصحيفة ٣٦.

(٢) هو: محمد بن علي بن وهب بن مطيع القشيري، أبو الفتح تقي الدين، من أكابر العلماء، ولي قضاء الديار المصرية، توفي سنة ٧٠٢ هـ.

ومع ذلك فقد شهد بوفرة عقله كثيرون من صفوة عقلاء الناس، لا يطمعون بذلك منه بمغنم، ولا يحذرون سوءاً يعوذون به منه، وأكثر هؤلاء ممن لا يمت إلى الشافعي بصلة المذهب أو القرابة، وبعضهم يتنكب طريق السنة إلى البدعة، وهو يعلم أن الشافعي إنما سمي «ناصر السنّة» لأنه أعظم من ملك القدرة للدفاع عنها. فهذا بشر بن غياث المريسي الفقيه المعتزلي، تلميذ أبي يوسف يقول: «مع الشافعي نصف عقل أهل الدنيا»[1]. ويقول: «ما رأيت أعقل من الشافعي»[2].

وهذا يحيى بن أكثم قاضي قضاة بغداد، الذي استولى على قلب المأمون حتى أمر بأن لا يحجب عنه ليلاً ولا نهاراً، يقول: «ما رأيت أحداً أعقل من الشافعي»[3]. وسأله محمد بن إسحاق الصاغاني[4] عن الشافعي، فقال: «كنّا عند محمد بن الحسن في المناظرة كثيراً، فكان الشافعي قرشي العقل والفهم والذهن، صافي العقل والفهم والدماغ، سريع الإصابة، ولو كان أمعن في

---

(١) (٢) تهذيب الأسماء واللغات (١ : ٦٣).

(٣) تهذيب الأسماء واللغات (١ : ٦١).

(٤) هو: محمد بن إسحاق الصاغاني، أبو بكر الحافظ، نزيل بغداد، عن شجاع بن الوليد ويزيد بن هارون وعفان وطبقتهم، قال الدار قطني: ثقة وفوق الثقة، توفي سنة ٢٧٠ هـ.

الحـديث؛ لاستغنت بـه أمـة محمـد عن غيـره من العلماء»[1].

وهذا علامة مصر، وفقيهها، وعاقلها، يونس بن عبد الأعلى، يقول: «ما رأيت أحداً أعقل من الشافعي، لو جمعت أمة محمد، فجعلت في عقل الشافعي لوسعهم عقله»[2].

وهذا الربيع بن سليمان تلميذه وخادمه وراوي كتبه يقول: «لَوْ وُزِنَ عقل الشافعي بنصف عقل أهل الأرض لرجحهم، ولو كان من بني إسرائيل لاحتاجوا إليه»[3].

ولقد عرف الشافعي بالنجابة والذكاء والعقل منذ أن كان صغيراً، وشهد له بذلك الشيوخ من أهل مكة. قال الحميدي: «كان ابن عيينة، ومسلم بن خالد، وسعيد بن سالم، وعبد المجيد بن عبد العزيز، وشيوخ أهل مكة يصفون الشافعي، ويعرفونه من صغره، مقدَّماً عندهم بالذكاء والعقل والصيانة، لم يعرف له صبوة»[4].

---

(١) توالي التأسيس (٥٦).

(٢) توالي التأسيس (٥٨).

(٣) توالي التأسيس (٥٨) وكأنه يريد: على كثرة ما بعث في بني إسرائيل من أنبياء وأنزل عليهم من كتب؛ فهم محتاجون لمثل الشافعي.

(٤) توالي التأسيس (٥٤).

تقوى الشافعي وَوَرَعُه وَعبادته

ما أوتي الشافعي الحظوة والقبول والتوفيق، والإمامة المطلقة في العلم، إلّا بدينه وعبادته، وليس العلم في الدين أن يدعو العالم الناس إليه، ويبين لهم ما أحل الله وما حرم، وما بينهما من المشتبهات، ولا يطبق ذلك على نفسه، فإن لم يفعل فهو شاك فيما يعلم أو شبيه به، ولا علم لشاك.

والتقوى: أن يدع المؤمن ما يريد إلى ما يريد شرع الله، وأن يروض نزواته وشهواته وميوله على ما يرضي الله. والورع: أن يدع الشبهات لئلا يقع في الحرام، بل قد يدع المباح الذي يخشى أن يكون سبباً للمشتبه، والمشتبه سبباً للوقوع في الحرام.

والشافعي كما هو إمام في الاجتهاد والفقه؛ إمام في إيمانه وتقواه وورعه وعبادته.

أمثلة من إيمانه وتقواه وورعه:

عن الربيع قال: «قال عبد الله بن عبد الحكم ـ من كبار شيوخ المالكية في مصر ـ للشافعي: إذا أردت أن تسكن البلد ـ يعني مصر ـ فليكن لك قوت سنة، ومجلس من السلطان تتعزز به، فقال له الشافعي: يا أبا محمد، من لم تعزه التقوى فلا عزّ له، ولقد ولدت بغزة، وربيت

بالحجاز، وما عندنا قوت ليلة، وما بتنا جياعاً قط»[1].

ومن تقواه العملية إنكاره المنكر بترك مكانه والنصيحة فيه، ولو كان من الذين يتصلون بسبب إلى السلطان.

يقول الحارث بن سريج: «دخلت مع الشافعي على خادم للرشيد وهو في بيت قد فرش بالديباج، فلما رآه رجع وقال: لا يحل افتراش هذا، فعدل به إلى بيت فرش بالأرمني، فقال له الشافعي: هذا أحسن من ذاك، وهذا حلال وذاك حرام، وهذا أغلى ثمناً»[2].

وطبق تقواه وورعه فيما قد يضره من ناحية دنياه، وآثرهما على نفعه العاجل. يقول الحارث بن سريج: «أراد الشافعي الخروج إلى مكة، فأسلم إلى قصار[3] ثياباً بغدادية مرتفعة، فوقع الحريق، فاحترق دكان القصار والثياب، فجاء القصار ومعه قوم يتحمل بهم على الشافعي، في تأخيره ليدفع إليه قيمة الثياب. فقال له الشافعي: قد اختلف أهل العلم في تضمين القصار[4]،

(١) توالي التنأسيس (٦٧).

(٢) توالي التأسيس (٦٦).

(٣) القصار: الذي يدق الثياب ويبيضها.

(٤) ذهب بعضهم كالحسن وشريح وأبي حنيفة ومالك وأحمد والشافعي - في قول له - إلى تضمينه، وذهب بعضهم كعطاء وطاووس وزفر والشافعي - في الأظهر - إلى عدم تضمينه، فعامل الشافعي القصار بما هو قانع به، ولم يعامله حتى على رأي له =

ولم أتبين أن الضمان يجب، فلست أضمنك شيئاً»[1].

وكان البويطي يقول: «قد رأيت الناس، والله ما رأيت أحداً يشبه الشافعي ولا يقاربه في صنف من العلم، والله إن الشافعي كان عندي أورع من كل من رأيته ينسب إلى الورع».

عبادته:

العبادة: التقرب إلى الله بأعمال وأقوال تورث الخشية، وتعظيم الخالق، وعرَّفها العلماء بأنها: «فعل يباشره العبد بخلاف هوى نفسه ابتغاء مرضات الله»[2]. وهي ثلاثة أنواع: بدني محض، كالصلاة والصوم. ومالي محض، كالزكاة. ومركب منهما كالحج[3]. وهذا بالنسبة للفروض، ومن العبث القول: إن الشافعي كان يؤديها على أحسن وجه إلا الزكاة، فما نظن أنها فرضت عليه، لأنه كان أول أمره فقيراً، ثم لما أتاه المال كان أسخى من الريح المرسلة. وأما النوافل فقد ورد في الحديث القدسي: «وما تقرب إليَّ عبدي بشيء أحب إليَّ مما افترضته عليه، ولا يزال عبدي يتقرب إليَّ بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته، كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده

= سابق يوافق عليه كثير من الأئمة.

(1) آداب الشافعي ومناقبه (١٠٢).

(2) (3) دستور العلماء (٢: ٢٩٨) نقلاً عن التلويح.

التي يبطش بها، ورجله التي يمشي عليها، ولئن سألني لأعطينه، ولئن استعاذني لأعيذنه».

والمراد: أن الله يحفظ جوارحه، ويعصمها عن الشر، ويجعله يستعملها فيما يرضيه، وقد عرفنا أنواع الفروض. أما النوافل فهي كثيرة متنوعة من صلاة، وصدقة، وقراءة قرآن، وذكر، وصلاة على النبي ﷺ، وغير ذلك. والشافعي وإن كان يقوم بأوكد العبادات وأحبها إلى الله ورسوله، وهي الاشتغال بالعلم والفقه وبثهما بين الناس؛ فلا يعفي نفسه من القيام بنوافل العبادات، التي تصقل نفسه وتسمو بروحه، وتصله بربه، وكان يحث على ذلك غيره. قال مرة لأحمد بن صالح المصري: «تعبَّد من قبل أن ترأس؛ فإنك إن ترأس لم تقدر أن تتعبد»[1].

وما أثر عن الشافعي من القيام بنوافل العبادات أنواع. منها: قيامه في الليل. يقول ابن الربيع: «وكان - أي الشافعي - يحيي الليل إلى أن مات»[2]. وليس مراده أنه كان يقوم الليل كله، وإنما يريد أنه يحيي بعضه.

يقول حسين بن علي الكرابيسي: «بت مع الشافعي ثمانين ليلة وكان يصلي نحو ثلث الليل، وما رأيته يزيد على خمسين آية - يعني في الركعة - وكان لا يمر بآية رحمة

---

(١) توالي التأسيس (٦٦).

(٢) شذرات الذهب (٢ : ٠).

إلّا سأل الله لنفسه وللمؤمنين والمؤمنات، ولا يمر بآية عذاب إلا تعوذ بالله وسأل الله النجاة لنفسه وللمؤمنين والمؤمنات»[1].

وعن الربيع: «كان الشافعي قد جزّأ الليل ثلاثة أجزاء: الثلث الأول يكتب، والثلث الثاني يصلي، والثلث الثالث ينام»[2].

وكان ـ رحمه الله ـ لا يقرأ قرآناً بالليل إلّا في صلاة، يقول المزني: «ما رأيت الشافعي قرأ قرآناً قط بالليل، إلّا وهو في الصلاة»[3].

أما قراءته القرآن؛ فكان من أكثر المتعبدين قراءة له، ولا غرو فهو ممن حفظه صغيراً، وأتقن فهمه، وكان ألمع من عرف تأويله، وذاق بلاغته وإعجازه، لذلك كانت متعته العظمى في العبادة قراءة القرآن، فكان يختم القرآن في كل شهر ثلاثين ختمة، وفي رمضان خاصة ستين ختمة. قال الربيع: «كان الشافعي يختم في كل شهر ثلاثين ختمة، وفي رمضان ستين ختمة، سوى ما يقرأ في الصلاة»[4].

---

(١) توالي التأسيس (٦٨).

(٢) صفة الصفوة (٢ : ١٤٤).

(٣) توالي التأسيس (٧٩).

(٤) توالي التأسيس (٦٠) والصفوة (٢ : ١٤٥).

ومن نوافل الشافعي كثرة صلاته على النبي ﷺ، وكان يحض على ذلك أصحابه وحضوره، فيقول: «أحب أن تكثروا الصلاة على رسول الله ﷺ»[1]. وكان يرى أن الدعاء لله لا يتم إلاّ بالصلاة على رسول الله ﷺ. قال المزني: وقال الشافعي في القديم: «إن الدعاء يتم بالصلاة على رسول الله ﷺ وتتمته بها»[2].

وكان الشافعي أشد الناس تعظيماً للنبي ﷺ، فهو يكره أن يقول الرجل: «قال الرسول» لكن يقول: «قال رسول الله ﷺ تعظيماً له»[3].

وقال المزني: «ما رأيت من العلماء من يوجب للنبي ﷺ في كتبه، ما يوجبه الشافعي لحسن ذكره رسول الله ﷺ»[4].

* * *

---

(١) تهذيب الأسماء واللغات (١: ٦٦).
(٢) تهذيب الأسماء واللغات (١: ٦٦).
(٣) تهذيب الأسماء واللغات (١: ٦٦).
(٤) تهذيب الأسماء واللغات (١: ٦٦).

كَرَم الشافِعي

عرف العرب بالكرم، وهو من أشهر مفاخرهم، وما كانوا يبتغون به إلاّ الصيت والذكر.

أماويّ إن المال غادٍ ورائح
ويبقى من المال الأحاديث والذكر

وشهر من بينهم رجال ضرب المثل بكرمهم، منهم حاتم الطائي وكعب بن مامة، وأوس بن حارثة، وهرم بن سنان. وجاء الإسلام، ودخل الناس في دين الله أفواجاً، وكان خيارهم في الجاهلية خيارهم في الإسلام، فالشجاع هو الشجاع، والكريم هو الكريم. ثبَتَ الطبع، وانقلبت النية. كانت النية حب الذات وجلب الخير لها من مال وفخر ومكرمة، فأصبحت بفضل الإيمان يراد بها وجه الله. ومهما يبالغ الناس في كرم الذين شهروا بالكرم في الجاهلية، فإن في كرماء المؤمنين ما يبز أولئك؛ مع ابتغاء وجه الله في سخائهم، لا رياء ولا سمعة، ولنذكر ـ إذا شئنا ـ مثالاً على ذلك: أبا بكر وعمر وعثمان وعلياً وعبد الرحمن بن عوف وغيرهم كثير.

أما الإمام الشافعي القرشي المطلبي، فقد كان في جوده منقطع النظير، جوده جود عربي قرشي مؤمن، ومع أنه كان في أكثر حياته فقيراً، ما عنده قوت ليلة ـ كما حدَّث عن نفسه ـ فإذا أتاه مقدار من المال أنفقه وتصدَّق به على

الفقراء والمحتاجين، ولو أنه أمسك من المال شيئاً لما نيل من مروءته وكرمه، ولكنه الإيثار والرغبة في الخير، وشرف النفس، وهذه شهادة بعض من عاصره من أصحابه وخلطائه بسخائه وجوده. قال الربيع: «ولقد سمعنا بالأسخياء، وكان عندنا منهم قوم، وما رأينا مثل الشافعي»[1]. وقال عمرو بن سواد السرجي: «كان الشافعي أسخى الناس على الدينار والدرهم والطعام»[2]. وقال محمد بن عبد الله بن عبد الحكم: «كان الشافعي أسخى الناس بما يجد»[3]. وقال الربيع: «كان الشافعي إذا سأله إنسان شيئاً يحمارّ وجهه حياءً من السائل، ويبادر بإعطائه، فإن لم يكن معه أرسل إليه إذا رجع»[4].

وإليك بعض وقائع سخائه رحمه الله ورضي عنه:

قال الحميدي: «قدم الشافعي مرّة من اليمن، ومعه عشرون ألف دينار، فضرب خيمته خارجاً من مكة، فما قام حتى فرقها كلها»[5].

---

(١) توالي التأسيس (٦٧).

(٢) تهذيب الأسماء واللغات (١: ٥٧).

(٣) توالي التأسيس (٦٨) والوافي بالوفيات (٢: ١٧٤).

(٤) تهذيب الأسماء (١: ٥٨) وزيادة: فإن لم يكن الخ من توالي التأسيس (٦٧).

(٥) صفة الصفوة (٢: ١٤٥).

وعن الحميدي أيضاً قال: «قدم الشافعي بثلاثة آلاف دينار، فدخل عليه بنو عمه وغيرهم، فجعل يعطيهم، حتى قام، وليس معه، شيء»[1].

وعن الزبير بن سليمان القرشي، قال: قال الشافعي: «خرج هرثمة فأقرأني سلام أمير المؤمنين، وقال: قد أمر لك بخمسة آلاف دينار، قال: فحمل إليه، فأخذ الحجام من شعره، وأعطاه خمسين ديناراً، ثم أخذ رِقاعاً، فصرَّ من تلك الدنانير صرراً، ففرقها في القرشيين الذين هم في الحضرة، وصر لمن يعرفه من أهل مكة حتى ما رجع إلى بيته إلاّ بأقل من مائة دينار»[2].

وعن أبي ثور قال: «أراد الشافعي الخروج إلى مكة ومعه مال، فقلت له: لو اشتريت به ضيعة لولدك - وكان قلّ أن يمسك شيئاً من سماحته - فخرج ثم قدم، فسألته، فقال: لم أجد بمكة ضيعة يمكنني شراؤها، لمعرفتي، ولكنني بنيت بمنى مضرباً يكون لأصحابنا، إذا حجوا نزلوا فيه. قال أبو ثور: فرآني كأني اهتممت بذلك، فأنشد:

إذا أصبحتُ عندي قوتُ يومي
فخلِّ الهمَّ عني يا سعيدُ

ولا تخطر هموم غد ببالي
فإن غداً له رزق جديد

---

(١) توالي التأسيس (٦٨).

(٢) توالي التأسيس (٦٨).

أســلِّم إن أراد الله أمــراً
وأتــرك مــا أريــد لــمــا يــريــد[1]

وقال الربيع: «كنا يوماً مع الشافعي، فانقطع شِسع نعله، فأصلحه له رجل، فقال: يا ربيع، أمعك من نفقتنا شيء؟ قلت: نعم، قال: كم؟ قلت: سبعة دنانير، قال: ادفعها إليه»[2]. وقال الربيع أيضاً: «كان الشافعي راكباً على حمار، فمر على سوق الحدادين، فسقط سوطه من يده، فوثب إنسان فمسحه بكفه وناوله إياه، فقال لغلامه: ادفع إليه الدنانير التي معك، فما أدري أكانت سبعة أو تسعة؟»[3].

وقال أبو سعيد: «كان الشافعي من أجود الناس، وأسخاهم كفاً، كان يشتري الجارية الصنَّاع التي تطبخ وتعمل الحلواء، ويقول لنا: تشهوا ما أحببتم، فقد اشتريت جارية تحسن أن تعمل ما تريدون، فيقول بعض أصحابنا: اعملوا اليوم كذا وكذا، وكنا نحن نأمرها»[4].

وعن الربيع قال: عمل الشافعي وليمة، فلما أن أكل الناس، قال لي البويطي: اجلس فكل، فقلت: من أذن لنا

---

(١) توالي التأسيس (٦٨).
(٢) تهذيب الأسماء واللغات (١: ٥٨).
(٣) تهذيب الأسماء واللغات (١: ٥٨).
(٤) تهذيب الأسماء واللغات (١: ٥٨).

أن نأكل؟ قال: فسمع الشافعي، فقال: سبحان الله! أنت في حلٍ من مالي كله».

قال: ورآني قد كتبت حساب النفقه، فقال: «لا تضيع قراطيسك باطلاً، فلست أنظر لك في حساب، قلت له: فإن أم أبي الحسن ـ يعني ولده ـ ربما طلبت الشيء فأشتري لها، ولم تأذن لي؟ قال: «يا طويل الرقاد، أنت في حلٍ من مالي كله»[1].

وقيل للربيع: كيف لباس الشافعي؟ قال: كان مقتصداً فيه[2]... إلى أن قال: «وكان لا يأتي عليه يوم إلاّ يتصدق، ويتصدق بالليل، ولاسيما في رمضان، ويتفقد الفقراء والضعفاء، وكانت نفقته على أهله ما يتعارف من سعة التجار وأهل الفضل، وكان أكرم الناس مجالسة»[3].

وقال البويطي: «قدم الشافعي مصر، وكانت زبيدة ترسل إليه برزم الثياب والوشي، فيقسمها بين الناس»[4].

---

(١) توالي التأسيس (٦٨).

(٢) تقدم صدر هذا الكلام في لباس الشافعي.

(٣) توالي التأسيس (٦٨).

(٤) تهذيب الأسماء واللغات (١: ٥٧).

حِكَمُ الشافِعي وَتجاربُه

الشافعي ـ رحمه الله ـ عاقل كبير العقل، ذكي نافذ الذكاء، مرهف الحس، بصير بالحياة، ذاق ألوانها كلها، عاش يتيماً فقيراً، ثم أضاء نجمه، ثم أصبح كالشمس للدنيا، رحل إلى بلاد إسلامية عربية مختلفة، وعرف أصنافاً من البشر. تولى ولاية، ورأى فيها كيف يريد القوي أن ينقضَّ على الضعيف، وفاز بامتحان صلابة الحق والدين واليقين، حين أزهق الباطل القوي، وآزر الحق الضعيف، وكان بذلك أخيذ محنة كادت تطعم لحمه سيف الخليفة، وماله في ذلك من شفيع إلاّ الله ثم ما مُنح من قلب شجاع، وبيان رائع، وحجة بالغة، نجا بها من الموت، والموت خزيان ينظر.

من مثل هذا العقل، ومن مثل هذه التجارب تتفجر الحكم، ولقد أثر عن الشافعي حِكَم كثيرة، لو جمعت ـ كما يقول ابن حجر ـ لكان منها جزء كبير، وكلها مصوغة بمنتخب الألفاظ وسري المعاني، كأن فاه ـ كما قال عنه الجاحظ ـ ينظم دراً إلى در، وهذه نموذجات من حكمه الروائع في العلم والدين والاجتماع.

من حكمه في العلم:

عن الربيع بن سليمان قال: قال لي الشافعي: «يا ربيع، رضا الناس غاية لا تدرك، فعليك بما يصلحك فالزمه، فإنه

لا سبيل إلى رضاهم، واعلم أن من تعلم القرآن جلّ في عيون الناس، ومن تعلم الحديث قويت حجته، ومن تعلم النحو هيب، ومن تعلم العربية رقَّ طبعه، ومن تعلم الحساب جزل رأيه، ومن تعلم الفقه نبل قدره، ومن لم يصن نفسه لم ينفعه علمه، وملاك ذلك كله التقوى»[1].

وقال حرملة بن يحيى: سمعت الشافعي يقول: «ما تُقرِّب إلى الله عز وجل بعد أداء الفرائض بأفضل من طلب العلم»[2] ومثله قوله: «طلب العلم أفضل من صلاة النافلة»[3]. وقال الشافعي: «من ضُحك منه في مسألة لم ينسها أبداً»[4]. وقال: «من حضر مجلس العلم بلا محبرة وورق، كان كمن حضر الطاحون بغير قمح»[5] وقال: «استعينوا على الكلام بالصمت، وعلى الاستنباط بالفكر»[6]. وقال: «مثل الذي يطلب العلم بلا حجة،

---

(١) صفة الصفوة (٢: ١٤٤) والطبقات الكبرى (٢: ٩٩) مع بعض اختلاف، عن المزني.

(٢) الطبقات الكبرى (٢: ١٢٩).

(٣) (٤) صفة الصفوة (٢: ١٤٢).

(٥) توالي التأسيس (٧٢).

(٦) صفة الصفوة (٢: ١٤٢) كأنه يريد: قبل أن تتكلم اصمت قليلًا؛ ليكون لكلامك معنى، ويبلغ حيث تريد.

كمثل حاطب ليل، يحمل حزمة حطب وفيه أفعى تلدغه، وهو لا يدري»[1].

وقال: رتبة العلماء التقوى، وحليتهم حسن الخلق، وجمالهم كرم النفس»[2]. وقال: «من لا يحب العلم لا خير فيه، ولا يكن بينك وبينه معرفة ولا صداقة»[3] وقال: «إذا تصدّر الحَدَث فاته علم كثير»[4].

وأدخل الشافعي يوماً إلى بعض حجر هارون الرشيد ليستأذن له، ومعه سراج الخادم، فأقعده عند أبي الصمد مؤدب أولاد هارون الرشيد، فقال سراج للشافعي: يا أبا عبد الله، هؤلاء أولاد أمير المؤمنين؛ وهذا مؤدبهم، فلو أوصيته بهم، فأقبل عليه فقال: «ليكن ما تبدأ به من إصلاح أولاد أمير المؤمنين إصلاحك نفسك، فإن أعينهم معقودة بعينك، فالحسن عندهم ما تستحسنه، والقبيح عندهم ما تكرهه، علمهم كتاب الله ولا تكرههم عليه فيملوه، ولا تتركهم منه فيهجروه، ثم روِّهم من الشعر أعفه، ومن الحديث أشرفه، ولا تخرجهم من علم إلى غيره حتى يحكموه، فإن ازدحام الكلام في السمع مضلّة للفهم»[5].

---

(١) (٢) (٣) (٤) توالي التأسيس (٧٢).

(٥) صفة الصفوة (٢: ١٤٥).

من حكمه في الدين والزهد والتقوى:

قال ـ رحمه الله ـ: «لا يكمل الرجل في الدنيا إلاّ بأربع: الديانة، والأمانة، والصيانة، والرزانة»[1] وقال: «خير الدنيا والآخرة في خمس خصال: غنى النفس، وكف الأذى، وكسب الحلال، ولباس التقوى، والثقة بالله في كل حال»[2].

وقال: «إنك لا تقدر أن ترضي الناس كلهم، فأصلح ما بينك وبين الله، ثم لا تبالي بالناس»[3].

وقال: «ترك العبادة ذنب مستحدث»[4].

وقال: «أشد الأعمال ثلاثة: الجود في قلة، والورع في خلوة، وكلمة الحق عند من يرجى ويخاف»[5].

وقال: «عليك بالزهد، فإن الزهد على الزاهد أحسن من الحلي على الناهد»[6].

وقال: «التصوف مبني على الكسل، ولو تصوف رجل أول النهار، لم يأت الظهر إلاّ وهو أحمق»[7].

---

(١) (٢) (٣) (٤) (٥) توالي التأسيس (٧٢ ـ ٧٣).

(٦) الوافي بالوفيات (٢: ١٧٤).

(٧) صفة الصفوة (١: ٤) ويريد الشافعي بكلمته هذه الذين تصوفوا ولم يسلكوا طريق الشرع.

من حكمه الاجتماعية والحياتية:

قال الشافعي ـ رحمه الله ـ: «ليس من قوم لا يخرجون نساءهم إلى رجالٍ غيرهم ـ في التزويج ـ ولا رجالهم إلى نساء غيرهم ـ في التزويج ـ إلّا جاء أولادهم حمقى»[1].

وقال ليونس: «يايونس الانقباض عن الناس مكسبه للعداوة، والانبساط إليهم مجلبة لقرناء السوء؛ فكن بين المنقبض والمنبسط»[2].

وقال: «لا خير في صحبة من تحتاج إلى مداراته»[3]. وقال: «ما رفعت أحداً فوق منزلته إلّا حط مني بمقدار ما رفعت منه»[4]. وقال: «اللبيب العاقل هو الفطن المتغافل»[5] وقال: «قبول السعاية شر من السعاية، لأن السعاية دلالة، والقبول إجازة، وليس من دلَّ على شيء كمن قبل وأجاز»[6]، وقال: «من صدق في أخوة أخيه، قبل علله، وسد خلله، وعفا عن زلله»[7].

---

(١) آداب الشافعي (١٣٣).

(٢) صفة الصفوة (٢: ١٤٣).

(٣) الطبقات الكبرى (٢: ١٣٦).

(٤) الطبقات الكبرى (٢: ٩٨).

(٥) (٦) الصفوة (٢: ١٤٤).

(٧) الطبقات الكبرى (٢: ١٣٨).

وقال ليونس بن عبد الأعلى ـ فيما ينبغي أن تكون عليه معاملة الصديق ـ :

«يا يونس إذا بلغك عن صديق لك ما تكرهه، فإياك أن تبادره بالعداوة وقطع الولاية، فتكون ممن أزال يقينه بشك؛ ولكن القَه وقل له: بلغني عنك كذا وكذا، وإياك أن تسمي له المبلغ، فإن أنكر ذلك، فقل له: أنت أصدق وأبر، لا تزيدن على ذلك شيئاً، وإن اعترف بذلك فرأيت له في ذلك وجهاً بعذر فاقبل منه، وإن لم تر ذلك فقل له: ماذا أردت بما بلغني عنك، فإن ذكر ماله وجه من العذر فاقبل منه، وإن لم تر لذلك وجهاً لعذر، وضاق عليك المسلك، فحينئذٍ أثبتها عليه سيئة، ثم أنت بعد ذلك بالخيار، إن شئت كافأته بمثله من غير زيادة، وإن شئت عفوت عنه، والعفو أقرب للتقوى، وأبلغ في الكرم، لقول الله تعالى: ﴿ وجزاء سيئة سيئة مثلها، فمن عفا وأصلح فأجره على الله ﴾ فإن نازعتك نفسك بالمكافأة، فأفكر فيما سبق له لديك من الإحسان فعدها، ثم اندُر له إحساناً بهذه السيئة ولا تبخس باقي إحسانه السالف بهذه السيئة؛ فإن ذلك الظلم بعينه.

يا يونس، إذا كان لك صديق فشد يديك به، فإن اتخاذ الصديق صعب، وفراقه سهل»[1].

(١) صفة الصفوة (٢: ١٤٣).

وقال: «ثلاثة إن أهنتهم أكرموك، وإن أكرمتهم أهانوك: المرأة، والعبد، والفلاح»[1] وقال: «أصل كل عداوة الصنيعة إلى الأنذال»[2]. وقال: «صحبة من لا يخاف العار، عار يوم القيامة»[3]. وقال: «أظلم الظالمين لنفسه: من تواضع لمن لا يكرمه، ورغب في مودة من لا ينفعه، وقبل مدح من لا يعرفه»[4].

وقال: «من استغضب فلم يغضب فهو حمار، ومن استُرضي فلم يرض فهو شيطان»[5]. وقال: «لا تشاور من ليس في بيته دقيق»[6]. وقال: «من نمَّ لك نمّ بك، ومن نقل إليك نقل عنك، ومن إذا أرضيته قال فيك ما ليس فيك، كذلك إذا أغضبته قال فيك ما ليس فيك»[7]. وقال: «ليس العاقل الذي يُدفع بين الخير والشر فيختار الخير، ولكن العاقل من يختار أخيرهما» يريد خير الشرين[8].

كلامه في المروءة:

المروءة: الإنسانية، وكمال الرجولية. قيل للأحنف: ما المروءة؟ فقال: «العفة والحرفة»، وسئل آخر عنها، فقال:

---

(١) (٢) توالي التأسيس (٧٢).

(٣) (٤) (٥) توالي التأسيس (٧٢).

(٦) (٧) (٨) توالي التأسيس (٧٢ ـ ٧٣) وإنما نهى عن مشاورة من ليس في بيته دقيق؛ لأنه يكون مشغول القلب بالهم على إطعام من يعيل، ومن كان كذلك لا تجدي مشاورته.

«هي أن لا تفعل في السر أمراً وأنت تستحي أن تفعله جهراً»[1]. وفي المصباح: «المروءة: آداب نفسانية، تحمل مراعاتها الإنسان على الوقوف عند محاسن الأخلاق وجميل العادات».

وقال الشافعي: «للمروءة أربعة أركان: حسن الخلق، والسخاء، والتواضع، والشكر» وقال: «المروءة عفة الجوارح عما لا يعنيها»[2] وقال: «الشفاعات زكاة المروءات»[3].

وعاتب الشافعي ابنه ـ أبا عثمان ـ وكان فيما قال له، فوعظه به: «يا بني؛ والله لو علمت أن الماء البارد يثلم من مروءتي شيئاً، ما شربته إلّا حاراً». وروي بزيادة: «ولو كنت اليوم ممن يقول الشعر لرثيت المروءة»[4].

دعوته إلى القضاء:

دعي الشافعي إلى القضاء مرتين: أولاهما أيام الخليفة هارون الرشيد، حين أتى به ظنيناً، مع بعض المتهمين من العلوية، ثم كان موضع إعجاب الخليفة وثقته وعلمه، ولذلك سأله أن يوليه القضاء، فامتنع، فقال: سل

---

(١) تاج العروس مادة (مرؤ).

(٢) آداب الشافعي (٨٥) في الحاشية. وتوالي التأسيس (٧٢).

(٣) توالي التأسيس (٧٢).

(٤) آداب الشافعي (٨٥).

حاجتك، فقال: «حاجتي أن أعطى من سهم ذوي القربى بمصر، وأخرج إليها، ففعل به ذلك، وكتب له إلى أميرها»[1].

والمرة الثانية: أيام الخليفة المأمون ـ وكان الشافعي بمصر ـ فقد جاء رسول الخليفة إلى مصر، يدعو الشافعي للقضاء ـ وكان عليلاً شديد العلّة ـ فقال: «اللهم إن كان خيراً لي في ديني ودنياي وعاقبة أمري فأمضه، وإلا فاقبضني إليك» قال: فتوفي بعد هذه الدعوة بثلاثة أيام والرسول على بابه»[2].

الشافعي الطروب:

الشافعي ـ على دينه وعقله ـ عاطفي رقيق، وشاعر حساس، يستخفه الطرب وتشجيه الألحان، وما كان يمنعه مما يراه مباحاً ما عرفه الناس من إمامته وفضله وعلمه؛ إنما كان يستجيب أحياناً لهواه البريء، لا يرائي في التنزه عنه مخلوقاً، ولا يتكلف في أن يظهر بشيء قد يعجب الناس، ويخفي عنهم ما لا يعجبهم.

قال المزني: «مررنا مع الشافعي وإبراهيم بن إسماعيل بن علية على دار قوم وجارية تغنيهم:

---

(١) توالي التأسيس (٧٧).

(٢) توالي التأسيس (٨٤).

خليليّ ما بال المطايا كأننا
نراها على الأعقاب بالقوم تنكص[1]

فقال الشافعي: ميلوا بنا نسمع. فلما فرغت، قال الشافعي لإبراهيم: أيطربك هذا؟ قال: لا، قال: فما بالك؟»[2].

كأنه يقول له: فما بالك مريض الحس، جامد العاطفة، أو فما بالك تمنع عن نفسك وروحك غذاءهما المباح الذي لا ضرر منه على مثلك أو مثلي؟!.

من أدعية الشافعي

كان الشافعي ـ رحمه الله ـ إذا ألمت به مصيبة، أو نزلت به محنة، جأر إلى الله بالدعاء، دعاء المخبت الخاشع المتحقق بالعبودية، الموقن بالإجابة. وما كان الله ليضيع رجاءه، ولا ليهمل دعاءه، فكم من شدّة أزاحها عنه، وكربة فرجها بفضل الدعاء.

وأجل الخطوب قد أحدق به حين حمل إلى أمير المؤمنين الرشيد بتهمة البغي والخروج على الدولة، والموت ثَمّ يتربص به، وفرج الله عنه أعجل ما كان يتصور أحد من خلق الله، وذلك بفضل دعائه الذي رواه عنه الفضل بن الربيع

---

(١) البيت لعمر بن أبي ربيعة.

(٢) الطبقات الكبرى (٢: ٩٩).

صاحب هارون الرشيد، إذ حدَّث بقصة ذلك فقال: «دخلت على هارون الرشيد، فإذا بين يديه ضبارة[1] سيوف، وأنواع من العذاب، فقال لي: يا فضل، قلت: لبيك يا أمير المؤمنين. قال: عليّ بهذا الحجازي -يعني الشافعي-. فقلت: إنا لله وإنا إليه راجعون، ذهب هذا الرجل.

قال: فأتيت الشافعي، فقلت له: أجب أمير المؤمنين.

فقال: أصلي ركعتين.

فقال: صلِّ، فصلى، ثم ركب بغلة كانت له، فسرنا معاً إلى دار الرشيد، فلما دخلنا الدهليز الأول، حرك الشافعي شفتيه. فلما وصلنا حضرة الرشيد، قام إليه أمير المؤمنين كالمشرئب له، فأجلسه موضعه، وقعد بين يديه يعتذر إليه، وخاصة أمير المؤمنين قيام ينظرون إلى ما أعدّ له من أنواع العذاب، فإذا هو جالس بين يديه، فتحدثوا طويلاً، ثم أذن له بالانصراف.

فقال لي: يا فضل.

قلت: لبيك يا أمير المؤمنين.

فقال: احمل بين يديه بَدْرة، فحملت، فلما صرنا إلى الدهليز الأول لخروجه، قلت: سألتك بالذي صير غضبه عليك رضىً؛ إلا ما عرفتني ما قلت في وجه أمير المؤمنين حتى رضي.

---

(١) الضبارة: الخرقة.

فقال لي: يا فضل، فقلت له: لبيك أيها السيد الفقيه. قال: خذ مني واحفظ عني:

قلت: ﴿ شهد الله أنه لا إله إلا هو ﴾[1] الآية، اللهم إني أعوذ بنور قدسك، وببركة طهارتك، وبعظمة جلالك، من كل عاهة وآفة وطارق الجن والإنس، إلاّ طارقاً يطرقني بخير. يا أرحم الراحمين، اللهم بك ملاذي فيك ألوذ، وبك غياثي فيك أغوث، يا من ذلت له رقاب الفراعنة، وخضعت له مقاليد الجبابرة. اللهم ذكرك شعاري، ودثاري ونومي، وقراري، أشهد أن لا إله إلا أنت، اضرب عليَّ سرداقات حفظك، وقني رعبي بخير منك يا رحمن».

قال الفضل: فكتبتها، وجعلتها في بركة[2] قباي، وكان الرشيد كثير الغضب عليَّ، وكان كلما همَّ أن يغضب أحركها في وجهه فيرضى، فهذا مما أدركت من بركة الشافعي[3].

ومما شهر من أدعية الشافعي قوله: «اللهم يا لطيف، أسألك اللطف فيما جرت به المقادير» يقول ابن خلكان: وهو مشهور بين العلماء بالإجابة، وأنه مجرب[4].

---

(١) الآية ١٨ من سورة آل عمران.

(٢) البركة: الصدر.

(٣) الطبقات الكبرى (٢: ١٥٢).

(٤) معجم الأدباء: (١٧: ٣٠٦).

وكثيراً ما كان يلتجىء إلى الله بالدعاء عند أدنى مناسبة، فقد كان ـ رحمه الله ـ يوماً من أيام الجمع جالساً للنظر، فجاءت امرأة، فألقت إليه رقعة فيها:

عفا الله عن عبدٍ أعان بدعوة
خليلين كانا دائمين على ودّ
إلى أن مشى واشي الهوى بنميمة
إلى ذاك من هذا فزالا عن العهد

قال: فبكى الشافعي ـ رحمه الله ـ وقال: ليس هذا يوم نظر، هذا يوم دعاء، ولم يزل يقول: اللهم، اللهم، حتى تفرق أصحابه[1].

وفي هذه القصة دليل على رقة عاطفة الشافعي، وصفاء نفسه، وقد تقدم على ذلك كثير من الشواهد. ومما أثر عنه من دعاء، دعاؤه لميت، فقد روى يونس بن عبد الأعلى قال: «سمعت الشافعي ـ وحضر ميتاً ـ فلما سجينا عليه نظر إليه، وقال: «اللهم بغناك عنه، وفقره إليك اغفر له»[2]. وللشافعي أدعية كثيرة غير ذلك مبثوثة هنا وهناك في كتب التراجم، اجتزأنا منها بهذا المقدار.

---

(١) معجم الأدباء (١٧ : ٣٠٦).

(٢) صفة الصفوي (٢ : ١٤٢).

كلمات للشافعي انفرد بها

الشافعي مؤمن ريان الإيمان، إنساني كامل الإنسانية، آثر دينه وشرفه والعلم والحق، على ذاته وعواطفه ومتعته الخاصة، بالحب المطلق والسمو الروحي والنفسي، ولقد نقل عنه كلمات لم يسبق إليها، نختم بها كتابنا هذا، تدل على أنه أذاب مآربه كلها في سبيل دينه وأمته، وبهذا وحده لذته الأبدية الخالدة.

قال ابن حبان في صحيحه: ذكرنا في كتاب المدبَّر: أن الشافعي له ثلاث كلمات، ما تكلم بها أحدٌ في الإسلام قبله، ولا تفوه بها أحد بعده:

الأولى: سمعت ابن خزيمة يقول: سمعت المزني يقول: سمعت الشافعي يقول: «إذا صحّ لكم الحديث، فخذوا به، ودعوا قولي».

الثانية: سمعت ابن المنذر يقول: سمعت الحسن بن محمد الزعفراني يقول: سمعت الشافعي يقول: «ما ناظرت أحداً، فأحببت أن يخطىء».

الثالثة: سمعت موسى بن محمد الديلمي يقول: سمعت الربيع بن سليمان يقول: سمعت الشافعي يقول: «وددت أن الناس، تعلموا هذه الكتب، ولم ينسبوها إليَّ»[1].

* * *

(١) آداب الشافعي ومناقبه (٣٢٥).

خاتمة

مضى الشافعي إلى ربه، ومضى في إثره اثنا عشر قرناً، وأجيال تبعتها أجيال، وفيهم العلماء والفقهاء والفلاسفة والشعراء، وفيهم الملوك والأمراء، وكلهم غيض به في بطن الأرض، وازدردهم التاريخ، ونسيهم الناس إلاّ الإمام الشافعي وأمثاله، فقد قهروا الفناء الذي نال من كل شيء، وخلدوا على وجه الدهر، ولئن بليت أجسادهم إن أرواحهم وسيرتهم وهديهم واجتهادهم تنبض بالحياة، وبما ينفع الناس، فهم ـ حقاً ـ أقمار ساطعة هادية تستمد نورها من شمس النبوة، فتبدد الظلمات، وتمنح السداد، إن ضاع رشد، أو ادلَّهم خطب، أو حار دليل.

وما هذا الكتاب في تعريف الشافعي وإبراز فضله، إلاّ كمن يدل على إشراق الصباح بمصباح.

ولو وضعنا الأمور في نصابها، لكان حسبَ الشافعي من الفخار والرفعة والظهور أنه الشافعي، ولكنّا في عصر حال فيه ضباب المادة، وغيوم المدنية الزائفة، وسمادير الأوهام، عن

رؤية صفاء السماء، وما يشرق فيها من شموس وأقمار، وما يلتمع من نجوم وكواكب.

فإذا أرخ المؤرخون، وصنف المترجمون في الشافعي وأقرانه، فليصرفوا وجوه الناس وقلوبهم إلى القدوة الصالحة، وإلى منابع البر والخير والزهد والتقوى، وإلى العلم الذي لا يفارقه العمل، إلى المثل الإنسانية النبيلة التي فنيت مآربها، ولم يبق منها إلاّ إيثار الحق، ونفع الخلق، ورضاء الله.

المَــرَاجع

- **آداب الشافعي ومناقبه**، لابن أبي حاتم الرازي.
- **أساس البلاغة**، للزمخشري.
- **الإصابة في تمييز الصحابة**، لابن حجر.
- **الأعلام**، للزركلي.
- **أعلام الموقعين عن رب العالمين**، لابن قيم الجوزية.
- **الأم**، للشافعي.
- **الانتقاء**، لابن عبد البر.
- **تاج العروس (شرح القاموس)**، للزبيدي.
- **تاريخ بغداد**، للخطيب البغدادي.
- **تذكرة الحفاظ**، للذهبي.
- **تهذيب التهذيب**، لابن حجر.
- **ترتيب المدارك**، للقاضي عياض.
- **تهذيب الأسماء واللغات**، للنووي.
- **توالي التأسيس**، لابن حجر.
- **جمهرة أنساب العرب**، لابن حزم.
- **الجواهر المضية في طبقات الحنفية**، لعبد القادر القرشي.
- **حاشية ابن عابدين**، لابن عابدين.

- **حلية الأولياء**، لأبي نعيم الأصفهاني.
- **خطط المقريزي**، للمقريزي.
- **خلاصة تذهيب الكمال**، للخزرجي.
- **الرسالة**، للشافعي.
- **دستور العلماء**، لعبد النبي الأحمد بكري.
- **الرسالة المستطرفة**، للسيد محمد بن جعفر الكتاني.
- **سيرة عمر بن عبد العزيز**، لابن عبد الحكم.
- **الشافعي**، لمحمد أبو زهرة.
- **صفة الصفوة**، لابن الجوزي.
- **ضحى الإسلام**، لأحمد أمين.
- **طبقات الشافعية**، للشيرازي.
- **طبقات الشافعية الكبرى**، لابن السبكي.
- **العقد الفريد**، لابن عبد ربه.
- **فتح الباري بشرح البخاري**، لابن حجر.
- **فجر الإسلام**، لأحمد أمين.
- **الفصل في الأهواء والملل والنحل**، لابن حزم.
- **الفهرست**، لابن النديم.
- **الكشّاف**، للزمخشري.
- **اللباب**، لابن الأثير.
- **لسان العرب**، لابن منظور.
- **لسان الميزان**، لابن حجر.
- **المجموع**، للنووي.
- **المحمدون**، للقفطي.

- **المختصر**، للمزني.
- **المستصفى**، للغزالي.
- **المصباح المنير**، للفيومي.
- **معجم الأدباء**، لياقوت الحموي.
- **مفتاح السعادة**، لطاش كبرى زادة.
- **مناقب الشافعي**، للفخر الرازي.
- **ميزان الاعتدال**، للذهبي.
- **نزهة الإلباء**، لابن الأنباري.
- **النهاية في غريب الحديث**، لابن الأثير.
- **الوافي بالوفيات**، للصفدي.
- **وفيات الأعيان**، لابن خلكان.

فهرس

* * *